جوزفين تاي

بين الحب والحكمة



ترجمة عبد الفتاح عبد الله

بين الحب والحكمة

تأليف
جوزفين تاي

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
محمد يحيى



بين الحب والحكمة

To Love and Be Wise

جوزفين تاي

Josephine Tey

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٣٣٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الأبيات الواردة في الفصل الخامس عشر مُقتبَسة من المجموعة الشِّعرية «جندي ينظر إلى الجمال» لهيو بي إف ماكنتوش.

هذا الكتاب من الأدب القصصي، وكل الشخصيات والأحداث الواردة فيه من وحي الخيال.

الفصل الأول

توقَّفَ جرانت واضعًا قدمَه على أدنى درجات السُّلم، وراح يستمع إلى الصياح القادم من الطابق العلوي. وإلى جانب الصيحات كان هناك هدير غامِض ومُتواصِل؛ صوت قوي من أصوات الطبيعة، وكأنه صوتُ حريق في غابة أو صوت نهرٍ يفيض. وبينما كانت ساقاه المُتردِّدتان تحملانه إلى الأعلى، وصل جرانت إلى الاستنتاج المحتوم، وهو أن الحفل كان ناجحًا.

لم يكن جرانت ذاهبًا من أجل الحفل. فالحفلات الأدبية التي يجري فيها تناول مشروب الشيري — حتى المميزة منها — لم تكن مُفضَّلة لديه. كان جرانت ذاهبًا لاصطحاب مارتا هالارد لتناول العشاء في الخارج. الواقع أن رجال الشرطة في المُعتاد لا يصطحبُون للعشاء المُمثلات البارزات اللائي يتنقَّلنَ بين مسرحَي هايماركت وأولد فيك؛ ولا حتى حين يكُونون محقِّقين برتبة مفتشين في سكوتلانديارد. وقد كان هناك ثلاثة أسباب وراء اكتسابه هذا الوضع المُتميِّز، وكان جرانت على علم بها جميعًا. أولًا كان جرانت رفيقًا حسن الطلَّة، وثانيًّا، كان يتمتَّع بالقدرة المالية التي تؤهله لتناول العشاء في مطعم لوران، أما السبب الثالث، فكان أن مارتا هالارد لم تكن تحصل على رفيق لها بسهولة. فرغم كل ما تتمتَّع به من أناقة ومكانة، كان الرجال يخشون مارتا بعض الشيء. لذا حين ظهر جرانت في حياتها — وكان حينها مجرَّد مُحقِّق برتبة رقيب — بسبب سرقة بعض المجوهرات منها، حرصت على ألا يخرج أبدًا منها مرة أخرى. وكان جرانت أيضًا سعيدًا بوجوده في حياتها. فإن كان جرانت يُمثِّل مصدر عون لمارتا بوصفه فارسًا شهمًا يرافقها حين تكون في حاجة إليه، فقد كانت هي مصدر عون أكبر له باعتبارها نافِذة له على العالم. وكلما زادت نوافِذ رجل الشرطة على العالم، كان من المرجَّح أكثر أن يكون أفضل في عمله، وكانت مارتا بالنسبة إلى جرانت بمَنزلة «نافذة المجذوم» على عالم المسرح.

جاء هدير الحفل الناجح يفيض عبر الأبواب المفتوحة وصولًا إلى أعلى السلم، فتَوقَّف جرانت لينظر إلى الحشد المُزدحِم الذي يصيحُ في القاعة الطويلة المبنيَّة على الطراز الجورجي وليتساءل في ذهنه كيف سيجد مارتا ويتمكَّن من إخراجها من الغرفة.

داخل القاعة، عند الباب تمامًا، وقف شاب يبدو مُضطربًا، من الواضح أنه كان مرتبكًا بفعل الجدار البشري الصُّلب الذي يتألَّف من أناس يتحدثون ويشربون. كان لا يزال يمسك بقبعته في يده؛ ولذا بدا أنه وصل لتوِّه.

فقال جرانت لافتًا انتباهه: «أتُواجِه مُشكلة؟»

أجاب الشاب: «نسيتُ البوق الخاص بي.»

قالها الشاب بلهجة بطيئة ممطوطة، غير عابئ برفع صوته حتى يعلوَ على صوت الحشد. كان مجرد اختلاف نبرة كلامه هو ما جعل حديثه مسموعًا أكثر مما سيكون إذا ما رفع صوته. فرمَقَه جرانت مرة أخرى ببصره، مستحسنًا. وهنا لاحظ جرانت أن الشاب في غاية الوسامة بالفعل. كان أشقر الشعر بشدَّة بحيث لا يُمكن أن يكون إنجليزي الأصل بالكامل. ربما كان نرويجيًّا؟

أو ربما كان أمريكيًّا. كان هناك شيء في الطريقة التي نطَق بها كلمة «نسيت» يشي بأنه قادم من بلدٍ على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي.

كان الجو من خلف النوافذ في عصر هذا اليوم من أيام بداية الربيع معتمًا بالفعل وكانت الأنوار مُضاءة. وعبر ضباب دخان السجائر تمكن جرانت من رؤية مارتا عند الطرف الأقصى من الغرفة تستمع إلى توليس، الكاتب المسرحي، وهو يخبرها عن حقوقه الخاصة بالتأليف. لم يكن يتعيَّن على جرانت أن يسمع ما كان توليس يقولُه من أجل أن يعرف أنه كان يتحدَّث عن حقوقه المادية؛ فهذا هو كل ما كان يتحدث عنه توليس دائمًا. فقد كان بإمكان توليس أن يخبرك على الفور ما ربحته شركة نمبر تو من روايته «عشاء لثلاثة أشخاص» يوم إثنين الفصح في بلاكبول في عام ١٩٣٨. كانت مارتا قد تخلَّت حتى عن ادِّعائها بأنها تستمِع، وتدلَّت شَفتاها عند أركان فمها. وفكَّر جرانت في نفسه أنه لو لم تحصُل مارتا على وسام السيدة القائدة قريبًا، فستُصاب بخيبة الأمل لحاجتها إلى عملية شدِّ وجه. فقرَّر أن يبقى مكانه حتى يتمكَّن من لفتِ انتباهها. فقد كانا كلاهما على قدرٍ من الطول بما يكفي ليريا من فوق رءوس أي حشد عادي.

وبعادة التفتيش المتأصِّلة في رجل الشرطة سمح جرانت لعينَيه بأن تمرَّا عبر الحشد بينهما، لكنه لم يجد شيئًا مُثيرًا للاهتمام. كان الحضور المعتاد. كانت شركة روس

آند كرومارتي التي تحظى بازدهار كبير تحتفل بإصدار كتاب لافينيا فيتش الحادي والعشرين، وبما أنَّ ازدهار الشركة يعود إلى حدٍّ كبير إلى لافينيا، كان الشراب وفيرًا وكان الضيوف مُميَّزين. كان تميزهم في أناقة ثيابهم والشُّهرة التي يحظون بها. أما الشخص المميز من حيث الإنجاز فلم يكن ليحتفي بإصدار رواية «عاشق مورين»، ولم يكن ليحتسي شراب الشيري المقدَّم من السيدَين روس وكرومارتي. وحتى مارتا — تلك السيدة التي من المحتَّم أن تحصل على وسام السيدة القائدة — كانت هناك لأنها جارة للافينيا في القرية. وكانت مارتا — بارك الرب أناقتَها في حُلَّتها بالأبيض والأسود ونظرتها التي تنمُّ عن السخط — هي الأقرب للتميُّز الحقيقي في المكان.

بالطبع باستثناء ذلك الشاب الذي لم يكن يعرفه والذي أضاف إلى الحفل ما هو أكثر من وسامته. تساءل جرانت في ذهنه عما يعمله ذلك الشاب لكسب قوت يومِه. أهو مُمثِّل؟ لكن الممثل ما كان ليقف مُتحيِّرًا مُرتبكًا بالقرب من جمهورٍ ما. كما كان هناك شيء في تعليقِه الضمني للملاحظة التي أبداها عن البوق، في الانفصال الذي كان يرقُب المشهد به، والذي فصله عما يُحيط به. تساءل جرانت: هل من المُمكِن أن تكون وجنتاه هاتان غائرتين هكذا جراء العمل في مكتب سمسار في البورصة؟ أم ربما جمَّلت الإضاءة الخافتة التي تبثُّها مصابيح السيدَين روس وكرومارتي الغالية الثمن من ذلك الأنف المستقيم الجميل وذلك الشعر الأشقر المسترسِل وكان ذلك الشاب أقلَّ وسامة في ضوء النهار الطبيعي؟

قال الشاب، وهو لا يزال لم يرفع صوته مُضاهاةً للضوضاء التي حوله: «ربما يُمكنك أن تُخبرَني أيتهن الآنسة لافينيا فيتش؟»

كانت لافينيا هي تلك المرأة القصيرة ذات البشرة بلونِ الرمل، الواقفة بالقرب من النافذة الوسطى. وقد ابتاعت لنفسِها قبَّعة أنيقة من أجل المناسبة، لكنها لم تفعل شيئًا لتزيد من أناقتها؛ إذ كانت القبَّعة تقبع فوق شَعرها الأصهب الذي يُشبه عش الطير وكأنها سقطت في مكانها من نافذة علوية بينما تسير في الشارع. كان وجهها يكتسي بتعبيرها المعتاد الذي ينمُّ عن الارتباك والسرور، وخلا من أي مساحيق للتجميل.

فأشار جرانت للشاب نحوَها.

وقال: «هل أنت غريب هنا؟» محاولًا أن يستعير عبارة من الغربيين المهذَّبين. فقد كانت النبرة الرسمية المهذَّبة لعبارة «الآنسة لافينيا فيتش» لا تعني إلا أنه قادم من الولايات المتَّحدة الأمريكية.

«في الواقع أنا أبحث عن ابن أخت الآنسة فيتش. لقد بحثتُ عن عنوانه في سجل الهاتف ولم أجده هناك، لكنني كنت آمُل أن يكون هنا. هل تعرفه يا سيد ...؟»

«جرانت.»

«يا سيد جرانت؟»

«أعرفه شكلًا، لكنه ليس هنا. أنت تقصد والتر ويتمور، أليس كذلك؟»

«بلى. ويتمور. أنا لا أعرفه على الإطلاق، لكنني أودُّ كثيرًا أن ألتقيَ به لأن بيننا — أقصد كان بيننا — صديق مشترك رائع. كنت متأكدًا من أنني سأجده هنا. أأنت واثق تمامًا أنه ليس هنا؟ فهذا حفل كبير في نهاية المطاف.»

«إنه ليس في هذه القاعة؛ أنا واثق من هذا، لأن ويتمور في مثل طولي. لكن يظل من المحتمل أن يكون في مكانٍ ما بالأرجاء. اسمع، من الأفضل أن تذهب للقاء الآنسة فيتش. أعتقد أن بإمكاننا تجاوز هذا الحشد الكبير لو تحلينا بالإصرار على ذلك.»

فقال الشاب مُشيرًا إلى بنية كلٍّ منهما الجسدية: «انحنِ أنت وأنا سأُراوغ.» ثم قال وهما يتوقَّفان ليلتقطا أنفاسهما في مُنتصَف الطريق؛ إذ كانا محشورَين بشدة معًا بين مرافق وأكتاف مُرافِقيهم المحيطين بهم: «هذا لطف بالغ منك يا سيد جرانت»؛ وأخذ الشاب يضحك على جرانت وهو عاجز عن الحركة. وفجأة شعر جرانت بالإحراج. كان محرجًا لدرجة أنه التفتَ في الحال وأكمل صراعه عبر هذه الغابة من البشر نحو المساحة الخالية عند النافذة الوسطى حيث كانت تقف لافينيا فيتش.

وقال: «آنسة فيتش، هذا الشاب يُريد لقاءك. إنه يحاول التواصل مع ابن أختك.»

فقالت لافينيا: «مع والتر؟» وقد فقد وجهُها الصغير المدبَّب تعبيره المُرتبِك الذي ينمُّ في عمومه عن الدماثة وعلاه انتباه حقيقي.

«اسمي سيرل، يا آنسة فيتش. جئتُ من الولايات المتحدة في إجازة وأردتُ أن ألتقي والتر لأن كوني ويجن كان صديقًا لي أيضًا.»

«كوني؟ أنت صديق كوني؟ أوه، سيُسرُّ والتر كثيرًا يا عزيزي، سيُسرُّ كثيرًا. أوه، يا لها من مفاجأة لطيفة في خضمِّ هذا الـ ... أقصد أنها غير متوقعة تمامًا. سيُسرُّ والتر كثيرًا. هل قلتَ إن اسمك سيرل؟»

«أجل. ليزلي سيرل. لم أتمكَّن من العثور على عنوان والتر في سجل الهاتف ...»

«كلا، إن لديه منزلًا مؤقتًا في المدينة. هو يقطن قرية سالكوت سانت ماري مثل بقيتِنا. حيث توجد مزرعته كما تعلم. المزرعة التي يتكلَّم عنها في بثِّه. أو على الأقل إنها مزرعتي

لكنه يُديرها ويتحدَّث عنها و... سيبثُّ بعد ظهر اليوم، وهذا هو سبب عدم حضوره الحفل. لكن ينبغي لك أن تأتيَ وتمكُث لدينا. تعالَ في إجازة نهاية الأسبوع هذه. عُدْ معنا بعد ظهر اليوم.»

«لكنكِ لا تعرفين إن كان والتر ...»

«أنت ليس لديك أي ارتباطات في إجازة نهاية الأسبوع، أليس كذلك؟»

«كلا. كلا، ليس لديَّ ارتباطات. لكن ...»

«حسنٌ إذن. سيعود والتر مباشرة من الاستوديو، لكن يُمكنك أن تأتيَ معي أنت وليز في سيارتنا وسنُفاجئه. ليز! عزيزتي ليز، أين أنتِ؟ أين تُقيم يا سيد سيرل؟»

«في ويستمورلاند.»

«حسنًا، أنت على مقربة للغاية. ليز! أين ليز؟»

«أنا هنا، يا خالة لافينيا.»

«ليز، عزيزتي، هذا هو ليزلي سيرل، وسيعود معنا من أجل قضاء إجازة نهاية الأسبوع. إنه يُريد لقاء والتر لأنهما كانا صديقين لكوني. اليوم هو يوم الجمعة، وسنذهب جميعًا إلى سالكوت في إجازة نهاية الأسبوع لنتعافى من هذا؛ ستكون الأجواء لطيفة وهادئة وباعثة على السلام، وليس هناك ما هو أكثر ملاءمة من ذلك. لذا، خُذيه يا عزيزتي ليز إلى ويستمورلاند وساعديه على حزم أمتعتِه وعُودا إليَّ ثانية، هلا فعلت؟ في غُضونِ ذلك سيكون هذا ... هذا الحفل قد انتهى بالطبع ويُمكنكِ أن تُقلِّيني وسنعود إلى سالكوت معًا ونُفاجئ والتر.»

رأى جرانت علامات الاهتمام على وجه الشاب وهو ينظر إلى ليز جاروبي، وأخذ يفكر قليلًا. كانت ليز فتاة عادية المظهر، ضئيلة الجسد، ذات وجه شاحِب. وفي الحقيقة، هي تتمتَّع بعينين مميزتَين؛ فهما زرقاوان بلون زهرة الحبق ومُدهِشتان؛ كما تملك نوعية الوجوه التي قد يرغب الرجال في العيش إلى جوارها؛ إن ليز فتاة لطيفة. لكنها لم تكن من نوعية الفتيات التي قد تلفِت انتباه الشباب في الحال. ربما سمع سيرل بشائعات خطبتها، وكان يُعاملُها باعتبارها خطيبة والتر ويتمور.

فقد جرانت اهتمامه بشئون منزل فيتش حين رأى أن مارتا اكتشفَت وجوده. فأشار إلى أنه سيلتقي بها عند الباب، وغاص مرةً أخرى في أعماق الحشد الخانق. وبما أن مارتا كانت هي الأشرس بينهما، قطعت ضعف المسافة في نصف الوقت ووقفت تنتظره عند مدخل الباب.

سألت مارتا: «مَن ذلك الشاب الوسيم؟» وكانت تنظر خلفها بينما يتحركان باتجاه السلم.

«جاء يبحث عن والتر ويتمور. يقول إنه صديق كوني ويجن.»

كررت مارتا: «يقول؟» وكانت في نبرتها سخرية، ليس من الشاب بل من جرانت.

فقال جرانت معتذرًا: «العقلية الشُّرَطية.»

«ومَن هو كوني ويجن على أي حال؟»

«كان كوني أحد أشهر المصوِّرين الصحفيين في الولايات المتحدة. وقد قُتِل أثناء تصوير إحدى موجات العنف في البلقان قبل عام أو اثنين.»

«أنت تعرف كل شيء، أليس كذلك؟»

كان جرانت على وشك أن يقول: «الجميع يعرف ذلك عدا المُمثلات»، لكنه كان معجبًا بمارتا. فقال بدلًا من ذلك: «عرفتُ أنه سيذهب إلى سالكوت لقضاء إجازة نهاية الأسبوع.»

«ذلك الشاب الوسيم؟ عجبًا! آمُلُ أن لافينيا تعرف ما تفعل.»

«ما الخطب في استضافته؟»

«لا أعرف، لكن يبدو لي أنها تضع حُظوظهم على المحك.»

«حظوظهم؟»

«لقد آلت الأمور إلى ما يُريدونه، أليس كذلك؟ لقد أُنقِذ والتر من مارجريت ميريام واستقرَّ على أن يتزوَّج ليز؛ وستعيش الأسرة كلها في المنزل القديم، وهو أمر مريح إلى حد تعجز عن وصفه الكلمات. ويبدو لي أن الوقت ليس مناسبًا لتقديم شاب بهذه الوسامة المربكة إلى الأسرة.»

غمغم جرانت: «مُربِكة»، وتساءل في نفسه مرة أخرى عما أقلقه بشأن سيرل. ما كان يمكن لوسامته وحدها أن تتحمَّل مسئولية ذلك. فرجال الشرطة لا ينبهِرون بالوسامة.

فقالت مارتا: «أراهِن أن إيما بمجرَّد أن تلقيَ عليه نظرة واحدة ستُخرجه من المنزل بعد الإفطار مباشرة صباح يوم الإثنين. عزيزتها ليز ستتزوَّج والتر، ولن يمنع شيء حدوث هذا، طالما كان لإيما دخل بالموضوع.»

«لا تبدو لي ليز جاروبي سريعة التأثُّر إلى هذا الحد. لا أرى سببًا يدعو إلى أن تشعر السيدة جاروبي بالقلق.»

«أحقًّا لا ترى سببًا؟ لقد أُعجبتُ بذلك الشاب في غضون ثلاثين ثانية وفي نطاق عشرين ياردة، وعمليًّا أنا أُعَد منيعة فيما له صِلة بهذه الأمور. أضف إلى ذلك أنني لم أُصدِّق قط أن ليز وقعت في حب ذلك الشخص المُمل. إنما أرادت فقط أن تُضمِّد جراح قلبه.»

«أكانت جراحُه عميقةً؟»

«في رأيي أنه اهتز عاطفيًّا بقوة. وهذا طبيعي.»

«هل تعاملتِ مع مارجريت ميريام من قبل؟»

«أوه، أجل. أكثر من مرة. كنا معًا لفترة طويلة إلى حدٍّ ما في مسرحية «مسيرٌ في الظلام». هناك سيارة أجرة آتية.»

«تاكسي! ما رأيكِ فيها؟»

«مارجريت؟ أوه، كانت مجنونة بالطبع.»

«إلى أيِّ حد؟»

«إلى أقصى حد.»

«كيف ذلك؟»

«أتقصد كيف تجلى ذلك؟ أوه، لامُبالاة تامَّة تجاه كل شيء سوى ما تُريده في اللحظة الراهنة.»

«هذا ليس بجنون؛ إنما العقل الإجرامي في أبسط أشكاله.»

«في الواقع، أنت تعرِف أفضل يا عزيزي. ربما أخفقت كمُجرمة. الأمر الأكيد تمامًا أنها كانت شديدة الحماقة وما كنت لأتمنى حتى لوالتر ويتمور مصيرًا مثل أن يتزوج بها.»

«لماذا تكرهين الفتى الذهبي لدى عامة الشعب الإنجليزي إلى هذا الحد؟»

«أنا لا أكرهه يا عزيزي، إنما أكره طريقة «طموحه». كان الأمر سيئًا للغاية حين كان يسعى خلف طموحه فوق الزعتر على مُنحدَرِ تلٍّ على بحر إيجة بينما كان الرصاص يؤزُّ إلى جوار أذنَيه؛ لم يفشل قطُّ في أن يدعنا نسمع الرصاص: لطالما شككتُ أنه كان يفعل ذلك عن طريق الضرب بالسوط ...»

«مارتا، أنتِ تُسبِّبين لي صدمة.»

«لا يا عزيزي؛ إطلاقًا. أنت تعرف ذلك بقدرِ ما أعرفه أنا. حين كان الرصاص يوجَّه صوبنا «جميعًا»، حرص والتر على أن يكون في مكان آمن في مكتب لطيف سيئ التهوية تحت الأرض بخمسين قدمًا. ثم حين كان من المُميز مرة أخرى أن يصبح المرء معرضًا للخطر، خرج والتر من مكتبه الآمن الصغير ووضع نفسه على أحد التلال التي ينمُو عليها الزعتر ومعه ميكروفون وسوط ليصنع به أصوات الرصاص.»

«أرى أنني سأصبح في حاجة إلى إخراجك بكفالة، في يومٍ ما.»

«عن تهمة القتل؟»

«لا، بل عن تُهمة التشهير.»

«أيحتاج المرء كفالة لذلك؟ كنتُ أعتقد أنها أحد تلك الأشياء اللطيفة النَّبيلة التي يجري استدعاؤك بسببها للمثول أمام المحكمة وحسب؟»

فكر جرانت كم كانت مارتا شديدة الجهل بالقانون.

قالت مارتا بنبرتها المتفهمة الهادلة التي كانت تميزها على المسرح: «ولكن قد تظل التهمة هي تهمة القتل. يمكنني أن أتحمل أمر الزعتر والرصاص، لكن نظرًا لأنه حصل الآن على عقد إيجار مدته تسعة وتسعون عامًا لحُبيبات الثلج الذائبة في الربيع، وطيور نقار الخشب، وما إلى ذلك، فإنه يرقى إلى مُستوى الخطر العام.»

«لماذا تستمعين إليه؟»

«حسنًا، ثمة سحر بغيض بشأنه. فتقول في نفسك: حسنًا، هذه هي أقصى حدود الفظاعة، بحيث لا يُمكن أن يصبح هناك شيء أسوأ. ثم تستمِع في الأسبوع التالي لترى إن كان بالإمكان أن يُصبح الأمر أسوأ وأفظع. إنه شرك. إنه مريع جدًّا لدرجة أنك لا تستطيع حتى أن تغلق الراديو. فأنت تقف مشدوهًا في انتظار الشيء السيئ التالي، وذلك الذي يليه. وتكون لا تزال في مكانك حين يختم عرضه.»

«لا يُمكِن يا مارتا أن يكون شعورك هذا مجرَّد غيرة مهنية، أليس كذلك؟»

سألته مارتا: «أتشير إلى أن هذا المخلوق بأنه «مهني»؟» وقد خفضت صوتها إلى النبرة المثالية، حتى إنه كان يرتعش نتيجة تذكُّرها لسنوات مسيرتها المسرحية، وغرف السكن المُتواضِعة في الأقاليم وقطارات يوم الأحد، وتجارب الأداء المُملة على المسارح الباردة المُظلِمة.

«لا، أُشير إليه بأنه مُمثِّل. ممثل بطبيعته وعلى غير وعي منه، وقد تمكَّن من أن يصنع لنفسه اسمًا في غضون سنوات قليلة من دون أن يكون له أي عمل بارز في سبيل ذلك. يُمكنني أن أغفر لكِ أن هذا لا يروقكِ. ما الذي وجدت مارجريت أنه رائعٌ للغاية بشأنه؟»

«يمكنني أن أجيبك على ذلك. إخلاصه. لقد كانت مارجريت تتلذَّذ بتعذيب الآخرين. وكان والتر يدعها تفعل به الأفاعيل ثم يعود طالبًا المزيد.»

«وكانت هناك مرة لم يعُد بعدها.»

«أجل.»

«ما سبب آخر شجار وقع بينهما، هل تعرفين؟»

«لا أظن أنه كان هناك سبب. أظنُّ أنه أخبرها وحسب أنه اكتفى. أو على الأقل هذا ما قاله في التحقيق. هل قرأت النعايا بالمناسبة؟»

«أظنُّ أنني قرأتها وقتها. لا أتذكرها بصورة فردية.»

«لو كانت قد عاشت لعشر سنين أخرى لحصلت على مساحة صغيرة وسط «الإعلانات» في الصفحة الخلفية. لقد تلقَّت بالفعل نعايا أفضل من المُمثلة الشهيرة دوسيه. «خبت شُعلة عبقرية ولا عزاء للعالم». «كانت تمتلك خفة ورقة شجر تطير في الهواء، وسمو شجرة لبلاب في وجه الريح.» هذا هو نوع النعي الذي حصلت عليه. لقد تفاجأت حين علمت أنه لم يكن هناك حواف سوداء في الصحف من كثرة النعايا. فعليًّا كان الحِداد على مستوى البلاد بأسرها.»

«الوضع مختلف تمامًا بالنسبة إلى ليز جاروبي.»

«ليز، تلك العزيزة اللطيفة. لو كانت مارجريت ميريام سيئة جدًّا حتى بالنِّسبة إلى والتر ويتمور، فليز رائعة جدًّا حتى إنه لا يستحقها. إنها أروع من أن يستحقَّها. سأُسرُّ لو أبعدها ذلك الشاب الوسيم عن ناظرَيه.»

«بطريقة ما لا يُمكنني أن أرى «الشاب الوسيم» في دور الزوج، في حين أن والتر سيغدُو زوجًا مُمتازًا.»

«عزيزي، سيقدم والتر بثًّا عن الأمر. سيذيع كل شيء عن أطفالهما، وعن الأرفف التي وضعها في حجرة المؤن، وعن كيف تتكون انتفاخات الحمل لدى هذه المرأة الضئيلة الحجم، وعن أنماط الجليد على نافذة حجرة الأطفال. ستكون في أمان أكثر مع ... قلتَ ما اسمه؟»

«سيرل. ليزلي سيرل.» وفي شرود راح يُشاهِد لافتة مطعم لوران المصنوعة من النيون الأصفر الفاتح وهي تقترب.

ثم قال بتأمُّل: «بطريقةٍ ما لا أظنُّ أن الأمان ليس الصفة التي تنطبق على سيرل»؛ ومنذ تلك اللحظة نسي جرانت أمر ليزلي سيرل تمامًا حتى اليوم الذي أُرسِل فيه إلى سالكوت سانت ماري ليبحث عن جثته.

الفصل الثاني

قالت ليز حين خرجت إلى الرصيف: «يا لَلنهار الرائع! يا للنهار الصافي الطيب!» وراحت تتنسَّم هواء ما بعد الظهر في استمتاع. وأضافت: «لقد أوقفت السيارة عند زاوية الشارع في الميدان. أتَعرِف لندن جيدًا، يا سيد ... سيد سيرل؟»

«أجل، كثيرًا ما كنتُ أزورُ لندن في الإجازات. ولكني لا آتي غالبًا في مثل هذا الوقت المبكر من العام.»

«أنت لم ترَ إنجلترا قطُّ إلا إذا كنت قد رأيتها في الربيع.»

«هذا ما سمعت.»

«هل استقللتَ الطائرة إلى هنا؟»

«من باريس فقط، مثل أي أمريكي صالح. باريس جميلة في الربيع أيضًا.»

فردت ليز بنفس جملته ونبرته: «هذا ما سمعت.» ثم حين وجدت أنه ينظر إليها نظرةً أزعجتها، أردفت تقول: «هل أنت صحفي؟ هل عرفت كوني ويجن من خلال هذا؟»

«لا، أنا أعمل في نفس المجال الذي كان يعمل به كوني.»

«التصوير الصحفي؟»

«ليس الصحفي. التصوير فقط. أنا أقضي معظم فصل الشتاء على الساحل الغربي، أصور الناس.»

«الساحل الغربي؟»

«كاليفورنيا. هذا يجعلني في وضع مادي جيد. والنصف الآخر من العام أقضيه في السفر وتصوير الأشياء التي أريد تصويرها.»

قالت ليز وهي تفتح باب السيارة وتستقلها: «تبدو حياة طيبة».

«إنها حياة طيبة للغاية.»

كانت السيارة من طراز رولز رويس ذات مقعدَين؛ عتيقة الطراز بعض الشيء في شكلها كما هو حال سيارات رولز رويس التي تدوم إلى الأبد. شرحت له ليز هذا الأمر وهما يقطعان الطريق خروجًا من الميدان ويلتحمان بالحركة المرورية في نهاية فترة ما بعد الظهر.

«كان أول ما فعلته الخالة لافينيا حين جنت الكثير من المال أن اشترت لنفسها وشاحًا من فرو السمور. فلطالَما ظنت أن لوشاح فرو السمور الكلمة العُليا في الأناقة. وثاني شيء أرادت شراءه كان سيارة من طراز رولز رويس. وقد حصلت على هذه حين نشرت كتابها التالي. لم ترتدِ الخالة لافينيا الوشاح قطُّ لأنها قالت إن من مصادر الإزعاج المروعة أن يتدلى شيء من المرء طوال الوقت، لكن السيارة الرولز رويس كانت صفقة موفقة؛ لذا ما زالت لدينا.»

«وماذا حدث لوشاح فَرْو السمور؟»

«بادلت به اثنين من الكراسي على طراز المَلِكة آن وآلةً لجز العشب.»

حين وقَفا أمام الفندق قالت ليز: «لن يدَعُوني أنتظر هنا. سأذهب إلى ساحة الانتظار وأنتظرك.»

«لكن ألن تُساعديني في حزم حقائبي؟»

«أساعدك في حزم حقائبك؟ بالطبع لن أفعل.»

«لكن خالتك طلبت منكِ أن تفعلي.»

«كان ذلك مجرَّد تعبير مجازي.»

«لم يكن ذلك ما فهمته. على أي حال، اصعدي وشاهديني وأنا أحزم الحقائب. قد أَستفيد من رأيكِ كما سيُبهجني مُحيَّاكِ. إن مُحيَّاكِ لطيف.»

في نهاية المطاف كانت ليز هي في الواقع من حزمت الأغراض في حقيبتَيه، بينما يُخرج هو أغراضه من الأدراج ويُلقي بها إليها. لاحظَت ليز أن الأغراض كلها باهظة الثمن؛ مصنوعة بالطلب من أفضل الخامات.

سألته: «هل أنت فاحش الثراء، أم أنك شديدُ الإسراف؟»

«لنَقُل إنني أحب التأنُّق.»

بحلول الوقت الذي غادَرا فيه الفندق كانت أول مصابيح الشارع قد أضيئت لتُزيِّن ضوء النهار.

قالت ليز: «تُصبح الأضواء في أفضل شكل لها في هذا الوقت في رأيي. حين لا يزال ضوء النهار موجودًا. إنها باللون الأصفر الساحر كزهر النرجس البري. وبعد قليل حين يحل الظلام ستصبح الأضواء بيضاء وعادية.»

عادا بالسيارة إلى منطقة بلومزبيري ليجدا أن الآنسة فيتش قد رحلت. بينما تمدَّد السيد روس، أحد صاحبَي الشركة، على كرسي في إنهاك شديد، وهو يتجرَّع ما تبقَّى من شراب الشيري وقد غرق في التفكير، واستجمع بعض قواه ليقول بلطف إن الآنسة فيتش رأت أن سيارة السيد ويتمور ستكون بها مساحة أكبر فذهبت إلى الاستوديو ليأخُذها معه حين ينتهي من برنامجه الذي مدَّته نصف ساعة. وكان على الآنسة جاروبي والسيد سيرل أن يتبعاها إلى سالكوت سانت ماري.

ظل سيرل صامتًا وهما يشقَّان طريقهما خارج لندن؛ احترامًا للسائقة، كما اعتقَدَت ليز، فراقها ذلك منه. ولم يبدأ في الحديث عن والتر حتى بدأت الحقول الخضراء تظهر على الطريق عن جانبَيهما. يبدو أن كوني كان يحب والتر كثيرًا.

«إذن لم تكن في البلقان مع كوني ويجن؟»

«كلا، لقد تعرفت على كوني في الولايات المتحدة. لكنه تحدَّث كثيرًا في خطاباته عن ابن خالتك.»

«كان هذا لطفًا منه. لكن والتر ليس ابن خالتي.»

«حقًّا؟ لكن الآنسة فيتش خالتك، أليس كذلك؟»

«كلا. لا تجمعني بأيٍّ منهما أي صلة قرابة. لقد تزوجت أخت لافينيا — واسمها إيما — من أبي حين كنت صغيرة. هذا كل ما في الأمر. لقد حاصرته أمي — إيما — فعليًّا، إن كان لا بد من قول الحقيقة. ولم يكن أمامه مفر. لقد ربَّت لافينيا، وكانت صدمة مريعة لها حين بدأت فيني تتطلع إلى المستقبل وفعلت شيئًا لنفسها. خاصة لو كان شيئًا استثنائيًّا كأن تصبح من أفضل الكُتاب مبيعًا. نظرت إيما حولها لترى من يمكن أن تطوله يدها لتشمله برعايتها، وكان ذلك الشخص هو أبي، الذي كان مكبلًا بطفلته ويلتمس الوقوع في الأسر ببساطة. وهكذا أصبحت إيما جاروبي، وأصبحت أمي أيضًا. لا أعتبرها أبدًا «زوجة أبي»؛ لأنني لا أتذكر أمًّا غيرها. وحين مات والدي، أتت والدتي لتعيش في تريمنجز مع الخالة لافينيا، وحين أنهيتُ مدرستي أصبحتُ سكرتيرة لها. وهذا يُفسِّر ما قالته عن حزم أغراضك.»

«وماذا عن والتر؟ أين هو من كل ذلك؟»

«إنه ابن الأخت الكبرى. مات والداه في الهند وربَّته الخالة لافينيا منذ ذلك الحين. أعني مذ كان في الخامسة عشرة من عمره أو نحو ذلك.»

صمَتَ سيرل قليلًا، فكان بلا شك يُحاول استيعاب هذه الأمور في ذهنه.

تساءلت ليز في نفسها: لماذا أخبرته بذلك؟ لماذا أخبرته أن أمها كانت تنزع إلى التملُّك؛ حتى ولو أوضحت أنها كانت تحبُّ التملك بألطف الطرق؟ أكان من المحتمل أنها تشعُر بالتوتر؟ وهي التي لم تشعر من قبل قطُّ لا بالتوتر ولا بحب الثرثرة. ماذا كان هناك ليُصيبَها بالتوتر؟ من المؤكد أنه لا يوجد شيء يدعو إلى القلق والتوتر في وجود شابٍّ وسيم. لقد التقت بالكثير من الشباب الوسماء من قبل باعتبارها ليز جاروبي وسكرتيرة الآنسة لافينيا فيتش، لكنها لم تتأثر كثيرًا بهذا الشكل (بقدر ما يمكن لها أن تتذكر).

انعطفت ليز من على السطح الأسود المصقول للطريق الرئيسي إلى طريق جانبي. تلاشت خلفهما آخر لمحة من لمحات التطور الحديث، فصارا الآن في عالم ريفي تمامًا. كانت الطرق الصغيرة تتقاطع بعضها مع بعض، وأصبحت مجهولة الاسم دون أي صلة بينها، وأخذت ليز تنتقي الطرق التي ستسير عليها من دون تردد.

سألها سيرل: «كيف تعرفين الطريق؟ تبدو لي هذه الطرق الترابية الصغيرة متشابهة كثيرًا.»

«تبدو لي متشابهة أيضًا. لكنني قمت بهذه الرحلة كثيرًا حتى إن يديَّ تقومان بها تلقائيًّا، تمامًا كما تعرف أصابعي المفاتيح على الآلة الكاتبة. لا يمكنني ذكر أماكن المفاتيح في الآلة الكاتبة عن طريق محاولة تخيلها، لكن يديَّ تعرفان مكان كل مفتاح. أتعرف هذا الجزء من العالم؟»

«لا، إنه جديد علي.»

«إنها مقاطعة مضجرة في اعتقادي. رتيبة إلى حد بعيد. يقول والتر إنها مكان تتكرر على امتداده سبعة أشياء مع تغيير ترتيبها: ست أشجار وكومة قش. ويؤكد بالفعل أن أغنية المسير الرسمي لفوج المقاطعة تحتوي على عبارة تقول بكل وضوح: «ست أشجار وكومة قش!».» وغنت له المقطع الأخير. ثم قالت: «وحين ترى المطب على الطريق، تكون هذه هي بداية حدود أورفوردشير، وهي أكثر قبولًا بكثير.»

في واقع الأمر كانت مُقاطعة أورفوردشير امتدادًا من الأرض يبعث على الرضا. وفي ظلمة الغسق المتنامية تدفقت معالمها معًا في تشكيلات مُتغيِّرة باستمرار، فبدت في مثاليتها كالحلم. بعد ذلك توقَّفا على شفا وادٍ ضحل ونظرا أسفلهما إلى أسقف البيوت الملطَّخة بالسواد وأضواء القرية المُتناثِرة.

قالت ليز، وهي تُقدِّمها له: «هذه هي سالكوت سانت ماري. قرية إنجليزية كانت فيما مضى جميلة وأصبحت الآن مُحتلَّة.»

«مَن الذين يحتلونها؟»

«من يُطلِق عليهم من تبقى من السكان الأصليين «عصبة الفنانين». هذا محزن كثيرًا لهم، أولئك المساكين. لقد تعاملوا مع الخالة لافينيا بهدوء؛ لأنها كانت مالكة «المنزل الكبير» ولم تكن جزءًا من حياتهم الفعلية على الإطلاق. كما أنها مكثت كثيرًا هنا حتى إنها بدأت تنتمي إلى هذا المكان. لم يكن المنزل الكبير قطُّ جزءًا من القرية طوال القرن الماضي، على أي حال؛ لذا لم يكن من المهم كثيرًا من كان يعيش فيه. لقد بدأت المشاكل حين أصبح منزل ميل هاوس شاغرًا، وكانت إحدى الشركات ستشتريه. أقصد لتحوله إلى مصنع. حينها سمعت مارتا هالارد بالأمر واشترته لتعيش فيه، وكان ذلك تحت أعين العديد من المحامين، فسُرَّ الجميع وظنوا أنهم قد نجوا. لم يكن يروقهم كثيرًا أن تعيش ممثلة في هذا البيت، لكن على الأقل لن يصبح هناك مصنع في قريتهم الرائعة في نهاية المطاف. يا لهم من مساكين، ليتهم أدركوا الوضع سلفًا!»

ثم أدارت ليز السيارة، وراحت تقود ببطءٍ على طول المنحدَر، الموازي للقرية.

قال سيرل: «أعتقد أن الزحف من لندن إلى هنا قد بدأ في غضون ستة أشهر تقريبًا.»

«كيف عرفت ذلك؟»

«أرى ذلك طوال الوقت هناك على الساحل الغربي. يجد أحدُهم بقعة هادئة طيبة، وقبل أن ينتهي من أعمال السباكة يجد نفسه مطالبًا بالتصويت من أجل اختيار عمدة.»

«أجل، تجد غريبًا في كوخ من بين كل ثلاثة. هناك كل درجات الثراء بدءًا بتوبي توليس — الكاتب المسرحي كما تعرف — الذي يمتلك منزلًا جميلًا على الطراز الجاكوبي في مُنتصَف شارع القرية، حتى سيرج راتوف الراقص الذي يعيش في إسطبل تحوَّل إلى منزل. وهناك كل درجات العيش في الخطيئة، بدءًا بديني بادينجتون التي لا يأتيها زائر إجازة نهاية الأسبوع نفسه مرتَين أبدًا، وحتى العجوزين المسكينين أتلانتا هوب وبارت هوبارت اللذَين يعيشان في الخطيئة — ليرحمهما الرب — منذ ثلاثين عامًا. وهناك كل درجات الموهبة بدءًا من سيلاس ويكلي — الذي يكتب تلك الروايات الكئيبة عن حياة الريف والتي تعج بالروث الذي ينبعث منه البخار والأمطار المنهمرة — وحتى الآنسة إيستون-ديكسون التي تكتب كتابًا واحدًا في العام عن القصص الخرافية من أجل موسم عيد الميلاد.»

فقال سيرل: «يبدو ذلك رائعًا.»

فردَّت ليز بنبرة حانقة أكثر مما كانت تبغي: «بل قبيحًا للغاية»، ثم تساءلت مرة أخرى عن سبب انفعالها بهذا الشكل هذا المساء. وعادت تقول وقد جمعت شتات نفسها: «وبالحديث عن القبح، أخشى أن الجو مظلم كثيرًا بالنسبة إليك بما لا تستطيع معه أن تُقيِّم تريمنجز جيدًا، لكن تقييمه الكامل يُمكن أن ينتظر حتى الصباح. يُمكنك أن تحصل فقط على الانطباع العام عنه وهو في مواجَهة السماء.»

انتظرَت حتى نظر الشاب إلى أطر قِمَم الأبراج والأسوار ذات الفتحات المُظلِمة في سماء المساء. ثم قالت: «التُّحفة الاستثنائية هي البيت الزجاجي القوطي، وهو ما لن تستطيعَ رؤيته في ظل هذا الضوء.»

سأل سيرل في تعجُّب: «لماذا اختارت الآنسة فيتش هذا الطراز؟»

فقالت ليز وكان صوتها دافئًا بفعل الألفة والانسجام: «لأنها ظنَّت أنه راقٍ وفاخر. لقد ترعرعت الآنسة فيتش في بيت قس؛ من النوع الذي بُنيَ حوالي عام ١٨٥٠؛ لذا اعتادت عينها رؤية الطراز القوطي الفيكتوري. وحتى الآن، هي لا ترى حقًّا أي مشكلة به. هي تعرف أن الناس يسخرون منه، وهي متقبلة ذلك إلى حدٍّ ما، لكنها لا تعرف حقًّا لمَ يسخرون. حين أحضرت كورماك روس — وهو الناشر الخاص بها — إلى هنا لأول مرةٍ أثنى عليها بسبب ملاءمة الاسم، ولم تكن لديها أدنى فكرة عما كان يقصد.»

قال الشاب: «في الواقع، لستُ في حالة مزاجية لأن أنتقد حتى الطراز القوطي الفيكتوري. كان من اللطيف كثيرًا من جانب الآنسة فيتش أن تأتي بي إلى هنا من دون حتى أن تتوقف لتبحث عني في سجلات الهاتف. فنحن في الولايات المتحدة نتوقع المزيد من الحذر من جانب الإنجليز على نحو ما.»

«إن المسألة لدى الإنجليز لا تتعلق بالحذر؛ بل هي مسألة حسابات منزلية. لقد طلبت منك الخالة لافينيا الحضور إلى هنا على الفور لأنها لم يكن عليها أن تفكر في أمور المنزل. إنها تعرف أن هناك ما يكفي من البياضات الاحتياطية لفرش سريرٍ إضافي، وما يكفي من الطعام في المنزل لإطعام ضيف، وما يكفي من «العمالة» ليعملوا على راحتك، ومن ثمَّ لم يكن أمامها داعٍ للتردُّد. أرجو ألا تمانع لو ذهبنا مباشرة إلى المرأب وأدخلنا أغراضك من الباب الجانبي. إن المسافة بين الباب الأمامي ومسكن الخادمات طويلة؛ لأن القاعة البارونية تعترض الطريق للأسف.»

سألها سيرل وهو يرفع نظره نحو هيكل المنزل بينما يطوفان حوله: «مَن بنى هذا ولماذا بناه؟»

«رجل من برادفورد، بحسب ما علمت. كان هناك منزل قديم جميل للغاية على الطراز الجورجي في هذا المكان — هناك صورة له في حُجرة الأسلحة — لكنه رأى أنه رديء الشكل فهدَمه.»

حمل سيرل أغراضه عبر ممرات قبيحة مُضاءة بإضاءة خافتة؛ قالت ليز إنها تُذكِّرُها دائمًا بالمدرسة الداخلية.

قالت ليز وهي تشير إلى سلم للخدم: «ضعها هنا وحسب، وسيصعد بها أحدهم بعد قليل. لتدخلِ الآن إلى مكان به شيء من الحضارة، وتتدفَّأ وتحصلْ على شراب وتلتقِ بوالتر.»

دفعت ليز بابًا من الجوخ الأخضر ففتحتْه وأرشدت سيرل إلى مقدمة المنزل.

سألها سيرل وهما يعبُران المساحات الخالية في الردهة: «أتمارسين التزحلُق بحذاء ذي عجلات؟»

ردت ليز بأنها لم تُفكِّر في الأمر، لكن المكان بالطبع كان صالحًا لحفلات الرقص. وقالت: «إن هواة الصيد المحليين يستخدمونه مرة واحدة في العام. وعلى الرغم من أنك قد لا تظن ذلك، فإن المكان أقل عرضة للتيارات الهوائية من قاعة بورصة القمح في ويكهام.»

ثم فتحت بابًا فانتقلا من مساحات أورفوردشير الرمادية وممرات المنزل القاتمة الكئيبة إلى الدفء ونور المدفأة وحَفاوة غرفة المعيشة التي تعجُّ بأثاثٍ طال به العهد وتفوح برائحة الخشب المحترق ونبات النرجس. كانت لافينيا غارقة في أحد الكراسي وقدماها الصغيرتان الناعمتان موضوعتان على حافة حاجز المدفأة الفولاذي وشعرُها الأشعث يخرج من دبابيسه فيفترش بطانة الكرسي. وفي مواجهتها، يقف والتر ويتمور بطريقته المفضَّلة، مرفقه على رف المدفأة وإحدى قدميه على حاجزها، ورأته ليز فشعرت بدفقات من مشاعر الحب والارتياح.

لِمَ هذا الارتياح؟ هكذا سألت ليز نفسها وهي تستمع إلى عبارات التحية والترحيب. كانت تعلم أن والتر سيكون موجودًا. فلماذا الشعور بالارتياح؟

أكان الأمر فقط أنها تستطيع الآن تسليم عبء الواجبات الاجتماعية إلى والتر؟

لكن الواجبات الاجتماعية كانت مهمتها اليومية وكانت تقوم بها بصدر رحب. ولا يمكن كذلك اعتبار سيرل عبئًا بحق. فلم تلتقِ ليز بأحدٍ بهذا اللطف والتساهُل إلا نادرًا. لماذا كل هذا السرور لرؤية والتر، ذلك الشعور العبثي بأن الأمور ستصبح الآن على ما يرام؟ وكأنها طفل عاد من مكان غريب عليه إلى مكان يألفه.

راحت ليز ترقُب السرور على وجه والتر وهو يستقبل سيرل؛ وأحبَّته. كان إنسانًا عاديًّا، وغير مثالي، وقد بدأت التجاعيد تغزو وجهه بالفعل، كما أبدى شَعره أمارات عودته

للنمو فوق صدغَيه، لكنه كان والتر، وكان حقيقيًّا؛ وليس ... ليس شيئًا ذا وسامة أو جمال غير بشري جاء من زمن سحيق يتخطى حدود ذاكرتنا.

سعدت ليز حين لاحظت أن الوافد الجديد بدا قصيرًا تقريبًا وهو يقف وجهًا لوجه أمام والتر الفارع الطول. كما كان حذاؤه — رغم ثمنه الباهظ ومن وجهة نظر إنجليزية — غير مُلائم بنحو واضح.

فقالت لنفسها وهي غارقة حتى أذنَيها في عبثيتِها: «إنه مجرَّد مُصوِّر في نهاية المطاف.»

فهل كانت معجَبة بليزلي سيرل حتى إنها كانت في حاجة إلى الحماية منه؟ بالتأكيد لا.

كان من الشائع أن يصادف المرء هذه الوسامة العجيبة بين الشعوب الشمالية؛ ولم يكن ليعجَب منها لدرجة تُذكِّره بحكايات شعب السيلكي الأسطوري وغرابتهم. كان الشاب مجرَّد شاب وسيم ذي أصول إسكندنافية أمريكيَّة يتمتَّع بذوق بائس في اختيار الأَحذية ومَوهبة في استخدام النوع المناسب من العدسات. لم يكن هناك أدنى حاجة إليها أن ترسُم إشارة الصليب، أو أن تُلقي تعويذات لتحمي نفسها منه.

على الرغم من ذلك، حين سألته أمها على العشاء عما إن كان له أي أقارب في إنجلترا، أدركت ليز أنها تفاجأت بشكل غير مفهوم من أنه يمتلك أشياء عادية ودنيوية كالأقارب.

رد سيرل بأن لديه ابنة عم؛ وكان هذا كل شيء.

«نحن لا يروق بعضنا بعضًا. فهي تعمل رسامة.»

سأله والتر: «هل رسمُها غير مُتناسِق؟»

«أوه، أنا أُحبُّ رسمَها كثيرًا، أو ما رأيتُ منه. الأمر فقط أننا يزعج بعضنا بعضًا؛ لذا لا يُلقي بعضنا لبعض بالًا.»

سألته لافينيا عما كانت ترسمه ابنة عمه؛ أهي صور شخصية؟

تساءلت ليز في نفسها، فيما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث، إن كانت تلك الفتاة قد رسمت ابن عمها من قبل. لا بدَّ أنه أمر رائع أن تكون قادرًا على أخذ فرشاة ومجموعة من الألوان وتصور من أجل متعتك ورضاك وسامةً لا يُمكن أن يمتلكها أحد آخر غيره. وأن تحتفظ بهذه الصورة وتنظر فيها متى أردت حتى تموت.

قالت ليز لنفسها: «إليزابيث جاروبي! خلال وقتٍ ليس ببعيدٍ إطلاقًا ستُعلِّقين صُوَر المُمثِّلين.»

لكن لا؛ لم يكن الأمر على هذا النحو على الإطلاق. لم يكن في الأمر شيء مذمومًا أكثر من الوقوع في حب ... أو الإعجاب بعمل من أعمال براكسيتيليز. لو أراد براكسيتيليز يومًا أن يُخلد أحد عدَّائي سباقات الحواجز، لكان ذلك العدَّاء سيُشبه ليزلي سيرل تمامًا. ينبغي عليها أن تسأله في وقتٍ ما عن مكان المدرسة التي كان يذهب إليها، وما إن كان قد شارك من قبل في سباقات الحواجز.

شعرت ليز بشيء من الأسف عندما لاحظت أن سيرل لم يرُق والدتها. بالطبع لم يكن أحد ليشكَّ في أمر كهذا؛ لكن ليز تعرف أمها جيدًا وكان بإمكانها أن تقيِّم بدقة بالغة ردود فعلها الخفية تجاه أي موقف من المواقف. كانت ليز تُدرك الآن مشاعر انعدام الثقة التي تفجَّرت وفاضت خلف ذلك المظهر الخارجي اللطيف المداهِن، كما تتفجر الحمم وتفيض خلف منحدرات جبل فيزوف الباسمة.

وفي ذلك كانت ليز بالطبع محقَّة. فحين ذهب والتر بضيفه ليُريه غرفته، وذهبت ليز للإعداد لوجبة العشاء، تحدثت السيدة جاروبي إلى أختها عن ذلك الشخص المجهول الذي جلبته إلى المنزل.

إذ سألتها: «كيف تعرفين إن كان يعرف كوني ويجن بالفعل؟»

فردت لافينيا على نحو عقلاني: «لو أنه لا يعرفه، فسرعان ما سيكتشف والتر ذلك. لا تزعجيني يا إم. أنا متعبة. كان الحفل مزعجًا كثيرًا. كان الجميع يثرثرون كثيرًا ويصيحون بأعلى أصواتهم.»

«إن كانت خطته الحقيرة تنطوي على سرقة تريمنجز، فسيكون الوقت قد تأخَّر كثيرًا بحلول صباح الغد عندما يدرك والتر أنه لا يعرف كوني على الإطلاق. بإمكان أي شخص أن يقول إنه كان على معرفة بكوني. وإن كان الأمر له صِلة بهذا، فيُمكن لأي أحد أن يقول إنه كان على معرفة بكوني وينجو بفعلته. فعمليًّا لم يكن هناك أي جانب من حياة كوني غير معروف لعامة الناس.»

«لا يُمكنني أن أجد سببًا لتَشكُّكِك الشديد حياله. كثيرًا ما استضفْنا دون تفكير أناسًا ما كنا نعرف عنهم أي شيء هنا ...»

فقالت إيما في تجهُّم: «بالفعل، هذا صحيح.»

«وحتى الآن، دائمًا ما كانوا يصدُقون فيما يقولون. فلماذا اخترتِ السيد سيرل ليكون محلَّ شُكوككِ؟»

«إنه جذاب بشدة على أن يكون مأمون الجانب.»

كان من المعتاد بالنسبة إلى إيما أن تتجنَّب قول كلمة «جميل»، وأن تستخدِم كلمة بديلة عادية ككلمة «جذاب».

وأشارت لافينيا إلى أنَّ قدر الضرر الذي سيتسبَّب فيه السيد سيرل في المنزل سيكون ضئيلًا بالضرورة إذ إنه سيمكُث حتى يوم الإثنين فقط.

«وإن كان غرض السرقة هو ما يدور بخلَدك، فسيتلقَّى صدمة مُحزِنة حين يطوف بتريمنجز. لا يمكنني أن أفكر في شيء يستحق سرقته من هنا وحتى ويكهام.»

«هناك الفضيات.»

«بطريقة ما لا يُمكنُني أن أتخيل أن أحدًا يتكبد عناء المَجيء إلى حفل كورماك ويدَّعي بأنه يعرف كوني ويطلُب لقاء والتر من أجل الحصول فقط على دزينتين من الشوكات وبضع ملاعق وصينية تقديم. لماذا لا يكسر القفل في إحدى الليالي المظلمة وحسب ويسرق ما يريد؟»

بدت السيدة جاروبي غير مُقتنِعة.

«من المفيد بشدة أن تتحدَّث عن شخص مُتوفًّى إذا ما أردت أن تُقدَّم إلى إحدى الأسر.»

ردت لافينيا: «أوه، يا إم»، ثم انفجرت ضاحكة على الجملة بقدر ما ضحكت على الفكرة.

وهكذا جلست السيدة جاروبي وأخذت تُفكِّر في عبوس خلف مظهرها الخارجي اللطيف. لم تكن خائفة على الفضيات الخاصة بتريمنجز بالطبع. بل كانت خائفة مما أطلقت عليه «جاذبية» الشاب. كانت مُرتابة من جاذبيته في حدِّ ذاتها، وكرهت أن تراها تهديدًا محتملًا لمنزلها.

الفصل الثالث

لكن إيما لم تُخرِج الشاب من المنزل في الصباح الباكر ليوم الإثنين، كما تنبَّأت مارتا هالارد. فبحلول ذلك الوقت، كان سكان تريمنجز غير مُصدِّقين — كلهم عدا إيما — أنهم لم يسمعوا من قبل عن ليزلي سيرل قبل يوم الجمعة السابق. لم يحدث من قبل أن تمكَّن زائر لتريمنجز من الاندماج مع أهله كما فعل سيرل. كما لم يكن هناك من قبل من تمكَّن من التأثير في حياة كل فرد منهم بالقدر نفسه.

تنزه سيرل في المزرعة مع والتر، مُبديًا إعجابه بالمسارات الممهدة بالطوب، وحظيرة الخنازير، وفرازة اللبن. كان سيرل قد أمضى إجازاته الدراسية في إحدى المزارع؛ لذا فهو مُلمٌّ بالتفاصيل ومنفتح على الجديد منها. ووقف ينتظر بصبر في الممرات الخضراء بينما أخذ والتر يسجل في مفكرته الصغيرة برعمًا نبَتَ على السياج الشجري أو نغمةَ غناء طائر ستُفيدُه في بثِّه يوم الجمعة المُقبل. كما صور بالقدر نفسه من الحماسِ الطابعَ الأصيل لمنزل المزرعة الصغير الذي يبثُّ روح القرن السابع عشر، وانعدام الترابط السريالي في تريمنجز، وسعى من أجل توصيل السِّمة الأساسية لكلٍّ منهما. وبالفعل كان تعليقُه الفوتوغرافي على تريمنجز ذكيًّا للغاية، حتى إن والتر شعر بالانزعاج للحظة بعد الضحكة التي انطلقت منه لاإراديًّا. كان ذلك الشاب الظريف يمتلك جوانب أكثر مما كان باديًا في محادثةٍ عن الزراعة وتربية الحيوانات. كان والتر قد أخذ قلَّة معرفة الفتى كأمرٍ بديهي حتى إن النظر إلى تلك الصور كان مُثيرًا للانزعاج كما لو أن شبحه قد حدَّثه فجأةً.

لكن والتر نسي أمر تلك اللحظة قبل أن تمرَّ بكاملها تقريبًا. فلم يكن من النازعين للاستبطان.

أما عن ليز النازعة للاستبطان، على الجانب الآخر، فقد أصبحت الحياة بالنسبة إليها فجأةً مدينة ملاهٍ من نوع ما. أو كلعبة صندوق الدنيا التي يلهو بها الأطفال. مكانًا لم

يكن يظلُّ فيه أحد الأسطح ساكنًا أو أفقيًّا لأكثر من بضع ثوانٍ مجتمعة. مكانًا يغوص فيه المرء في الأخطار الوهمية السريعة ويدور وسط أضواء ملونة. كانت ليز تقع في الحب وتخرج منه على نحو شبه مستديم منذ كانت في عمر السابعة، لكنها لم تُرِد قطُّ أن تتزوَّج من أحد غير والتر. والتر الذي كان لا شيء غير نفسه، وكان مختلفًا. لكنها لم تكن من قبل قط، أثناء تلك السلسلة الطويلة من العلاقات بدءًا من موزِّع الخبز وحتى والتر، مُهتمَّة بأحد كما كان الحال مع سيرل. حتى مع تينو تريسكا، ذي العينين الحانيتين والشخصية التي كانت تُذيب القلب ذوبان الثلج، حتى مع تريسكا، الأكثر جنونًا بين كل من أحبَّتهم، كان من المُمكن لها أن تنسى لبضع دقائق متتالية أنها في الغرفة نفسها معه. (بالطبع لم يكن هناك مع والتر أي شيء استثنائي في حقيقة يتشاركان الهواء نفسه؛ لقد كان موجودًا وحسب وكان هذا جيدًا بالنِّسبة إليها.) لكن لم يكن من الممكن قط أن تنسى أن سيرل كان معها في الغرفة نفسها.

لماذا؟ أخذت تسأل نفسها. أو على وجه الدقة، لماذا لا؟

لم يكن لهذا الاهتمام، أو تلك الإثارة، أي صلة بالوقوع في الحب. ففي مساء يوم الأحد، وبعد قضاء يومين بصُحبته، لو كان سيرل قد التفت لها وقال: «غادري معي يا ليز»، كانت ستضحَك بصوتٍ عالٍ من تلك الفِكرة العبثية. فلم يكن لديها أي رغبة في أن تُغادر معه.

لكن كان الضوء يُغادر الغرفة معه، ويعود مرة أخرى حين يعود. كانت ليز على وعيٍ بكلِّ حركة يقوم بها، من طَرقه الخفيف بسبابته وهو ينقر على مفتاح الراديو، إلى رفعه لقدمه حتى تركل قطعة من الخشب في المدفأة.

لماذا؟

ذهبت ليز للتجوُّل معه عبر الغابة، وأرَته القرية والكنيسة، ودائمًا ما كانت الإثارة موجودة؛ في نبرته البطيئة الممطوطة وهو ينطق بالمجاملات اللطيفة وفي هاتين العينين الرماديتين المثيرتين للقلق، اللتين بدتا وكأنهما تعرفان عنها الكثير. كان جميع الرجال الأمريكيين بالنسبة إلى ليز مُقسَّمين إلى صنفَين؛ أولئك الذين يُعاملونكِ وكأنكِ امرأة عجوز ضعيفة، وأولئك الذين يعاملونكِ وكأنك ضعيفة وحسب. كان سيرل ينتمي إلى الصنف الأول. فكان يُساعدها على صعود درجات المرقى الذي يُساعد في عبور الأسيجة والجدران ويحميها من أخطار الازدحام في شارع القرية؛ وكان سيرل ينزِل على رأيها ويُرضي غرورها؛ ونظرًا لأنَّ هذا يُمثل تغييرًا جذريًّا مُقارَنة بأسلوب والتر معها، ووجدت ليز ذلك

باعثًا على السرور. كان والتر يُسلِّم يقينًا بأنها ناضِجة بما يكفي لتعتنيَ بنفسها، لكنها ليست ناضجة بما يكفي ليسألها والتر ويتمور عن رأيها، ذلك الرجل الذي ذاعت شهرته عبر الجزر الإنجليزية وجزء كبير من البلدان الأوروبية. كان أسلوب سيرل نقيضًا ساحرًا لأسلوب والتر.

فكَّرت ليز، وهي تُشاهدُه يسير بتؤدة في أرجاء الكنيسة، أنه كان سيُمثِّل رفيقًا مثاليًّا لها لولا تلك الإثارة الباعثة على الانزعاج؛ ذلك الشعور بالقيام بشيء خطأ.

لاحظَت ليز أيضًا أنه حتى لافينيا التي يصعب التأثير فيها — والتي دائمًا ما تكون شبه منفصلة عن بطلتها الحالية التي تكتُب عنها — قد تأثَّرت بتلك الجاذبية الغريبة. كان سيرل قد جلَس معها في الشرفة بعد تناول العشاء مساء يوم السبت، فيما ذهب كلٌّ من والتر وليز للسير في الحديقة وانصرفت إيما للعناية ببعض شئون المنزل. وفيما كان والتر وليز يمرَّان تحت الشرفة في كل جولة من جولاتهما في الحديقة، كان بإمكان ليز أن تسمَع صوت خالتها الطُّفولي الخفيف وهي تُثرثِر في سعادة، وكأنها جدول صغير في فترة السُّطوع المبكِّر للقمر. وفي صباح يوم الأحد أفضتْ لافينيا إلى ليز أن أحدًا من قبل لم يستطع أن يجعلها تشعر بأنها مُهمَلة على نحو كبير كما فعل السيد سيرل. فقالت: «أنا واثقة من أنه كان شيئًا شرِّيرًا للغاية في اليونان القديمة.» كما أضافت بضحكة خفيفة: «لا تُخبري أمك أني قلت ذلك!»

وفي ظلِّ المعارَضة الشديدة التي تلقَّتْها السيدة جاروبي من أختها وابن اختها وابنتِها، كانت السيدة جاروبي ستجد صعوبة في تخليص تريمنجز من وجود الشاب؛ لكن تراجعَها النهائي كان على يد الآنسة إيستون-ديكسون.

كانت الآنسة إيستون-ديكسون تعيش في كوخ صغير على المنحدَر خلف شارع القرية. وكان للكوخ ثلاث نوافذ غير مُتناسِقة في حدِّ ذاتها وفي علاقة بعضها ببعض، وسقف من القش ومدخنة وحيدة، وكان يبدو كما لو أنَّ عطسة واحدة قوية كفيلة بإسقاط الكوخ على رأس من يسكنه؛ لكن حالة التفسخ تلك كان يُقابلها حالة من الترتيب والنظافة الشديدَين. كان الطلاء القشدي للجص، ودهان الباب والنوافذ باللون الأخضر المائل للصفرة، والهشاشة الرائعة للستائر المصنوعة من الشاش، والمسار النظيف الممهد بالطوب الأحمر، مع الالتواء الدقيق لكل شيء يكون مُستقيمًا في العادة، كان كل ذلك يُشكِّل صورة تنتمي بحقٍّ إلى أحد كتب القصص الخيالية التي تكتبها الآنسة إيستون-ديكسون من أجل الكريسماس.

في أثناء فترات كتابتها لعملها السنوي، كانت الآنسة إيستون-ديكسون تنهمك في الأعمال اليدوية. ففي حجرة الدراسة، كانت تطبع وسومًا على الخشب بقُضبان تذكية النار الساخِنة بشدَّة. وحين تُواتيها فكرة الرسم بالقلم الحبر كانت ترسم في دأب ومُثابرة، وقد ارتقَت من ذلك إلى أعمال تزيين الأسطح. وبعد فترة من العمل بشمع الختم، انتقلت إلى استخدام ألياف نخلِ الرافية، ومنه إلى النَّسج اليدوي. كانت لا تزال تنسج بيدها بين الحين والآخر، لكن رغبتها الدفينة لم تكن ذات صلة بالابتكار بل بالتغيير. لم يسلم أيُّ سطح مُستوٍ من يدِ الآنسة إيستون-ديكسون. كانت تأخُذُ برطمان القشدة الباردة وتُحوِّل بساطته الوظيفية إلى شيء مُخيف من خزف الميسين المقلَّد. وفي الأوقات التي شهدت اختفاء كلٍّ من غرفة السطح وغرفة التخزين، كانت تُمثل نكبة على أصدقائها؛ الذين كانوا يحبونها بالمناسبة.

وإضافة إلى كونها ركيزة من ركائز المعهد الريفي للنساء ومُمَوِّن بضائع سخي للأسواق الخيرية، وملمعة دءوبة لأدوات الكنيسة، كانت الآنسة إيستون-ديكسون أيضًا خبيرة بأمور هوليوود وجميع تفرعاتها. ففي كل يوم خميس، كانت تأخُذ حافِلة الساعة الواحدة إلى ويكهام وتقضي فترة ما بعد الظهر في قاعة «فولورز أوف موزيس» المحولة والتي تُؤدِّي عمل قاعة السينما لتشاهد فيلمًا بتذكرةٍ قيمتُها شلن وتسعة بنسات. فإن صادف وكان فيلم الأسبوع من الأفلام التي لم تستحسنها — كأن يكون فيلمًا موسيقيًّا صرفًا أو فيلمًا عن معاناة خادمة منزلية بريئة — كانت تضع قيمة التذكرة إلى جانب ثمانية بنسات وهي أجرة الحافلة في القِطعة الخزفية على شكل خنزير الموضوعة على رف المدفأة، ثم تستخدم المبلغ بعد ذلك للانتقال إلى كروم، عندما يُعرض أحد الأفلام الذي كانت تتطلع إليه بصورة خاصة في تلك المدينة الرئيسية نسبيًّا.

في كل يوم جمعة كانت تأخذ مجلة «سكرين بوليتين» من بائع الصحف في القرية وتتصفح تقييمات أفلام هذا الأسبوع وتضع علامات على تلك التي تودُّ مشاهدتها، ثم تحتفظ بالمجلة في مكان ما للرجوع إليها مستقبلًا. لا يوجد مُمثِّل يُؤدي أدوارًا صغيرة في نصفَي الكرة الأرضية لا تستطيع الآنسة إيستون-ديكسون أن تُمدَّنا بتفاصيل عنه. كان بإمكانها أن تُخبرك لماذا ذهب خبير التجميل في جراند كونتيننتال إلى فيلهيلم، والفارق الدقيق الذي أحدثه على الجانب الأيسر من وجه مادلين رايس.

وهكذا كانت إيما المسكينة — التي كانت تسير على المسار الممهَّد بالطوب لتسلم سلة من البيض وهي في طريقها إلى إيفنسونج — تسير وهي غافلة نحو هزيمتها النهائية.

سألتها الآنسة إيستون-ديكسون عن الحفل الذي أقيم للاحتفال بخروج قصة «عاشق مورين» إلى النور ونضج لافينيا فيتش الأدبي. هل كان حفلًا ناجحًا؟

افترضت إيما ذلك. لطالَما كانت حفلات كرومارتي وروس ناجحة. فقد كان وجود الشراب بكميات كافية هو كل ما يحتاجان إليه من أجل إنجاح أي حفل لهما.

قالت الآنسة إيستون-ديكسون: «سمعت أن لديكم ضيفًا في غاية الوسامة في إجازة نهاية الأسبوع هذه»، ولم يكن قولها هذا يعزو إلى الفضول بقدر ما كان يعزو إلى قناعتها بأن وجود فجوات في المحادثة ضد فكرتها عن الأخلاق الحميدة.

«أجل. أحضرته لافينيا من الحفل. شخص يُدعى سيرل.»

قالت الآنسة إيستون-ديكسون في تشجيعٍ لامبالٍ: «أوه»، وكانت في تلك اللحظة تنقُل البيض إلى وعاء أبيض رخيص كانت قد زيَّنته بالخشخاش والذرة.

«إنه أمريكي. ويقول إنه يعمل مُصوِّرًا فوتوغرافيًّا. يُمكن لأي شخص يلتقِط الصور أن يقول إنه يعمل مُصورًا ولا يُمكن لأحد أن يُنكِر عليه ذلك. إنها مِهنة مُفيدة للغاية. تكاد تكون مُفيدة كما كانت مِهنة «الممرضة» قبل أن تُصبحَ مسألة تسجيل ومراجع.»

قالت الآنسة إيستون-ديكسون: «سيرل؟» وقد توقَّفت وفي يدها بيضة. «هل يدعى «ليزلي» سيرل؟»

قالت إيما في اندهاش: «نعم. اسمه ليزلي. أو هكذا يقول على الأقل. لماذا؟»

«أتعنين أن ليزلي سيرل «هنا»؟ في سالكوت سانت ماري؟ يا له من أمر لا يُصدَّق!»

قالت إيما متَّخذة وضعًا دفاعيًّا: «ما الأمر غير المصدَّق في هذا؟»

«إنه «مشهور».»

فقالت إيما مُذكِّرةً إياها في سخرية لاذعة: «هكذا حال نصف المقيمين في سالكوت سانت ماري.»

«أجل، لكنهم لا يقومون بتصوير أكثر الأشخاص الاستثنائيين في العالم. أتعرفين أن نجوم هوليوود يتوسَّلون بشدة إلى ليزلي سيرل كي يصورهم؟ هذا شيء لا يستطيعون شراءه. إنه امتياز. شرف.»

فقالت إيما: «وأظنُّ أنه نوع من الدعاية. أتظنِّين أننا نتحدَّث عن الشخص نفسه؟»

«بالطبع! من المستحيل أن يكون هناك شخصان يُدعيان ليزلي سيرل ويحملان الجنسية الأمريكية ويمتهنان التصوير الفوتوغرافي.»

قالت إيما، المُقاتلة باستماتة بطبيعتها: «لا أرى شيئًا مُستحيلًا في هذا.»

«بالطبع هذا هو ليزلي سيرل المقصود. يُمكننا حسم هذه المسألة الآن إن لم يكن هذا سيُؤخِّرك على الذهاب إلى إيفنسونج.»

«كيف ذلك؟»

«لديَّ صورة له في مكان ما.»

«صورة لليزلي سيرل!»

«أجل. في أحد إصدارات مجلة «سكرين بوليتين». دعيني أبحث عنه؛ لن يستغرِق ذلك أكثر من لحظة. هذا أمر مُثير حقًّا. لا يُمكنني أن أجد شيئًا أكثر ... أكثر غرابة من وجود ليزلي سيرل في سالكوت من بين كل الأماكن.»

ثم فتحت باب خزانة مطلية بلونٍ أصفر، (ومزينة على النمط البافاري مع لفائف من الزهور الصناعية) وأخرجت مجموعات مرتَّبة من المجلات المخزنة. وقالت: «لننظر هنا. لا بدَّ أن ذلك كان قبل ثمانية عشر شهرًا، أو ربما عامين.» وبيد متمرسة أخذت تُقلب حواف الكومة بطرف إبهامها، بحيث كان التاريخ المدون على كل مجلة منها يظهر للحظة، ثم أخرجت مجلتين أو ثلاثًا من تلك الكومة. وأشارت تقول وهي تضعها على الطاولة: «هناك قائمة «محتويات» على الغلاف الخارجي لكل مجلَّة منها. لذا لن يستغرق العثور على ما أبحث عنه أكثر من لحظة. هذا أمر مفيد كثيرًا.» ثم حين لم تجد الإصدار المراد في الحال قالت: «لكن إن كان هذا سيؤخركِ، فيمكنكِ أن تغادري الآن وتعودي في طريق عودتك إلى المنزل. سأبحث عنه وأنتِ في الكنيسة.»

لكن لا شيء كان سيُخرِج إيما من المنزل حتى ترى تلك الصورة الفوتوغرافية.

ثم قالت الآنسة إيستون-ديكسون في النهاية: «آه، ها هو! كان يُسمَّى «الجميلات وعدسة الكاميرا». لا يُمكِن للمرء أن يحصل على أسلوب ومعلومات جيدَين لقاء ثلاثة بنسات في الأسبوع. لكن لو كنت أتذكر بشكل صحيح، فإن المقال كان جديرًا بالاحترام أكثر من عنوانه. ها هو. هذه عينات من أعماله، تلك صورة بارعة «للغاية» للوتا مارلو، أليس كذلك؟! وهنا أعلى الصفحة، كما ترين، توجد صورة شخصية له. أليس هذا هو ضيفك في إجازة نهاية الأسبوع هذه؟»

كانت الصورة مأخوذة من زاوية غريبة وتعجُّ بظلال غريبة؛ كانت أشبه بعمل فني أكثر منها صورة فوتوغرافية عادية. لكنه كان ليزلي سيرل بلا أدنى شك. كان هذا هو ليزلي سيرل الذي يُقيم في غرفة «البرج» في تريمنجز. غير أنه كان هناك بالطبع توءمان كلاهما يُدعى ليزلي وأبوهما يُدعى سيرل وكلاهما أمريكيان ويعملان في مجال التصوير؛ الأمر الذي كانت تستبعدُه بشدة إيما نفسها حتى.

طالعت المقال سريعًا، والذي كان — كما أشارت الآنسة إيستون-ديكسون — سردًا مباشرًا عن الشاب وأعماله، والذي كان مكتوبًا بنفس الجودة التي تُكتَب بها المقالات في مجلة «ثييتر آرتس مانثلي». كان المقال يُرحب بعودته إلى الساحل الغربي من أجل إقامته السنوية، ويحسدُه على كونه غير مشغول فيما تبقَّى من العام، ويُثني على صوره الجديدة للنجوم، وخاصة صورة داني مينسكي في زيٍّ هاملت. وقالوا في المقال: «إنَّ دموع الضحك التي انتزعها منَّا داني لا شكَّ وأنها أنستنا صورة فوربس روبرتسون في نفس الزي. كان الأمر يتطلَّب أن يُرينا سيرل إياها.»

قالت إيما: «أجل. هذا هو ...». وكادت تقول «ذلك المخلوق» إلا أنها سكتت في الوقت المناسب وقالت: «هذا هو الشخص نفسه.»

وقالت في حذر، إنها لم تكن تعلم كم سيمكُث — إذ كان ضيف لافينيا — لكن من المؤكد أن بإمكان الآنسة إيستون-ديكسون أن تلتقيَ به قبل أن يغادر إن كان هذا ممكنًا.

قالت الآنسة إيستون-ديكسون: «لو لم يكن هذا مُمكنًا، أخبريه من فضلكِ بمدى إعجابي بأعماله.»

لكن بالطبع لم تكن إيما تنوي فعل ذلك. لم تكن ستتذكر هذه الواقعة الصغيرة في المنزل على الإطلاق. ذهبت إيما إلى إيفنسونج وجلست في المقصورة المخصَّصة لتريمنجز وقد بدتْ هادئة وديعة لكنها كانت بائسة تمامًا. لم يكن هذا المخلوق «جذابًا» وحسب، بل كان شخصية شهيرة، وبهذا كان يُمثِّل خطرًا أكبر بكثير. كان يتمتَّع بمكانة مرموقة قد تضاهي في قيمتها، بحسب علمها، مكانة والتر بمقاييس هذا العالم. ولا شك أنه كان يمتلك الكثير من المال أيضًا. كان الأمر سيئًا بما يكفي حين كان كل ما تخاف منه هو «جاذبيته»؛ أما الآن فقد اتَّضح أنه مرغوب وله قدره أيضًا. لقد كان يمتلِك كل شيء في صفه.

لو كان بمقدور إيما أن تستدعي قوى الشر ضده، لفعلت. لكنها كانت في الكنيسة، وفيها ينبغي أن تستخدم الوسائل المتاحة لها. لذا دعت ربها وملائكته أجمعين أن يحرُسوا عزيزتها ليزا من الشرور المتربصة بها في طريقها في الحياة؛ أي أن يجعلوها ترثُ ثروة لافينيا حين يحين وقت ذلك. دعت قائلة: «اجعلها مخلصة لوالتر، وسوف ...» حاولت إيما أن تُفكِّر في رشوة أو نذر يمكن لها أن تقدمه، لكنها لم تستطع أن تُفكِّر في أي شيء في الوقت الراهن؛ لذا لم تفعل شيئًا سوى أن كررت ما قالته: «اجعلها مخلصة لوالتر» من دون أن تضيف أي نذر وتركتِ الأمر لخير الرب وإيثاره.

لم يحدث أن شعرت إيما بالطمأنينة أو أن تعزِّز إيمانها بربها حين رأت ابنتها وسيرل يستندان على البوابة الجانبية الصغيرة في حديقة تريمنجز ويضحكان معًا وكأنهما

طفلان صغيران. أتت إيما من خلفهما عبر المسار الحقلي من الكنيسة، وأحزنها طابع البهاء والنضارة الذي كان يغلف بهجتهما. وهو طابع لم يكن ظاهرًا في أي لقاء بين ليز ووالتر.

كانت ليز تقول: «أكثر ما يروقني هي تلك المساحة الصغيرة التي تعود لعصر النهضة أمام البرج.» كان من الواضح أنهما يُمارسان لعبتهما المفضلة وهي السخرية من حماقة القطب برادفورد الذي بنى المنزل.

سألها سيرل: «في رأيكِ، كيف له أن ينسى خندقًا مائيًّا؟»

«أظنُّ أنه بدأ حياته بحفر الخنادق ولم يُرِد أن يتذكَّرها.»

«ظني أنه لم يُرد أن يُنفِق مالًا على حفر حفرة فقط من أجل أن يضعَ الماء فيها. إنهم هناك من اليانكي، أليس كذلك؟»

افترضت ليز أن لأهل شمال إنجلترا الكثير من الأشياء المشترَكة مع نيو إنجلاند. ثم رأى سيرل إيما فحياها وسارا رفقتها حتى المنزل، وكانا في أثناء ذلك غير مُرتبكَين في حضورها ولم يُوقِفا لعبتهما، بل استدرجاها إليها معهما وشاركا معها بهجتهما.

نظرت إيما إلى مُحيًّا ليز الصغير الشاحب وحاولت أن تتذكَّر متى كانت آخر مرة رأته مليئًا بالحيوية بهذا الشكل؛ زاخرًا بشدة ببهجة الحياة. وبعد مدة قصيرة، تذكرت. كان ذلك بعد ظهيرة يوم الكريسماس منذ فترة طويلة، وكانت ليز حينها وفي غضون فترة قصيرة لم تتجاوز الساعة قد رأت الثلج وشجرة الكريسماس للمرة الأولى.

قبل ذلك، كانت إيما تكره ما يتمتَّع به ليزلي سيرل من وسامة وحسب. أما الآن فقد بدأت تكره ليزلي سيرل نفسه.

الفصل الرابع

كان الأمل يحدو إيما أن يرحل سيرل في هدوء قبل أن تتكشَّف أيُّ أدلة أخرى على جاذبيته أمام الأسرة؛ لكن كان مقدرًا أن يخيب أملها في ذلك أيضًا. فقد أعلن سيرل صراحة أنه أتى إلى إنجلترا في إجازة، ولم يكن لديه أقارب أو أصدقاء مُقرَّبُون يزورهم، وكان معه كاميرا وقد عقَدَ العزم على استخدامها، ولم يبدُ أن هناك سببًا يمنعه من المكوث في تريمنجز واستخدامها. وبمجرَّد أن رأى جمال أورفوردشير النقيَّ إلى حدٍّ كبير، قال إنه ينوي البحث عن فندق جيد في كروم ليجعل منه مركزًا للانطلاق للتصوير الفوتوغرافي للأكواخ والمنازل الريفية الموجودة في الأرجاء. لكن كان هذا أمرًا غير عملي، كما قالت لافينيا بسرعة. فقد كان بإمكانه المكوث في تريمنجز بين أصدقائه وغزو أبعد ما يُمكنه من المناطق والحصول على أفضل النتائج كما كان سيفعل وهو في كروم. فلماذا يتعيَّن عليه أن يعود كل ليلة إلى حجرة في فندق ويُصاحِب معارف عابرين في استراحة الفندق، في حين أن بإمكانه العودة إلى منزل وإلى رغد حُجرته في البرج؟

لا شك أن سيرل كان سيقبل هذه الدعوة في كل الأحوال، لكن الشيء الذي رجَّح الكفة كان الاقتراح أن بإمكانه ووالتر الاشتراك في تأليف كتاب. لم يكن باستطاعة أحد أن يتذكَّر فيما بعد من تقدَّم بهذا الاقتراح أولًا، لكنه كان اقتراحًا يُمكِن لأيِّ أحد أن يتقدَّم به. كان والتر قد تدرَّج من الصحافة إلى المرتبة البارزة للمُعلِّق الإذاعي، ووجود تعاون بين أحد أشهر الشخصيات البريطانية وبين أحد أكثر المصورين الأمريكيِّين استحواذًا على الإعجاب والتقدير من شأنه أن يثمر كتابًا قد يستحوِذ — مع شيء من الحظ — على اهتمامٍ مُتساوٍ من الإنجليز والأمريكيِّين. ويمكنهما أن يحققا ربحًا عظيمًا من خلال الشراكة بينهما.

لذا لم يكن رحيل سيرل واردًا صباح يوم الإثنين، ولا صباح يوم الثلاثاء، ولا في أيِّ يوم مُحدَّد في المستقبل القريب. على ما يبدو أنه لن يرحل عن تريمنجز. ولم يجد أحد

مشكلة في هذا الأمر سوى إيما. وقد عرضت عليه لافينيا أن يستخدم سيارتها الرولز رويس ذات المقعدَين ليتنقَّل بها في أرجاء الريف — إذ لم تكن السيارة مستخدَمة في شيء كما قالت سوى أنها تقبع في المرأب أثناء عملها — لكن سيرل فضَّل أن يستأجر سيارة أصغر وأرخص من بيل مادوكس الذي كان يملك مرأبًا عند مدخل القرية. فقال: «إن كنتُ سأجوب طرقات بعضها ليس ذا حال أفضل من قيعان المجاري المائية، فأنا أريد سيارة لا ينشغِل بالي عليها.» لكن ليز شعرت أن ردَّه هذا كان مجرد طريقة لبقة لرفض ما عرضته لافينيا، وقد راقها منه ذلك.

تحدَّث بيل مادوكس عنه إلى أهل القرية على نحو طيب — إذ قال إنه «غير مُتكبِّر على الإطلاق ولا يُمكن خداعه أيضًا؛ إذ رفع غطاء المحرِّك وفحص السيارة وكأنه وُلد ميكانيكيًّا» — وهكذا بحلول الوقت الذي ظهر فيه في حانة سوان مع والتر ذات مساء كانت سالكوت سانت ماري تعرف عنه كل شيء، وكان أهلها مُستعدِّين لقبوله على الرغم من وسامته التي لاقت نقدًا كبيرًا. كان الغرباء عن سالكوت لا ينحازُون بالطبع ضد الوسامة ولم يتردَّدُوا بأيِّ نحو في قبوله. فتوبي توليس بمجرَّد أن رآه، نسي مباشرة حديثه عن حقوقه الخاصة بالتأليف، وكذلك المسرحية الكوميدية التي انتهى منها لتوِّه وتلك التي بدأ فيها لتوِّه، وخيانة كريستوفر هاتون (وكم كان أبله لأنه وثق بمخلوق يتمتَّع بغرورٍ مرَضي للغاية حتى إنه سمَّى نفسه بهذا الاسم!) وتوجه مباشرة وبسرعة نحو المقعد الذي أجلس والتر فيه سيرل حتى يُحضر الجعة.

وقال بأفضل أساليبه التي يتصنَّع فيها عدم اليقين: «أظن أني رأيتُك في حفل لافينيا في المدينة. اسمي توليس. وأنا أكتب مسرحيات.» إن التواضُع الذي تنطوي عليه الجملة الأخيرة دائمًا ما كان يستهويه. فالأمر أشبه بقول أحد مُلاك خُطوط السكك الحديدية العابرة للقارات: «أنا أملك قطارات.»

فقال ليزلي سيرل: «تشرَّفت بلقائك يا سيد توليس. ما نوع المسرحيات التي تكتبها؟»

ساد الصمت لحظة بينما كان توليس يلتقِط أنفاسه، وكان لا يزال يبحث عن كلمات عندما عاد والتر ومعه الجعة.

وقال: «حسنًا، أرى أنكما قد تعارفتُما.»

فقال توليس بعد أن استقرَّ على إجابته ومال نحو والتر بحماس: «والتر، لقد التقيتُ به!»

سأله والتر الذي كان دائمًا ما يتذكَّر من يقصدهم توليس بحديثه: «التقيت بمن؟»

«الرجل الذي لم يسمع بي قط. لقد التقيت به أخيرًا!»

فسأل والتر: «وكيف كان شعورك؟» وكان يرمق سيرل بنظرة سريعة ويُقرِّر مرة أخرى أن ليزلي سيرل به جوانب أخرى أكثر من الظاهرة للعيان.

«رائع يا عزيزي، رائع. إحساس فريد.»

«اسمه سيرل إن كان يُهمك ذلك. ليزلي سيرل. وهو أحد أصدقاء كوني ويجن.»

رأى والتر شيئًا من الشك يمرُّ بعينَي توبي توليس الرماديتَين بلَون السَّمَك، وتتبَّع هذه الفكرة بوضوح كبير. إن كان هذا الشاب الوسيم صديقًا لكوني ذي الشهرة العالميَّة، فهل كان من الممكن أنه لم يسمع من قبل بتوبي توليس الأكثر شهرة عالميًّا منه؟ أمن المُمكن أن الشاب كان يخدعه؟

وضع والتر كوبَي الجعة من يده، واندسَّ في المقعد بجوار سيرل واستعدَّ ليُمتِّع نفسه.

في الجهة المقابلة من الحجرة كان بإمكان والتر أن يرى سيرج راتوف وهو يُحدِّق بغضبٍ في تلك الصحبة الجديدة. كان راتوف في وقتٍ ما سبب وجود مسرحية جديدة من مسرحيات توبي توليس ونجمها المرتقب، والتي كان من المقرر أن تُسمَّى «بعد الظهيرة» وكانت تدور حول كائن الفون الأسطوري. لكن لسوء الحظ خضعت تلك المسرحية لتغييرات هائلة أثناء عملية ميلادها وخروجها إلى النور وفي النهاية أصبحت شيئًا يُسمَّى «الغسق»، وأصبحت عن نادل ضئيل الجسم في حانة بوا، ولعب الدور فيها وافد جديد له اسم نمساوي وطباع يونانية. لم يتعافَ راتوف من أثر هذه «الخيانة» قطُّ. ففي البداية أخذ يعاقر الشراب بشدة حتى بدأ يشعر بالشفقة على نفسه وهو ثمل؛ ثم أخذ يعاقر الشراب ليتجنب ألم الشفقة على الذات الذي ضجَّت به نفسه وهو غير ثمل؛ ثمَّ لم تعُد تُعرَض عليه أعمال لأنه أصبح شخصًا لا يعتمد عليه في البروفات والأداء التمثيلي؛ ثم وصل إلى أدنى مراحل السقوط التي يصل إليها راقص الباليه وتوقَّف حتى عن التدريب. وأصبحت الدهون الآن تطمِس، بنحو غامض لكنه أكيد، معالم قوامه المشدود النحيل. وحدهما العينان الحانقتان كانتا لا تزالان تتمتَّعان بالحياة والتوهُّج القديمَين. كانتا عيناه لا تزالان تملكان غايةً ومعنى.

وحين توقف توبي عن دعوته إلى منزله في سالكوت، اشترى راتوف الإسطبل القديم المُجاوِر لمتجر القرية؛ الذي كان مجرَّد كوخ صغير مُنحدِر السطح في مقابل الحافة الجملونية للمتجر؛ وحوَّله إلى مسكن له. وتبين له على نحو غير مُتوقَّع أن في هذا خلاصه؛ ذلك أن موقعه المميز بجوار المتجر الوحيد في القرية حوَّله من مجرَّد شخص مرفوض من

توبي إلى مصدر عام للقيل والقال في المجتمع برمته، ومن ثم أصبح شخصية مستقلة ذات حيثية. وقد عامله أهل القرية من دون التحفظ الذي اعتادوا أن يتعاملوا به مع الغرباء الآخرين — متأثِّرين بالطابع الطفولي في ملامحه وشخصيته — مُستخدمين معه درجة التسامح نفسها التي يستخدمونها مع «الأبرياء» من بينهم. ومن ثم أصبح راتوف هو الشخص الوحيد في القرية الذي يتمتَّع بنفس القدر من الحرية بين المجتمعين. لم يكن أحد يعرف علامَ يحيا من طعام، أو إن كان يتناول الطعام من الأساس، وذلك مقارنةً بمُعاقرتِه للشراب. يُمكن أن تجده في أي ساعة من النهار تقريبًا وهو يقِف في اعتدادٍ وتأنُّق تامٍّ أمام منضدة مكتب البريد في المتجر، وفي المساء كان يعاقر الشراب في حانة سوان مثله في ذلك مثل بقية المجتمع.

وفي الأشهُر القليلة المنصرمة حدَث تقارب بينه وبين توبي، بل وسرت شائعات أنه قد بدأ يتدرب من جديد. والآن أصبح يرمق الوافد الجديد إلى سالكوت بغيرة، ذلك الوافد الجديد الفاضل البارز المتألق، الذي استحوذ على اهتمام توبي. وبرغم «الخيانة» والسقوط، كان تُوبي لا يزال صديقه وقدوته. وفكر والتر بقدر من التندر كيف سيشعر سيرج المسكين بالصدمة إن استطاع أن يشهد المعاملة التي يتعرض لها صديقه المفضَّل توبي. فتوبي الآن صار يعرف أن ليزلي سيرل هو شخص يُصوِّر مشاهير العالم؛ ومن ثمَّ فقد تأكَّدت شكوكه أن سيرل يعرف جيدًا من هو توبي توليس. لذا أصبح متحيرًا، إن لم يكن مجروح الكبرياء. إن أحدًا لم يُعامل توبي توليس بوقاحة مدة عقد من الزمان على الأقل. لكن حاجة المُمثِّل الذي بداخله إلى أن يصبح محبوبًا كانت أقوى بكثير من استيائه؛ لذا حشد كل ما يتمتَّع به من جاذبية لكي يفوز على ذلك الغريم المفاجئ.

جلس والتر يُشاهد تأثير الجاذبية العملي، وأخذ يُفكِّر كيف يتعذَّر استئصال صفة «الجلافة» من شخصية المرء. حين كان والتر طفلًا كان أصدقاؤه في المدرسة يستخدمون كلمة «جِلف» ككلمة فضفاضة لوصف أي شخص يرتدي الياقة الخاطئة. لكن بالطبع لم يكن الأمر على هذا النحو على الإطلاق. ما كان يجعل المرء جِلفًا هو نوعية عقليتِه. ومدى الوقاحة. والافتقار إلى الحساسية. إنَّ الجلافة شيء لا شفاء منه إلى حدٍّ كبير؛ فهو انحراف نفسي داخلي. وبعد كل هذه السنوات، لا يزال توبي توليس جِلفًا على نحو واضح لا لبس فيه. كان الأمر في غاية الغرابة. فلم يكن هناك باب في هذا العالم — باستثناء باب بلاط قصر سانت جيمس — ليس مفتوحًا لاستقبال توبي توليس. كان الرجل يسافر وكأنه شخصية ملَكية ويحظى بمزايا الدبلوماسيين تقريبًا؛ كان يرتدي الثياب من أفضل دور

الأزياء العالَمية كما اكتسب قواعد اللياقة الاجتماعية من أفضل الناس في العالم؛ كان الرجل هو الأكثر رُقيًّا في العالم في كل شيء إلا في جَوهرِه. في جوهره ظلَّ توبي جِلفًا. لقد قالت مارتا هالارد ذات مرة: «كلُّ ما يقوم به توبي هو نشاز بعض الشيء»، وكان هذا وصفًا دقيقًا للأمر.

سُرَّ والتر — الذي كان ينظر من طرف خفي ليرى كيف يتعامل سيرل مع هذا التودُّد الغريب — حين لاحظ شيئًا من شرود الذهن على وجه سيرل بينما كان الأخير يتناول جعته. وكان مستوى شروده ملائمًا إلى حد مستحسن كما لاحظ والتر؛ إذ كان المزيد منها سيجعله عُرضة لاتهامه بالوقاحة؛ ومن ثم يوقعه في الحرج، والدرجة الأقل منها ما كانت لتُصبح واضحة بما يكفي لردع توليس. وعلى هذا الحال، كان توبي يبذل محاولات جاهدة بأكثر مما ينبغي ويجعل من نفسه أضحوكة بفعل حيرته. لقد حاول فعل كل شيء عدا حيلة التلاعب بالأطباق. كان توبي توليس لا يُطيق ألا ينبهر به أحد. أخذ توبي يتعرق. وابتسم والتر بينما ينظر إلى كوب جعته، وظل ليزلي سيرل دمثًا مُهذبًا وشارد الذهن بعض الشيء.

واستمر سيرج راتوف في النظر بغيرة من الجانب الآخر من الحجرة.

وتوقَّع والتر أنه إذا شرب سيرج كوبين إضافيين فسيُقدم على ارتكاب فضيحة، وتساءل في ذهنه إن كان ينبغي عليهم إنهاء جعتهم والرحيل، قبل أن ينضمَّ إليهم سيرج بسيل من لغة إنجليزية غير مفهومة واتهامات مُبهَمة. لكن الشخص الذي انضمَّ إليهم لم يكن سيرج بل كان سيلاس ويكلي.

كان ويكلي يرقبهم من عند المشرب لبعض الوقت، والآن أحضر جعته إلى طاولتهم وحياهم. وكما كان يعلم والتر، أتى ويكلي لسببَين: أنه يتَّسِم بفُضول النساء، ولأنَّ كل شيء جميل كان يجذبه كي يبدي تجاهه الشعور بالنفور. كان ويكلي يمتعض من الجمال، ولم يكن ليُحسب ضده أنه يجني دخلًا كبيرًا جدًّا من هذا الامتعاض. كان امتعاضه صادقًا إلى حدٍّ بعيد. وكما قالت ليز من قبل، كان العالم الذي يلقى استحسانه هو العالم الذي «يعجُّ بالروث الذي ينبعث منه البخار والأمطار المُنهمِرة». وحتى المحاولات البارعة للمُحاكاة الساخرة من أسلوبه الفرديِّ المُميَّز لم تفلح في إفساد شعبيته. فقد كانت جولات محاضراته في أمريكا تُحقِّق نجاحات صاخبة، وليس السبب الأكبر في ذلك أن قُرَّاءه المخلصين من بيوريا وبادوكا يُحبُّون الروث الذي ينبعث منه البخار، بل لأن سيلاس ويكلي تقمص الدور بامتياز شديد. كان سيلاس ويكلي شديد الشحوب داكن البشرة طويل القامة، وكان صوته

متراخيًا هامسًا يئوسًا، وكل نساء بيوريا وبادوكا الطيبات كن يَتُقنَ لاصطحابه إلى المنزل وإطعامه وإبراز آفاقٍ أكثر إشراقًا على الحياة أمامه. وفي هذا كان أولئك النِّسوة أكثر سخاءً بكثير من زملائه الإنجليز؛ الذين يعتبرونه مملًّا تمامًا وأحمق بعض الشيء. وتُشير إليه لافينيا دائمًا بعبارة «ذلك الرجل المُضجر الذي يقول دائمًا إنه كان يرتاد مدرسة حكومية يُنفِق عليها دافعو الضرائب»، كما تعتقد أن به مسًّا من جنون. (أما من جانبه، فكان ويكلي يشير إلى لافينيا بلقب «المرأة فيتش» وكأنه يتحدث عن مجرمة.)

أقبل ويكلي نحوهم لأنه لم يستطع أن يتحاشى وسامة ليزلي سيرل البغيضة، ووجد والتر نفسه يتساءل إن كان سيرل يعلم بذلك. فقد أصبح سيرل — والذي كان لا يكترث في شيء من الدماثة بتوبي المتلهِّف — أصبح الآن منهمكًا في محاولة ترويض سيلاس ذي الطابع العدائي. وكان والتر الذي يُشاهد براعة سيلاس التي تكاد تكون أنثوية، كان على استعداد أن يُراهن أن سيرل سيُروِّض سيلاس ويكبله في غضون خمس عشرة دقيقة. فرمق الساعة الكبيرة المُملة المعلَّقة خلف المشرب وقرَّر أن يحتسب له الوقت.

وقد فعلها سيرل في أقل من المدة المتوقعة بخمس دقائق. ففي غضون عشر دقائق كان سيرل قد جعل من ويكلي، المُتعض الحانق، أسيرًا في شباكه. وكان الارتباك في عينَي ويكلي الغائرتين أكبر بكثير من الارتباك في عينَي توبي الرماديتين بلون قشور السمك. وكاد والتر ينفجِر ضاحكًا بصوتٍ مُرتفِع.

ثم أضاف سيرل لمسَتَه الكوميدية الأخيرة إلى هذا المشهد. ففي لحظة محاولة كل من توبي وسيلاس الإتيان بأفضل ما يُمكنهما في تنافسهما من أجل التسلية، قال سيرل بطريقة حديثِهِ البطيئة الممطوطة: «أستميحكم عذرًا، لكنني رأيت صديقًا لي»، ونهض على مهلٍ وسار مبتعدًا لينضم إلى صديقه عند المشرب. كان صديقه هو بيل مادوكس، صاحب المرأب.

دفن والتر وجهه في كوب جِعَته وهو يضحك على التعبيرات المرتسمة على وجهَي صديقَيه.

ولم يُساور والتر إحساس بسيط بالانزعاج إلا لاحقًا، حين أخذ يتذكَّر الموقف في ذهنه للتلذذ به. كان الموقف المرح لطيفًا، وقد أدَّاه سيرل في خفة، حتى إن صفته الجوهرية، وهي القسوة، كانت غير واضحة.

في الوقت الراهن كان والتر سعيدًا وحسب بردود الفعل النمطية لضحيتي سيرل. فقد تجرع سيلاس ويكلي ما تبقى من جعته، ودفع بالكوب بعيدًا عنه في إيماءة تنم عن

اشمئزازه من نفسه، وخرج من الحانة من دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان كرجل يهرُب من ذكرى عناق مُقزز في حجرة خلفية؛ رجل سأم خضوعه واستسلامه. وتساءل والتر في ذهنه للحظة إن كانت لافينيا على حق، وإن كان ويكلي به مس من جنون في نهاية المطاف.

على الجانب الآخر، لم يعرف توبي توليس الانسحاب ولا الاشمئزاز من النفس قط. كان تُوبي ينشر قواته وحسب من أجل إطلاق مزيد من الحملات.

إذ قال: «خجول بعض الشيء، صديقُك الشاب هذا» وكانت عينه على سيرل وهو يتحدَّث إلى بيل مادوكس عند المشرب.

كانت كلمة خجول هي آخر كلمة قد يستخدمها والتر عن ليزلي سيرل، لكنه عرف أن توبي لا بدَّ له وأن يُقدِّم مُبررًا لهزيمته المؤقتة.

«يجب أن تُحضرَه ليرى هوو هاوس.»

كان هوو هاوس مبنًى حجريًّا جميلًا يقف على نحو غير مُتوقَّع وسط صف جملونات سالكوت التي تتَّخذ ألوان الوردي والأصفر والكريمي. كان المنزل فيما سبق نُزُلًا؛ وقبل ذلك، كان يقال إن أحجاره كانت جزءًا من دير يقع بعيدًا عبر الوادي. والآن أصبح المنزل تُحفة ذات طبيعة نادرة للغاية حتى إن توبي — الذي يُغيِّر مكان إقامته (بالكاد يُمكن أن نقول بيته) بين كل عام وآخر — ظلَّ يرفض طيلة سنوات كل العروض التي قُدِّمت لشرائه.

«هل سيمكُث معك طويلًا؟»

قال والتر إنه ينوي أن يُؤلِّف هو وسيرل كتابًا. ولم يحسما طبيعته بعد.

«هل سيصبح بعنوان التجوال بحرية في أرجاء أورفوردشير؟»

«شيء من هذا القبيل. سأتولى أمر كتابة النص، وسيتولى سيرل أمر الصور الإيضاحية. ولم نفكر بعد في موضوع محوري جيد للكتاب.»

«إن هذا الوقت من العام مبكِّر بعض الشيء للتجوُّل بحرية في الأرجاء.»

«لكنه مُناسِب للتصوير. قبل أن تتكتَّل الخضرة في المقاطعة.»

فقال توبي وهو يمسك بالكوبين ويتحرك نحو المشرب في عفوية تثير الإعجاب: «ربما أراد صديقُك الشاب أن يلتقِط صورًا في هوو هاوس.»

مكث والتر حيث كان، وتساءل عن عدد أكواب الجعة التي تناولها سيرج راتوف منذ أن لاحظه آخر مرة. لقد ظن آنذاك، أنه ينقصه تناول كوبين آخرين كي يبدأ شجارًا. لا بدَّ أنه قد وصل الآن إلى حد الانفجار.

وضع توبي الكوبين على طاولة المشرب ودخل أولًا في مُحادَثة مع صاحب الحانة، ثم مع بيل مادوكس، وبطريقة طبيعية إلى حدٍّ بعيد دخل في محادثة مع سيرل مرة أخرى. وقد أجرى الأمر ببراعة.

إذ سرعان ما سمعه والتر يقول: «لا بدَّ أن تأتي لتُشاهد هوو هاوس. إنه بديع الجمال. بل إنك قد ترغب في التقاط صور له.»

فسأله سيرل مُندهِشًا: «ألم تلتقِط له صورًا حتى الآن؟» كان اندهاشُه بريئًا إلى حدٍّ كبير؛ ذهول من أن شيئًا بهذا الجمال لم يُوثَّق. لكن ما وصل إلى سامعيه كان: «أمن المُمكن أن أحد أوجه حياة توبي توليس ظل مُستترًا عن الملأ؟»

وكانت تلك هي الشرارة التي أشعلت جذوة سيرج.

إذ صرخ واندفع من زاويته كالألعاب النارية ووضع وجهه الصغير الغاضب على بعد مسافة قليلة للغاية من وجه سيرل وقال: «أجل! لقد التقطتُ له صورًا! التقطت له صورًا آلاف المرات على يدِ أعظم المصورين الفوتوغرافيين في العالم وليس المنزل في حاجة إلى أن يحطَّ من قدره هاوٍ غبيٌّ من بلاد سُرِقت من الهنود حتى ولو كان وسيمًا ذا شعر مصبوغ بلا أخلاق و…»

فقال توبي: «سيرج! اخرس!»

لكن ثرثرة سيرج الجامحة أخذت تنصبُّ من وجهه المنكوب من دون أن يتوقَّف.

قال توبي: «سيرج! أتسمعُني! توقف!» ودفع راتوف برفق على كتفه حتى يدفعه بعيدًا عن سيرل.

كانت تلك هي اللمسة الأخيرة؛ ومن ثم ارتفع صوت سيرج عاليًا بسيل مُتواصِل من الإهانات، مُعظمُه مصوغ لحسن الحظ بإنجليزية غير مفهومة لكن تناثَرت فيه بكثرة عبارات بالفرنسية والإسبانية ورُصِّع بألقاب وأوصاف مُبتكَرة تدعو إلى الضحك. وكانت «أنت لوسيفر الغرب الأوسط!» من بين أفضلها.

وفيما أخذتْهُ يد توبي من خلفية ياقته ليجرَّه بالقوة بعيدًا عن سيرل، اندفعت ذراع سيرج إلى حيث موضع كوب جِعَة توبي المملوء لتوِّه على الطاولة. وصل سيرج إلى الكوب قبل أن يتمكن ريف، صاحب الحانة، من أن يصل إليه بجزء من الثانية، فأمسك به، وقذف محتوياته كلها في وجه سيرل. وبفعل الغريزة، تحرك وجه سيرل جانبًا فتناثرَت الجعة على رقبته وكتفه. فرفع سيرج الكوب الثقيل فوق رأسه كي يقذفه، وهو يصرخ من شدة الغضب، إلا أن يدَ ريف الكبيرة أطبقت على معصمه وخلص الكوب من قبضته المتشنِّجة، ونادى ريف قائلًا: «آرثر!»

لم يكن هناك حارس في حانة سوان، إذ لم يكن هناك من قبلُ قطُّ حاجة إلى حارس. لكن حين تكون هناك حاجة إلى حثِّ أحدهم على أمر ما، كان آرثر تيبيتس يتولى ذلك. يعمل آرثر راعيًا للماشية في مزرعة سيلفرليس، وهو مخلوق ضخم الجثَّة بطيء الحركة رقيق القلب بحيث يمكن أن يترك طريقًا يمشي فيه تجنبًا لأن تطأ قدمه على دودة.

قال آرثر: «هيا بنا، يا سيد راتوف» وكان يطوق بجسده الساكسوني الضخم الجسد الصغير للرجل الأجنبي الذي يُنازع ليخلص نفسه من قبضته. ثم أكمل: «لا داعي لأن تنزعِج من مثل هذه الأمور الصغيرة. أهذا شرابُ جِن هذا الذي هناك، يا سيد راتوف. لقد أخبرتك من قبل. ليس هذا بشراب يشربه المرء، يا سيد راتوف. تعالَ معي الآن ولنرَ إن كنت ستتحسَّن بفعل الهواء النقي. لنرَ إن كنت ستتحسَّن.»

لم يكن سيرج ينوي الذهاب إلى أيِّ مكان مع أيِّ أحد. كان يُريد أن يمكُث ويقتل هذا الوافد الجديد على سالكوت. لكن ليس هناك أي حُجة ناجحة في مواجهة آرثر. فقد كان آرثر يضع ذراعه حول المرء وحسب بطريقة ودية ثم يضغط عليه. كانت ذراعه تُشبه فرع شجرة خوخ، والضغط يشبه سقوط كتلة صخرية ضخمة من فوق جبل. ذهب سيرج معه تحت وطأة الضغط نحو الباب، ثم خرجا معًا. لم يوقف سيرج ولو للحظة واحدة سيل سبابه واتهاماته، ولم يكن يُكرِّر شيئًا مما يقول بحسب ما أدرك الجميع.

وفيما أخذ صوت الثرثرة العالي يتلاشى في الهواء بالخارج، عاد المُشاهِدون إلى الهدوء والحديث مرة أخرى.

قال توبي توليس: «أيها السادة، أعتذر إليكم نيابة عن المسرح.»

لكنه لم يقلْها بخفة الدم المطلوبة. فبدلًا من أن يكون مُمثلًا مرحًا يُحاول أن يلطف من وطأة لحظة حرجة، كان توبي توليس يُذكرهم بأنه يتحدَّث عن المسرح الإنجليزي. وكما قالت مارتا من قبل: كل ما يقوم به توبي هو نشاز بعض الشيء. ولم يُضف حديثه إلى شعور الحرج الذي تشعر به القرية، سوى همهمات تندُّر.

مسَح صاحب الحانة كتف سيرل بمنشفة أكواب ورجاه أن يدخل إلى الخلف، على أن تنظِّف زوجته البذلة التي يرتديها بالماء النظيف، وتُزيل عنها رائحة الجعة قبل أن تجفَّ عليها. لكن سيرل رفض ذلك. كان لطيفًا للغاية في رفضِه لكنه بدا وكأنه يُريد الخروج من المكان. ورأى والتر أن سيرل يبدو متعبًا بعض الشيء.

تمنَّى سيرل ووالتر أمسية سعيدة لتوبي، الذي لا يزال يشرح حالة سيرج المزاجية بمُصطلَحاتٍ مسرحية، ثم خرجا إلى جو المساء اللطيف.

سأل سيرل: «هل يعبر عن تذمره بهذا العنف كثيرًا؟»

«راتوف؟ لقد تسبب في فضائح عدة مرات من قبل، أجل، لكنه لم يُثِر ضجَّة بمثل هذا العنف من قبل قطُّ. لم أشهدْه وهو يُحاول الاعتداء جسديًّا على أحد من قبل.»

قابلا آرثر، عائدًا ليُكمل تناول جِعته، فسأل والتر عما حلَّ بالرجل المُضطرِب.

قال آرثر بابتسامته العريضة: «هرع إلى المنزل. انطلق وكأنه سهمٌ ينطلِق من قوسه. يُمكنه أن يسبق أرنبًا بريًّا.» ثم عاد ليتناول شرابه.

قال والتر: «ما زال الوقت مُبكرًا على تناول العشاء. لنذهب إلى المنزل سيرًا بجوار النهر وعبر طريق الحقول. أنا آسِف حيال ما حدث من شجار، لكنني أتوقع أنك معتاد في عملك على الحالات المزاجية السيئة.»

«في الواقع، لقد تعرَّضت للشتائم من قبل، بالطبع، لكن لم أُقذف بشيء حتى الآن.»

«أكاد أقسم أن أحدًا من قبل لم يجرؤ على أن يُطلق عليك لوسيفر الغرب الأوسط. مسكين سيرج.» ثم توقَّف والتر ليتكئ على الجسر بجوار منزل ميل هاوس، ولينظر نحو انعكاس الشفق على مياه نهر راشمير. ثم أردف يقول: «ربما كان المثل القديم صحيحًا ولا يُمكن للمرء أن يحب ويكون حكيمًا. فحين يكون المرء مخلصًا لأيٍّ أحد مثلما يخلص سيرج لتوبي توليس، فإنني أتوقع أن يجانب المرء الصواب حيال ذلك.»

قال سيرل بنبرة حادة: «الصواب».

«أجل؛ تفقد الأمور أبعادها الحقيقية. الأمر الذي أراه فقدانًا للصواب.»

ظل سيرل صامتًا لوقت طويل؛ إذ أخذ يُحدِّق بالمياه الجارية وهي تتدفَّق ببطء شديد نحو الجسر ثم تندفِع من تحته بحركة مُفاجئة تقوم بها المياه حين تتدفَّق حول عقبات تُعرقِل مجراها.

وكرَّر قائلًا: «الصواب»، وراح يرقب المكان الذي تفقد فيه المياه السيطرة وتنسحب تحت القناة.

قال والتر: «أنا لا أقول إن الرجل مجنون. إنما فقد قدرته فقط على الحكم بمنطق سليم.»

«وهل المنطق السليم صفة مرغوبة كثيرًا؟»

«إنها صفة مندوبة.»

قال سيرل: «لم يأتِ شيء عظيم قطُّ من المنطق السليم.»

«بل على النقيض. الافتقار إلى المنطق السليم مسئول عن كل الشرور في العالم إن تحدثنا عمليًّا. كل شيء من الحروب وحتى عدم إفساح مجال في الحافلة. أرى ضوءًا في منزل ميل هاوس. لا بد أن مارتا قد عادت.»

ورفعا ناظريهما نحو هيكل المنزل الضخم الذي يلمع في الشفق قبيل حلول الظلام وكأنه زهرة شاحبة تلمع. وقد أضاء شعاع ضوء واحد — والذي لا يزال بلون أصفر ساطع فيما تبقَّى من نور النهار — جانب المنزل الذي يطلُّ على النهر.

قال سيرل: «إنه شعاع ضوء كالذي تحبُّه ليز.»

«ليز؟»

«تحب الأشعة ذهبية كتلك التي في ضوء النهار. قبل أن تحولها الظُّلمة إلى اللون الأبيض.»

وللمرة الأولى يجد والتر ما يجبره على التفكير في أن سيرل على علاقة بليز. لم يخطر بباله حتى الآن أن يفكر في أن كلًّا منهما على علاقة بالآخر مطلقًا؛ إذ لم يكن ينزع إلى التملك ولو بالقدر القليل حيال ليز. بالنسبة إليه يمكن أن يرجع عدم التملك هذا إلى قيمه إن لم يكن نابعًا مباشرة من حقيقة أنه ينظر إليها كأمر مفروغ منه. ولو كان بالإمكان أن نسحب آخر ما تبقَّى من العقل اللاواعي لدى والتر إلى السطح ولو حتى بشكل من أشكال التنويم المغناطيسي، لوجدنا أنه يعتبر أن ليز تُبلي بلاءً حسنًا من تلقاء نفسها. حتى طيف هذه الفكرة كان سيصدم عقلَ والتر الواعي، بالطبع؛ لكن وبما أنه كان لا يميل تمامًا إلى التحليل الذاتي ولم يكن مغترًّا بنفسه إلى حد كبير (وهي صفة مكَّنتْه من أن يرتكب أمر البث الإذاعي الذي أثار اشمئزاز مارتا كثيرًا وأكسبه إعجاب الجمهور البريطاني)، فقد كان أبعد ما ذهب إليه عقله الواعي هو أن يرى أن من دواعي الإشباع والجدارة أن تحبه ليز.

كان والتر يعرف ليز من فترة طويلة حتى إنها لم تكن تمثل له أي مفاجأة. كان يسلم تمامًا بأنه يعرف كل شيء عنها. لكنه لم يكن يعرف شيئًا واحدًا بسيطًا عنها مثل حبها لأنوار المصابيح في ضوء النهار.

وقد علِم سيرل، الوافد الجديد، بذلك.

والأدهى، أنه تذكَّر ما أحبَّته ليز.

تعكر صفو والتر شيئًا طفيفًا.

ثم سأل: «هل التقيتَ بمارتا هالارد؟»

«كلا.»

«ينبغي أن نعوِّض ذلك.»

«لقد رأيتها وهي تمثل، بالطبع.»

«أوه. فيمَ كانت تُمثل؟»

«مسرحية تُدعى «مسير في الظلام».»

فقال والتر: «أوه، أجل. كانت تؤدي بشكل جيد في تلك المسرحية. إنه أحد أفضل أدوارها، في رأيي» ثم ترك أمر الحديث عن هذا الموضوع. لم يكن يُريد أن يتحدَّث عن مسرحية «مسير في الظلام». ربما تكون هذه المسرحية ذكرى من ذكريات هالارد، لكنها أيضًا من الذكريات ذات الصلة بمارجريت ميريام.

قال سيرل، وهو يرفع نظره نحو الضوء: «أعتقد أنه ليس بإمكاننا أن نزورها الآن؟»

«لقد شارفنا كثيرًا على وقت العشاء، حسبما أظن. ومارتا ليست من النوع الذي يُمكن لك أن تزوره بسهولة. وأشك، أن هذا هو سبب اختيارها لموقع ميل هاوس المُنعزِل منزلًا لها.»

«ربما بإمكان ليز أن تصحبني إليها وتُقدِّمَني لها غدًا.»

كاد والتر يقول: «ولماذا ليز؟» حين تذكَّر أن الغد هو يوم الجمعة، وأنه سيظلُّ بعيدًا في البلدة طوال اليوم. فيوم الجُمعة هو يوم البث الإذاعي. وتذكر سيرل أن والتر لن يكون هنا غدًا على الرغم من أنه هو نفسه نسي ذلك. ومن ثمَّ تعكَّر صفو والتر مرة أخرى.

«أجل. أو ربما بإمكاننا دعوتها على العشاء. إنها تحب الطعام الطيب اللذيذ. أعتقد أن من الأفضل أن نكمل طريقنا.»

لكن سيرل لم يتحرَّك. كان ينظر إلى الطريق المحاط بأشجار الصفصاف التي تحد صفحة الماء اللامعة كالقصدير والآخذة عتمتها في الزيادة.

ثم قال: «لقد وجدته!»

«وجدتَ ماذا؟»

«الموضوع الرئيسي. الرابط الموصل. الفكرة المُميِّزة.»

«أتقصد، من أجل الكتاب؟»

«أجل. إنه النهر. نهر راشمير. لماذا لم نُفكِّر في هذا من قبل؟»

«النهر! أجل! لماذا لم نفعل؟ أعتقد أن ذلك بسبب أنه ليس نهرًا من أنهار أورفوردشير وحدها. لكنه يمثل الحل المثالي بالطبع. وقد حدَث هذا مع نهر التيمز ونهر سيفرن. ولا أجد سببًا يجعل الأمر يفشل مع نهر راشمير الأصغر منهما.»

«هل سيقدم لنا التنوع الذي نحتاجه من أجل الكتاب؟»

قال والتر: «بلا شك. لا يُمكن أن يكون هناك أفضل من ذلك. يرتفع مستوى النهر في ذلك الريف الجبلي؛ حيث تكثر الخراف والجدران الحجرية والحدود الوعرة؛ ثم نجد بعد ذلك الجزء الرعوي القروي ببيوته الريفية الجميلة وحظائره الرائعة، والأشجار الإنجليزية في أفضل أشكالها وصورها، والكنائس القروية التي تُشبه الكاتدرائيات؛ ثم نجد بعد ذلك ويكهام، أصل المدن الإنجليزية ذات الأسواق؛ حيث المدينة التي انطلق منها الفلاح المُستأجِر ليتحدَّث إلى الملك ريتشارد في لندن هو الرجل نفسه الذي يقود العجول اليوم إلى متن القطار في طريقها إلى الأرجنتين.» ثم انسلَّت يد والتر إلى جيب صدره حيث يحتفظ بمُفكرته، لكنه أنزلها مرةً أخرى. وأردف يقول: «ثم نجد المُستنقعات. حيث تقف أسراب الإوز في مواجهة أفق المساء. وتشكيلات السحب البديعة والأعشاب المُتمايلة. بعدها نجد الميناء: ميناء مير. والذي يكاد يكون هولندي الطابع. إنه يختلف تمامًا عن المقاطعة التي في خلفيته. مدينة تعج بالبنايات الفريدة الجميلة، وميناء يعجُّ بأنشطة الصيد والتجارة الساحلية. والنوارس والانعكاسات على المياه والجملونات. إنه مثالي، يا سيرل!»

«متى نبدأ؟»

«حسنًا، في البداية، كيف سنُؤدِّي المهمَّة؟»

«هل يُمكن أن نبحر عبر النهر بقارب؟»

«قارب بنط فقط. أو قارب سكيف حيث يتسع النهر أسفل الجسر.»

فقال سيرل بشك: «قارب بنط. إنه أحد تلك القوارب المسطحة التي تستخدم لصيد البط.»

«تقريبًا.»

«لا يبدو هذا عمليًّا. من الأفضل أن نستخدم زوارق الكانو.»

«زوارق الكانو!»

«أجل. أيمكنك أن تقود واحدًا؟»

«لقد جدفت بأحدها في أرجاء بركة حديقة للزينة حين كنت طفلًا. هذا كلُّ ما فعلت.»

«أوه، حسنًا، على الأقل لديك فكرة عنه. وسرعان ما ستتذكر طريقة الإبحار به. من أي نقطة في أعلى النهر يمكننا أن نبدأ، بزوارق الكانو؟ إنها فكرة رائعة، يا رجل. إنها حتى تقدم لنا عنوانًا للكتاب. «زوارق كانو في نهر راشمير». عنوان رنان. كأنه يُشبه: «طبول عبر وادي موهوك». أو «زيت لمصابيح الصين».»

«سيتعيَّن علينا أن نجتاز الجزء الأول منه سيرًا على الأقدام. الجزء حيث الريف والخراف. وعلى طول مساره حتى أوتلي تقريبًا. أتوقع أن مجرى النهر سيستوعب زورق

كانو عند أوتلي. رغم أنني لا أتوقَّع كثيرًا أن أشعر بالارتياح في زورق كانو، وليُساعدني الرب في ذلك. يمكننا أن نحمل حقيبة صغيرة من منبع النهر — إنه نبع في وسط أحد الحقول، حسبما فهمت على الدوام — حتى أوتلي أو كابل، ومن هناك نستقلُّ زورقَي كانو حتى البحر. «زوارق كانو في نهر راشمير». أجل، يبدو العنوان مناسبًا. حين أذهب إلى المدينة يوم غد سأذهب لمقابلة كورماك روس وأعرض عليه الفِكرة وأعرف ما العرض الذي سيتحمَّس لتقديمه إليَّ. وإن لم ترُقه الفكرة، لديَّ نصف دزينة أخرى من الناشرين سيتهافتون عليها. لكن روس واقع تحت سيطرة لافينيا؛ لذا يُمكننا أن نستفيدَ منه إن كان سيُشارك.»

قال سيرل: «بالطبع سيفعل. أنت فعليًّا مثل أفراد العائلة المالكة في هذا البلد، أليس كذلك!»

إن كان هناك أي أحاسيس في هذا التهكُّم فإنها ليست واضحة.

قال والتر: «ينبغي عليَّ حقًّا أن أعرض الأمر على دار نشر ديبهام. فهم من نشروا كتابي عن حياة المزرعة. لكنني تشاجرت معهم بشأن الصور التوضيحية. كانت تلك الصور مريعة، ولم يلقَ الكتاب رواجًا.»

«أظن أن هذا كان قبل أن تعمل في مجال البث الإذاعي.»

«أوه، أجل.» ثم ابتعد والتر عن الجسر وبدأ السير نحو الطريق بين الحقول كي يعود ليتناول وجبة العشاء. «لقد رفضوا قصائدي، بعد إصدار الكتاب عن حياة المزرعة؛ لذا يُمكنني أن أستخدم هذه الذريعة للابتعاد.»

«أتكتب القصائد أيضًا؟»

«ومن لا يفعل؟»

«أنا على سبيل المثال.»

فقال والتر على نحوٍ ودِّي مرِح: «أحمق!»

ثم عادا لمناقَشة طرائق وأساليب رحلتهما عبر نهر راشمير.

الفصل الخامس

قال والتر على الإفطار في صباح اليوم التالي: «لتأتِ معي إلى المدينة لنُقابل روس.»

لكن سيرل أراد أن يظلَّ في الريف. فقال إنه لأمر سيئ أن يقضيَ ولو يومًا واحدًا حتى في لندن بينما يدخل الريف أول أطوار التحوُّل إلى اللون الأخضر. بالإضافة إلى أنه لم يكن يعرف روس. لذا من الأفضل أن يقدم والتر الفكرة إلى روس أولًا، ثم يقدمه له لاحقًا.

وعلى الرغم من أن والتر كان محبطًا، فإنه لم يتوقف ليحلل نوعية الإحباط الذي يشعر به بالتحديد.

لكن بينما يقود والتر السيارة في طريقه إلى المدينة كان ذهنه مشغولًا بصورة أقل بكثير عن المعتاد بأمر البث الإذاعي؛ ذلك أنه شرد عائدًا إلى تريمنجز على نحو غير مُعتاد كثيرًا.

ذهب والتر للقاء روس وعرض عليه خطط كتاب «زوارق كانو في نهر راشمير». وأعرب روس عن سروره وقرَّر تقديم نسبة زائدة قدرها اثنين ونصف بالمائة كاتِّفاق مشروط. لكنه أشار بالطبع أنه لا يُمكن التوصُّل إلى اتِّفاق نهائي بشأن أي شيء حتى يستشير كرومارتي.

كان الافتراض الشائع أن روس أدخل كرومارتي شريكًا له من أجل المرح الذي يُضفيه الأمر؛ من حيث تناغم اسمَيهما. كان كورماك روس يُبلي بلاءً حسنًا بمفرده، وذلك بقدر ما يعرف الجميع، وبدا من ظاهر الأمر أنه لا حاجة إلى اتخاذ شريك له؛ خاصة إذا كان شريكًا غير مُتميِّز ككرومارتي. لكن كورماك روس كان يتمتع بما يكفي من صفات أهل ويست هايلاندز ليجد صعوبة في أن يرفض. كان يروقه أنه يروق الجميع. لذا فقد أشرك معه كرومارتي كساتر دخاني. فعندما يتطلب الأمر استقبال كاتب ما بترحاب، يستقبله كورماك روس بترحاب. أما حين يجب أن يرفض عرض أحد المؤلفين مع الأسف، فإن

ذلك يكون بسبب عناد كرومارتي. وذات مرة قال كرومارتي لروس في نوبة من الانفعال: «أطلعني على الأقل على الكتاب الذي أرفضه!» لكن تلك كانت حالة من حالات المبالغة. ففي طبيعة الأمر كان كرومارتي يقرأ الكتب التي سيُصبح مسئولًا عن رفضها.

والآن، عندما وجد روس نفسه أمام عرض لكتاب سيؤلفه النجم المحبوب من الجمهور البريطاني في الوقت الحالي، استخدم العبارة التلقائية عن استشارة شريكه؛ لكن وجهه الوردي المستدير كان مشرقًا بالرضا والارتياح، فأخذ والتر لتناول الغداء واشترى له زجاجة مشروب روماني كونتي؛ أتى عليها والتر الذي يحب الجعة.

ومن ثم ذهب والتر إلى الأستوديو، وقد امتلأت معدته بشراب فاخر وامتلأت نفسه بأمل كبير في وجود شيكات في الطريق إليه، فبدأ ذهنه مرة أخرى يمارس عليه الألاعيب وشرد سارحًا في سالكوت بدلًا من أن يركز مسرورًا في الأستوديو كما هي عادته.

كان والتر دائمًا ما يدعو ضيفًا ليتحاور معه خلال نصف الحلقة التي يُقدمها أسبوعيًّا على الهواء. وكان الضيف شخصًا ترتبط مهنته أو هوايته بالطبيعة والتواجد في «الهواء الطلق»؛ تلك السلعة التي بذْل والتر عليها جهدًا كبيرًا مؤخَّرًا من أجل أن يجعلها حكرًا عليه بشكل فعلي. وقد نظم والتر تلك الفقرة عبر استضافة صياد أو مُربٍّ للخراف من الأجزاء الخلفية في أستراليا، أو مُراقب طيور أو حارس من سازرلاند، أو أنثى جادة أخذت تجوب الأرجاء لتبعد جوز البلوط إلى جانبَي الطريق، أو هاوٍ يصطاد بالصقور، أو أي شخص آخر يصادف أن يكون في طريقه ولديه استعداد. أما بالنِّسبة إلى النصف الآخر من الحلقة فكان والتر يتحدث ليس إلا.

واليوم كان ضيفه طفلًا يربي ثعلبًا أليفًا، وشعر والتر بالضيق حين وجد أن ذلك الطفل المزعج لم يرُقه. كان والتر يحبُّ ضيوفه. ويشعر نحوهم بالدفء والحماية والأخوة؛ ولم يكن يحب الجنس البشري بهذا الشكل الكبير أو بهذا العمق كمثل ما يفعل حين يتحدث هو وضيوفه معًا في نصف الساعة تلك. كان والتر يحب ضيوفه إلى حدِّ البكاء من الرقة نحوهم. والآن فإن والتر مُنزعج من شعوره بالانفصال عن هارولد ديبس وثعلبه وانتقاده لهما. لاحظ والتر مع الأسف أن هارولد يملك فكًّا غير مُكتمِل النمو، وكان هو نفسه يبدو كالثعلب. ربما مكث الثعلب معه لأنه شعر أنه مع أحد من بني جلدته. وشعر والتر بالذنب لأن فكرة كهذه واتتْه وحاول أن يعوض عن ذلك بأن يضفي على صوته نبرة دافئة أكثر مما تحمل في الغالب، حتى بدا أن اهتمامه بالأمر يحمل نبرة مُتكلفة. كان هارولد وثعلبه هما حالة الإخفاق الأولى بالنسبة إلى والتر.

ولم يكن الحديث كذلك ناجحًا بما يكفي ليمحو ذكرى هارولد. كان الحديث عن «ما يفعله دود الأرض من أجل إنجلترا». وكانت عبارة «من أجل إنجلترا» هي لمسة نموذجية من لمسات والتر. قد يتحدَّث رجال آخرون عن مكان دود الأرض في الطبيعة، ولم يكن أحد ليهتمَّ ولو بقدر ضئيل لا بدود الأرض ولا بالطبيعة. لكن والتر علَّق دودته في صنارة شكسبيرية وأخذ يحركها بلطف، حتى يتمكَّن مُستمعوه من رؤية جحافل الغابة العمياء الغاضبة وهي تُحوِّل الأحجار الرمادية في البحر الغربي إلى الجنة الخضراء التي هي إنجلترا. ستُرسَل سبعة وخمسون خطابًا غدًا في أول بريد متاح من جهة الحدود الشمالية، بالطبع، للإشارة إلى أن اسكتلندا هي الأخرى لديها دود الأرض. لكن كان هذا مجرد الكثير من الأدلة الإضافية على القوة التي يتمتع بها تصوير والتر.

كانت عادة والتر السرية أن يتحدث كما لو كان يخاطب شخصًا واحدًا مُحددًا حين يبث برنامجه؛ وهي خدعة تساعده على الوصول إلى حالة الود غير الواعي تلك والتي كانت هي صفته المميزة. لم يكن هذا الشخص الذي يخاطبه حقيقيًّا قطُّ؛ ولم يتخيَّل هو قطُّ شكل مُستمعه الخيالي بالتفصيل. كان والتر يقرر فقط أنه سيتحدث اليوم إلى «امرأة عجوز في ليدز»، أو إلى «فتاة صغيرة في مستشفى في بريدجووتر»، أو إلى «حارس فنار في اسكتلندا». أما اليوم فقد فكر للمرة الأولى أن يتحدَّث إلى ليز. دائمًا ما كانت ليز تستمع إلى بثه الإذاعي، وكان يُسلم يقينًا أنها ستستمع له اليوم، لكن مستمعه التخيُّلي كان جزءًا أصيلًا من تمثيله حتى إنه لم يخطر بباله من قبل قط أن يستخدم ليز باعتبارها الشخص الذي يتحدث إليه. الآن، واليوم، انمحى مستمعه «التخيلي» بفعل احتياج مبهم بداخله لتقريب ليز إليه، احتياج إلى أن يشعر بها إلى جواره، فتحدَّث إلى ليز.

لكن ذلك لم يحقق النجاح المرجو. كان مجرَّد تذكر ليز يصرف ذهنه عن النص المكتوب، فأخذ يتذكر ليلة أمس بجوار النهر، وأشجار الصفصاف وقتامتها الآخذة في الازدياد، والنجمة الذهبية الوحيدة بجوار منزل ميل هاوس. وإضاءة بلون النرجس البري الشاحب، «كما تُحبُّها ليز». ثم انصرف انتباهه عن الديدان وعن إنجلترا وتعثَّر في نطق الكلمات، فضاع منه وهم العفوية.

وقَّع والتر دفاتر التوقيعات التي أرسلت إلى الاستوديو لأجل ذلك الغرض، وكان في أثناء ذلك متحيرًا ومنزعجًا بعض الشيء لكنه لم يكن مُضطربًا كثيرًا، وقرَّر ما سيفعل بشأن حالات (أ) طلب حضوره إلى حفل تعميد، (ب) طلب الحصول على إحدى ربطات عنقه، (ج) تسعة عشر طلبًا للظهور في برنامجه، و(د) سبعة طلبات لقروض مالية؛ ثم

غادر عائدًا إلى المنزل. وبعد أن واتتْه فكرة لاحقة، عاد والتر واشترى رطلًا من ملبَّس الشوكولاتة لأجل ليز. وبينما كان يضعه في علبة القفازات بالسيارة خطر له أن وقتًا طويلًا قد مر منذ أن اشترى شيئًا لليز وهو في طريق عودته إلى المنزل. كانت تلك عادة لطيفة؛ ينبغي أن يكثر من فعلها.

وما كاد يترك زحام المرور خلفه وامتدَّ أمامه الطريق السريع الرئيسي في هدوء حتى انصرف ذهنه عن ليز إلى الشيء الذي كانت تُخبئه صورتها: وهو سيرل. سيرل. «لوسيفر الغرب الأوسط» كما قال عنه سيرج المسكين. تساءل والتر في ذهنه، لماذا لوسيفر؟ لوسيفر، أمير الصباح. كان دائمًا ما يتخيَّل لوسيفر عملاقًا طويلًا من نار طوله ستة أقدام ونصف. وليس مثل سيرل على الإطلاق. ماذا كان بسيرل وأوحى بلوسيفر إلى عقل راتوف الاتهامي؟

لوسيفر. مجد ساقط. بهاء تبدَّل إلى شر.

رأى في ذهنه صورة سيرل الذي سار معه حول المزرعة؛ شعره الأشقر من دون قبَّعة وهو يتطاير في فوضى بفعل الرياح، ويداه مدفوعتان عميقًا في جيوب بنطاله الإنجليزي الخفيف. لوسيفر. كاد والتر يضحك بصوت مرتفع.

لكن كان هناك بالطبع شيء غريب فيما يتمتَّع به سيرل من وسامة. شيء — ماذا كان ذلك الشيء الغريب؟ — صفة لا يُمكن تحديد وجهتها. شيء ليس من عالم البشر تمامًا.

ربما كانت تلك الصفة هي ما أوحتْ بفكرة الملاك الساقط إلى عقل سيرج الخصب.

على أي حال، بدا سيرل شابًّا صالحًا، وهما سيُؤلِّفان كتابًا معًا؛ وسيرل يعلم أن ليز مخطوبة إلى والتر وسيتزوَّجها؛ لذا فإنه ما كان لـ…

لم ينهِ والتر خاطرته، حتى في ذهنِه. ولم يخطر له أن يتساءل في ذهنِه كيف يمكن لوسامة جعلت أحدهم يُفكِّر في الملاك الساقط، أن تؤثِّر على فتاة شابة مخطوبة إلى مذيع في هيئة الإذاعة البريطانية.

قاد والتر السيارة نحو المنزل بسرعة أكبر من المعتاد، وركن السيارة وأخذ حلوى ليز المفضَّلة من مكانها في صندوق القفازات، ودخل ليُقدِّمها لها ويحصل منها على قُبلة من أجل اهتمامه بها وبُعد نظره. كما كان والتر يحمل أخبارًا جيدة تتمثَّل في إعجاب كورماك روس بفِكرة الكتاب وأنه على استعداد لأن يدفع لهم لقاءها مبلغًا مجزيًا من المال. لم يكن والتر يُطيق الانتظار حتى يبلغ حجرة الاستقبال.

كانت الردهة ذات الطراز الباروني هادئة وباردة أثناء عبوره إياها، وقد تعبَّأت برائحة الملفوف والراوند المَطهو، رغم وجود أبواب عتيقة مبطَّنة بالجوخ الأخضر. وفي

غرفة الاستقبال، والتي كانت دافئة ومُبهجة كعادتها، لم يكن هناك أحد سوى لافينيا، جالسة وقدماها على الحاجز الحديدي عند المدفأة وقد وضعت على ركبتَيها إصدارات اليوم من المجلات الأسبوعية الثقافية الرفيعة المُستوى.

قالت لافينيا وهي تطلُّ بوجهِها من وراء مجلة «ووتشمان»: «إنه لأمر غريب، كم هو من انعدام الأخلاق أن يتكسَّب المرء الأموال من الكتابة.»

«مرحبًا خالة فين. أين الآخرون؟»

«اعتاد ذلك التافه أن يُؤله سيلاس ويكلي حتى ذهب وجنى لنفسِه ثروة. إم بالطابق العلوي، حسبما أظن. أما الآخرون فلم يعودوا بعد.»

«لم يعودوا؟ من أين؟»

«لا أعلم. لقد خرجُوا بعد الغداء في تلك السيارة الصغيرة الكريهة المملوكة لبيل مادوكس.»

«بعد الغداء.»

««التكرار اللَّزِج لأسلوبٍ ما كونه يفتقر إلى حدة الذهن وكأنه ملصق إعلاني.» ألا يُصيبونك بالغثيان! أجل، لم أكن في حاجة إلى ليز ظهيرة اليوم؛ لذا خرجوا. إنه يوم رائع، أليس كذلك؟»

«لكن لم يتبقَّ إلا عشر دقائق حتى موعد العشاء!»

فقالت لافينيا، وعيناها تتبعان المذبحة المنصوبة لسيلاس: «أجل. يبدو أنهم سيتأخَّرُون.»

إذن لم تستمِع ليز إلى البرنامج! كان والتر يتحدَّث إليها ولم تكن تستمع إليه حتى. ومن ثم أصابه الذهول. إنَّ حقيقة أن السيدة العجوز من ليدز، والطفل في المُستشفى في بريدجووتر، وحارس الفنار في اسكتلندا لم يكونوا يستمعون أيضًا لم تُشكِّل له أي فارق. كانت ليز تستمع إليه «دائمًا». كان من واجبها أن تستمِع. فهو والتر خطيبها، وإن كان يتحدَّث إلى العالم فالواجب أن تستمِع. والآن خرجت ليز في ابتهاج مع ليزلي سيرل وتركته يتحدَّث إلى الهواء. خرجت ليز تتسكَّع في الأرجاء من دون تفكير، خرجتْ يوم جمعة، في وقت إذاعة برنامجه، خرجت مع سيرل إلى مكان لا يعلمه إلا الله، مع شخص لم تعرفه سوى منذ سبعة أيام، وظلا في الخارج حتى هذه اللحظة. لم تكن موجودة بالمنزل حتى تحصل على الشوكولاتة التي عاد من طريقه كي يُحضرها لها. كان هذا عملًا شنيعًا.

ثم وصل القس. لم يتذكَّر أحد أنه سيأتي على العشاء. كان من تلك النوعية من الرجال. وتحتَّم على والتر أن يقضي خمس عشرة دقيقة أخرى مع ديدان الأرض في حين

أنه كان قد حصل منها على أكثر من كفايته. كان القس قد استمع إلى برنامجه وانبهر به كثيرًا؛ حتى إنه لم يستطع أن يتحدَّث عن أيِّ شيء آخر.

ثم دخلت السيدة جاروبي، وحيَّت القسَّ في سرعة بديهة جديرة بالثَّناء، ثم ذهبت لتتدبر إضافة البازلاء المعلَّبة إلى الطبق الرئيسي وغلاف من العجين الحلو للراوند المطهو.

وبحلول الوقت الذي كان الثنائي المفقود فيه قد تأخَّرا عشرين دقيقة وقرَّرت السيدة جاروبي ألا تنتظرهما، غيَّر والتر موقفه وقرَّر أن ليز قد ماتت. ما كانت ليز لتتأخَّر قطُّ على العشاء. إنها ترقد ميتة في حفرة في مكانٍ ما. ربما كانت السيارة قد انقلبت بها. فسيرل أمريكي ومن المعروف أن الأمريكيِّين جميعهم متهورون في القيادة ولا يتمتَّعون بالصبر في الأزقة الإنجليزية. على الأرجح أنهما اصطدما بشيء ما بعد أن اجتازا إحدى الزوايا بسرعة.

أخذ والتر يُداعب حساءه، وقد انقبض قلبه فزعًا، وهو يستمع إلى القس يتحدث عن علم الشياطين. كان والتر قد سمع من قبل كل ما قاله القسُّ عن هذا الموضوع، لكن كان الابتعاد عن موضوع الديدان مبعث ارتياح على الأقل.

وعند اللحظة التي انقبَضَ فيها قلبه وانكمش حتى أصبح في حجم ثمرة عتيقة للغاية من عيش الغراب، أمكنهم سماع أصوات سيرل وليز تنضح بالبهجة والمرح في الردهة. دخلا لاهثَين يشعان بهجة. راحا يكيلان الاعتذارات الارتجالية عن تأخُّرهما وأبديا استحسانهما لقرار الأسرة بعدم تأخير موعد العشاء من أجلهما. قدمت ليز سيرل إلى القس لكنها لم تفكر في أن تقول أي كلمة خاصة إلى والتر قبل أن تنكبَّ على حسائها وكأنها لاجئة تتضور جوعًا. قال كلٌّ من ليز وسيرل إنهما جابا أنحاء كثيرة؛ إذ شاهدا تويلز آبي أولًا والقرى المتاخمة؛ ثم التقيا بعد ذلك ببيتر مايسي وذهبا ليُشاهِدا جياده وأوصلاه إلى كروم؛ وبعد ذلك تناولا الشاي في مقهى ستار آند جارتر في كروم، وكانا على وشك مغادرة كروم حين وجدا إحدى دور السينما تعرض فيلم «سرقة القطار الكبرى»، وبالطبع لم يكن بمقدور أحد أن يرفض فرصة مشاهدة هذا الفيلم. كان عليهما أن يُشاهدا عدة عروض حديثة قبل بدء عرض الفيلم — وهذا هو الأمر الذي أخرهما — لكن الفيلم كان يستحق الانتظار.

شغل سرد لأحداث فيلم «سرقة القطار الكبرى» مُعظَم وقت تناول أطباق السمك.

قالت ليز، وهي تلتقط بعضًا من الخبز: «كيف كان البرنامج، يا والتر؟»

كان من السيئ للغاية أنها لم تقل: «أنا آسفة لأنني لم أستمع لبرنامجك، يا والتر»؛ لكن كانت القشة الأخيرة حين لم تولِ أمر البرنامج من ذهنها إلا ذلك الجزء الذي لم يكن مشغولًا بإعادة ملء طبق الخبز أمامها.

إذ قال والتر: «سيُخبركِ القسُّ. فقد استمع إليه.»

وأخبرهم القس عن البرنامج «بحماس». وقد لاحظ والتر أن ليز وليزلي سيرل لم يستمعا في الواقع. ففي إحدى اللحظات أثناء سرد القس، التقت عينا ليز بنظرات سيرل بينما كانت تمرر له شيئًا وابتسمتْ له ابتسامتها السريعة الودودة. كانا مسرورَين كثيرًا بنفسَيهما، وببعضهما، وباليوم الذي قضياه معًا.

ثم سأل سيرل حين انتهى القس أخيرًا من حديثه: «ماذا قال روس عن الكتاب؟»

فقال والتر: «سُرَّ كثيرًا بالفكرة»، وكان يأمُل حقًّا لو أنه لم يبدأ هذه الشراكة مع سيرل.

وقالت السيدة جاروبي: «هل سمعت بما يخططان له، أيها القس؟ سيكتبون كتابًا عن نهر راشمير. من منبعه وحتى مصبه في البحر. سيكتبه والتر وسيزوده سيرل بالرسوم والصور التوضيحية.»

أشاد القس بفكرة الكتاب وأشار إلى كلاسيكيتها. وسأل إن كانا سيفعلان ذلك على صهوة فرسة أم حمار.

فأجاب والتر: «سيرًا على الأقدام حتى أوتلي، أو بالقُرب منها. ومن هناك نُكمل طريقنا عبر المياه.»

قال القس: «عبر المياه؟ لكن نهر راشمير يعجُّ بالنتوءات في المساحات الأولى منه.»

فأخبراه عن زوارق الكانو. ورأى القس أن هذه الزوارق تُمثل وسيلة معقولة بالنسبة إلى نهر مثل راشمير، لكنه تساءل من أين يمكنهما الحصول عليها.

قال والتر: «لقد تحدَّثت إلى كورماك روس عن هذا اليوم، واقترح أننا قد نجد بعضها عند متجر كيلنر، وهم صانعو القوارب الصغيرة في ميناء مير. إنه يصنع لجميع أنحاء العالم. فجو كيلنر هو من صمم ذلك الطوف الذي يتحوَّل إلى خيمة قابلة للطيِّ والذي استخدمه أورينوكو في آخر رحلاته، ثم قال بعدها إنه كان سيجعل منه طائرة شراعية أيضًا لو كان قد فكر في ذلك وقتها. كنت سأَقترح أن نذهب أنا وسيرل إلى ميناء مير غدًا ونقابل كيلنر؛ هذا إن لم يكن مشغولًا بخُطَط أخرى.»

فقال سيرل: «لا بأس. لا بأس.»

ثم سأل القس سيرل إن كان يهوى صيد السمك. فأجاب سيرل بالنَّفي، لكن القس كان يهوى هذا. كان اهتمام القس ينصبُّ، بعد علم الشياطين مباشرة، على صيد السمك باستخدام طعم دراي فلاي. ومن ثم، وخلال ما تبقَّى من وقت العشاء، أخذوا يستمعُون

إلى القس يتحدث عن طعوم دراي فلاي، وكانوا يُبدون تجاه ذلك اهتمامًا ضعيفًا كالذي يولونه لموضوعات مثل خلط الأسمنت، أو مضغ العلكة، أو حياكة كعب جورب؛ موضوعات تحظى باهتمام تقليدي فقط. وانصرف كل منهم إلى استخدام الجزء غير المشغول من ذهنِه بطريقتِه الخاصة.

قرَّر والتر أنه سيترك العلبة البيضاء الصغيرة التي تحتوي على الشوكولاتة فوق طاولة الردهة، حيث وضعها أثناء دخوله لتناول العشاء، حتى تسأل عنها ليز؛ حينها سيخبرها بما تحويه على نحو غير مبال. وارتأى أنها ستعض أناملها من الندم لأنه فكر فيها بينما نسيتْه هي تمامًا.

وأثناء خروجهم من حجرة الطعام رمق والتر جانب الردهة بنظرة سريعة ليتأكد من أن العلبة الصغيرة لا تزال بمكانها. وقد كانت كذلك بالفعل. لكن يبدو أن ليز، أيضًا، وضعت شيئًا على الطاولة وهي في طريقها لتناول العشاء. صندوق كبير مسطح من الحلوى من عند أغلى صناع الحلوى في كروم. يبلغ وزن هذا الصندوق أربع باوندات على الأقل. كان مكتوبًا عليه «ملبس» بخط يدوي ذهبي غير واضح على سطحه ذي اللون الأصفر الباهت، وكان الصندوق مربوطًا بقطعة طويلة من شريط عريض، يتخذ في آخره شكل عقدة تنمُّ عن البهرجة والبذخ. ظلَّ والتر ينظر إلى كلمة «الملبس» المتكلفة والشريط المبهرج بشكل يدعو إلى الأسف. كان الشيء برمَّته ينم عن ذوق شنيع. يا له من أسلوب أمريكي للغاية أن يشتري شيئًا كبيرًا ومبهرجًا. جعل هذا والتر يشعر بالتقزُّز للغاية من النظر إليه.

ما جعله يشعر بالتقزُّز، بالطبع، ليس هو صندوق الحلوى.

بل كان مُتقززًا نتيجة شعورٍ أقدم من وقت اختراع الحلوى.

وبينما كان والتر يصبُّ شراب البراندي لسيرل والقس ولنفسه ليتناولوه مع القهوة بحث في ذهنه عن شيء يُشعره بالارتياح، ووجده.

ربما يُقدم لها سيرل صناديق الحلوى الباهظة، لكن كان والتر هو من يعرف حلواها المفضلة.

أو — هل يعرف سيرل هذا أيضًا؟ ربما لم يتصادف أنَّ صانع الحلوى في كروم كان لديه ملبس الشوكولاتة.

ثم صبَّ والتر المزيد من زجاجة البراندي. فهو في حاجة إلى جرعة إضافية منه الليلة.

الفصل السادس

إذا أمكننا القول إن إيما جاروبي كانت سعيدة لوجود ليزلي سيرل في تريمنجز، فإنَّ السبب الوحيد لذلك هو خطة تأليف الكتاب. فقد كان ذلك سيصرفُه بعيدًا عن المنزل لما تبقَّى من مدة إقامته في أورفوردشير؛ وبمجرَّد أن تنتهي رحلته إلى نهر راشمير سيغادر ولن يسمعوا عنه شيئًا بعدها أبدًا. لم يقع منه أي أذى حتى الآن، بقدر ما يُمكنها أن ترى. كانت ليز تحب أن تقضي الوقت مع ذلك المخلوق، بالطبع، بسبب أنهما شابان وبسبب أنهما يضحكان على الأشياء نفسها، وبسبب، وهذا أمر طبيعي، أنه شخص جذاب. لكن ليز لم تُظهِر أي أمارات على كونها منجذبة له جديًّا. فلم تكن تنظر إليه إلا حين يكون لديها ما تقوله له؛ ولم تتبعه بعينها كما تفعل الفتيات العاشقات، ولم تجلس إلى جواره قطُّ في غرفة ما.

لكن وعلى الرغم من كل ما تتمتَّع به إيما جاروبي من سرعة فهم، فقد كانت امرأة بليدة الإدراك.

ومن الغريب أن لافينيا شبه المتقوقعة هي من لاحظت هذا الأمر وأثار انزعاجها. وأخذ الانزعاج يتدفَّق ويفيض في كلماتها، رغمًا عنها تقريبًا، بعد مرور حوالي سبعة أيام. كانت تُملي أحد مؤلَّفاتها على ليز كالمعتاد، لكنها أخذت تزيد من صعوبة الأمر. وكان هذا نادر الحدوث حتى إن ليز أصيبت بالحيرة والارتباك. كانت لافينيا تُؤلِّف كتبها بارتياح كبير؛ إذ تكون مُهتمَّة بصدق بمصير بطلتها الحالية. لعلها لا تتذكَّر بعد ذلك إن كانت دافني أو فاليري هي من قابلت حبيبها بينما تجمع أزهار البنفسج وقتَ الفجر عند كابري، لكن بينما كانت دافني (أو فاليري) مشغولة بأمر جمع الزهور ولقاء حبيبها، كانت لافينيا فيتش ترقبُها وتحرسها وكأنها عرابتها. والآن، وعلى العكس من كلِّ ما سبَق، أصبحت لافينيا شاردة الذهن وتُواجه صعوبة كبيرة في تذكُّر ما كانت تبدو عليه سيلفيا.

قالت لافينيا وهي تذرع الحجرة جيئة وذهابًا: «أين توقفت يا ليز، أين توقفت؟» وكان هناك قلم رصاص عالق في شعرها الذهبي اللون والمصفف على شكل عش الطائر، وآخر تمضغه حتى لبه بين أسنانها الصغيرة.

«سيلفيا تدخل من الحديقة. عبر النافذة الفرنسية الطراز.»

«أوه، صحيح. «توقفت سيلفيا عند النافذة، وجسدها الممشوق يحدِّده الضوء خلفها، وعيناها الزرقاوان الواسعتان يشوبُهما الحذر والريبة ...»»

فقالت ليز: «بنية.»

«ماذا؟»

«عيناها» ثم قلبت ليز بضع صفحات من النص. «الصفحة رقم ٥٩. «عيناها البنيتان شفافتان رائقتان كحبات المطر التي تُغطِّي أوراق الخريف ...»»

«لا بأس، حسنًا. «... عيناها البُنيَّتان الواسعتان يشوبهما الحذر والريبة. وبحركة رشيقة بعد أن اتخذت قرارها خطت إلى داخل الحجرة، وكعبا حذائها الصغيران ينقران نقرًا خفيفًا على الأرضية المصنوعة من الباركيه ...»»

«لم تكن ترتدي حذاءً ذا كعب.»

«ماذا تقولين؟»

«لم تكن ترتدي حذاءً ذا كعب.»

«ولم لا؟»

«كانت تلعب التنس لتوِّها.»

فقالت لافينيا: «ربما غيرت حذاءها، ألا يُمكنها ذلك؟» وكان في نبرتها شيء من الحدة الغريبة عليها.

فقالت ليز في تأنٍّ: «لا أظنُّ ذلك. فلا تزال تحمل مضرب التنس. لقد أتت عبر الشرفة «وهي تؤرجح مضربها برفق».»

انفجرت لافينيا قائلة: «أوه. حقًّا! أراهن أنها لا تستطيع اللعب حتى! أين توقفت؟ «خطت إلى داخل الغرفة ... خطت إلى داخل الغرفة، وفستانها الأبيض القصير يُرفرف» ... كلا؛ كلا، انتظري ... «خطت إلى داخل الغرفة» ...» ثم انفجرت تقول وقد قذفت بالقلم الممضوغ على المكتب: «أوه، تبًّا يا سيلفيا! من يعبأ بما تفعله تلك الحمقاء الساذجة! لنتركها واقفة عند النافذة اللعينة تموت جوعًا!»

«ما الخطب، أيتها الخالة فين؟»

«لا يمكنني التركيز.»

«هل يُقلقك أمرٌ ما؟»

«كلا. أجل. كلا. أجل، أظنُّ أنني قلقة، على نحوٍ ما، على الأقل.»

«أيمكنني مساعدتك؟»

مرَّرت لافينيا أصابعها في شعرها المصفَّف على شكل عش الطائر، ووجدت القلم فيه، وبدت مسرورة. «رائع، ها هو قلمي الأصفر». ثم أعادته مرة أخرى في تصفيفة شعرها. وأكملت تقول: «عزيزتي ليز، لا تظني بأنَّني أتدخل أو شيء من هذا القبيل، أستميحك في ذلك، لكن أنت بأيِّ شكل من الأشكال غير «مفتونة» ولو قليلًا … قليلًا بليزلي سيرل، أليس كذلك؟»

فكرت ليز كيف كان من شيَم خالتها أن تستخدم كلمة عتيقة تعود لعهد الملك إدوارد مثل كلمة «مفتونة». كان على ليز دائمًا أن تُحدِّث من كلمات لافينيا العتيقة.

«إن كنتِ تقصدين بكلمة «مفتونة» أنني أحبه، فأَريحي بالك. لستُ واقعةً في حبه.»

«لا أعلم إن كان هذا هو ما أعنيه. فأنتِ لا تُحبِّين مغناطيسًا إذا كان الأمر يتعلق بالحب.»

«لا أحب ماذا! ما الذي تتحدَّثين عنه؟»

«إنه ليس وقوعًا في الحب، لم يصل الأمر إلى هذا الحد. إنه انجذاب. إنه يفتنك، أليس كذلك.» وصاغت لافينيا جملتها هذه في صيغة خبرية وليس في صورة سؤال.

رفعت ليز نظرها إلى هاتَين العينين المضطربتَين البريئتين وحاولت التملص.

فسألت: «لماذا قد تظنِّين ذلك؟»

قالت لافينيا: «أظن لأنني أشعر بذلك أيضًا.»

كان هذا غير متوقع تمامًا حتى إن ليز لم تجد كلمات لتنطق بها.

ثم قالت لافينيا بنبرة بائسة: «أتمنَّى الآن لو أنني لم أدعُه إلى تريمنجز. أعلم أن هذا ليس خطأه — هو لم يتعمَّد فعل أي شيء — لكن لا شكَّ أنه شخص مُثير للانزعاج. إن سيرج وتوبي توليس يقاطعان بعضهما بعضا …»

«هذا ليس بشيء جديد!»

«أجل، لكنهما أصبحا صديقَين مجددًا، ويتصرَّف سيرج بطريقة جيدة كثيرًا وفاعلة، والآن …»

«لا يُمكنكِ إلقاء لائمة على ليزلي سيرل بسبب هذا الأمر. كان هذا سيحدث حتمًا وبالضرورة. تعرفين أنه كان سيحدث.»

«والطريقة التي أخذته بها مارتا معها بعد العشاء في تلك الليلة حتى ساعة متأخرة كانت غريبة للغاية. أقصد الطريقة التي «استولت» عليه بها كمرافق لها، من دون أن تنتظر لترى ما سيفعله الآخرون.»

«لكن القس كان موجودًا لتوصيل الآنسة إيستون-ديكسون إلى المنزل. كانت مارتا تعلم هذا. من الطبيعي أن يذهب القس مع الآنسة ديكسون؛ فهما يقطنان في الجهة نفسها.»

«ليس الأمر فيما فعلت، بل في الطريقة التي فعلته بها. لقد ... لقد «انتزعته».»

«أوه، تلك هي طريقة مارتا المُتغطرِسة وحسب.»

«هراء. لقد شعرتْ هي أيضًا بذلك الشعور. الـ ... الافتتان.»

فقالت ليز: «بالطبع، فهو جذاب إلى حدٍّ بعيد» وفكرت كيف أن هذه الصيغة المبتذلة لم تنجح تمامًا في أن تفي بأي صفة من صفات ليزلي سيرل.

قالت لافينيا، بنبرة حزينة: «إنه ... غامض. ليس هناك كلمة أخرى تصفُه. فأنتِ تنتظِرين وتُراقبين الشيء التالي الذي سيفعله، وكأنه ... وكأنه إشارة، أو نذير، أو إلهام، أو شيء من هذا القبيل.» واستخدمت لافينيا كلمة «أنت» بصورة غير شخصية، لكنها نظرت إلى ليز في عينيها بتحدٍّ وقالت: «حسنًا، تفعلين هذا، أليس كذلك!»

قالت ليز: «أجل. أجل، أظنُّ أن الأمر على هذا النحو. وكأن ... وكأن أبسط شيء يفعله له مدلول ومغزى.»

التقطت لافينيا القلم المضوغ من على المكتب وراحت ترسم به بلا تركيز على دفتر المسوَّدة. لاحظت ليز أنها ترسُم أشكالًا لرقم ثمانية. لا بدَّ أن لافينيا منزعجة كثيرًا بالفعل. فحين تكون سعيدة ترسم جدارًا من الطوب.

قالت لافينيا وهي تُفكِّر في الأمر بعمق: «هذا الأمر في غاية الغرابة. فأنا أشعر «بالرغبة في المغادرة» حين أكون معه في مكان واحد كالتي أشعر بها عند وجودي في المكان نفسه مع مُجرم شهير. كل الفارق أن الأولى ألطف بالطبع. لكنه الإحساس نفسه بأن ... بأن هناك شيئًا خاطئًا.» ثم رسمت لافينيا في غضب بضعة أشكال للرقم ثمانية. وأردفت: «لو أنه اختفى الليلة، وأخبرني أحدهم أنه كان شيطانًا وسيمًا وليس كائنًا بشريًّا على الإطلاق، كنت سأصدِّقه. أقسم أنني سأُصدقه، قطعًا كنت سأفعل.»

بعد ذلك ألقت لافينيا بالقلم مرة أخرى على المكتب، وقالت بضحكة واهية: «لكن كل هذا محض عبث. إنك تنظرين إليه وتحاولين أن تكتشفي الشيء الاستثنائي بشأنه، وماذا

تجدين؟ لا شيء. لا شيء مميز لا يمكن إيجاده في أشخاص آخرين، أليس كذلك؟ لون شعره الأشقر المتوهج وبشرته التي تشبه بشرة الأطفال؛ إن ذلك المراسل النرويجي لدى صحيفة كلاريون الذي اعتادَ والتر اصطحابه إلى هنا كان يتمتع بتلك الصفات. ويتسم سيرل برشاقة غير معتادة بالنظر إلى كونه رجلًا؛ لكن سيرج راتوف يتمتع بذلك أيضًا. كما أن له صوتًا لطيفًا وديعًا وطريقة حديث بطيئة ممطوطة تجذبك للاستماع إليه؛ لكن نصف سكان تكساس وكذلك قطاع كبير من الأيرلنديين لديهم السِّمة نفسها. حدِّدي صفاته الجذابة، فما الذي تدلُّ عليه؟ يُمكنني أن أخبرك بما لا تدلُّ عليه. إنها لا تدلُّ على ليزلي سيرل.»

فقالت ليز بنبرة جادة: «أجل. لا تدلُّ عليه.»

«ستجدين أن ... أن الشيء المُثير للاهتمام لم يأتِ على ذكره أحد. ما الشيء الذي يجعله مختلفًا؟ حتى إيما شعرت به أيضًا.»

«أمي؟»

«لكن هذا الشيء قد أخذَها في الاتجاه المعاكس. إنها تكره هذا الشيء. هي غالبًا ما تعترض على من أستضيفهم هنا، بل إنها حتى لا تعجب بهم أحيانًا. لكنها تكره ليزلي سيرل.»

«هل أخبرتكِ بذلك؟»

«كلا. لم يتحتَّم عليها ذلك.»

كلا، هكذا فكرت ليز. لم يتحتَّم عليها ذلك. إنَّ لافينيا فيتش — المحبوبة العطوفة شاردة الذهن — صانعة الروايات الخيالية للمُراهقين الدائمين تتمتَّع في نهاية المطاف بحدسِ الكُتاب.

قالت لافينيا: «أتساءل كثيرًا إن كان هذا الشيء هو أنه مجنون بقدر ما.»

«مجنون!»

«جنون لحظي فقط، بالطبع. فثمة جاذبية خبيثة لدى الأشخاص الذين يتَّصفون بالجنون الشديد بشأن شيء ما، ويتَّسمون بالعقلانية تجاه كل شيء آخر.»

قالت ليز: «فقط حين تعرفين بأمر جنونهم. سيتعيَّن عليكِ أن تعرفي عن عقدته الذهنية قبل أن تعاني من أي جاذبية خبيثة.»

أخذت لافينيا تُفكِّر في هذا. ثم قالت: «أجل. أعتقد أنكِ محقة. لكن الأمر لا يهمُّ؛ لأنني قررت بنفسي أن نظرية «الجنون» لا تُجدي نفعًا. فلم ألتقِ من قبل بأحدٍ أكثر عقلانية من ليزلي سيرل. هل التقيت أنت؟»

ولم تكن ليز قد فعلت.

ثم قالت لافينيا، وقد عادت إلى الرسم بدون تركيز مرةً أخرى محاولة اتِّقاء نظرات ابنة أختها: «لا تعتقدين أن والتر بدأ يشعر بالانزعاج من ليزلي، أليس كذلك؟»

قالت ليز، في اندهاش: «والتر. كلا، بالطبع لا. إنهما صديقان عزيزان.»

رسمت لافينيا بابًا على منزلٍ رسمته بسبعة خطوط دقيقة.

فقالت ليز، في تحد: «لماذا قد تظنِّين هذا بشأن والتر؟»

أضافت لافينيا أربعة نوافذ وفتحة مدخنة، وأخذت تنظر في تأثير ذلك على الرسم.

«لأنه يقدِّره ويحترم مشاعره كثيرًا.»

«يقدره! لكن والتر دائمًا ما …»

قالت لافينيا، وهي ترسُم الدخان المنبعث من المدخنة: «إن والتر يتعامَل مع الناس الذين يروقونه على أن وجودهم في حياته أمر مفروغ منه ومُسلَّم به. وكلَّما راقوه أكثر، صار وجودهم مسلَّمًا به أكثر. إنه حتى يعتبر وجودك في حياته أمرًا مسلَّمًا به، كما لاحظتِ من دون شكٍّ قبل ذلك. وكان يأخذ وجود ليزلي سيرل أمرًا مفروغًا منه حتى مؤخَّرًا. لكنه لم يعد يعتبره كذلك.»

راحت ليز تفكر في هذا في صمت.

ثم قالت في النهاية: «إن كان لا يروقه، لمَ قام معه برحلة نهر راشمير، أو شاركه الكتاب.» وأضافت بينما كانت لافينيا مُنهمِكة تمامًا في وضع مقبض الباب في مكانه الصحيح: «أخبريني، أكان سيفعل؟»

ثم قالت لافينيا، بنبرة جافة قليلًا: «سيُدرُّ الكتاب ربحًا وفيرًا.»

فردت ليز في عناد: «ما كان والتر ليتعاون أبدًا مع أحد وهو لا يروقه.»

قالت لافينيا وكأنها لم تتحدَّث: «وربما يجد والتر صعوبة في تفسير عدم رغبته في تأليف الكتاب في نهاية المطاف.»

قالت ليز، وهي شبه غاضبة: «لماذا تُخبرينني بهذا؟»

توقفت لافينيا عن الرسم وقالت بنبرة ودية: «ليز يا عزيزتي، لا أعلم ذلك يقينًا، إلا أنني كنت آمل أن تجدي طريقة لطمأنة والتر. بأسلوبك الذكي. أي من دون جذب انتباهِه إلى الكثير من التفاصيل.» ثم التقت عيناها بنظرات ليز، فقالت: «أوه، أجل، أنتِ ذكية. أذكى بكثيرٍ مما سيكون عليه والتر يومًا. هو ليس ذكيًّا للغاية، ذلك المسكين والتر. كان أفضل ما حدث له أنكِ أحببتِه.» ثم دفعت بورق المسودة بعيدًا عنها وابتسمت فجأة،

وأردفت: «لا أظنُّ أن من السيئ تمامًا أن يكون له مُنافس يتنافس معه. طالما أنه لا توجد فرصة أن تُصبح تلك المنافسة جادة.»

فقالت ليز: «بالطبع ليست جادة.»

فقالت لافينيا، وقد بدأت تمضغ القلم مرةً أخرى بعد أن التقطته: «إذن لنُبعد تلك الحمقاء عن النافذة ونُنحِّها من الفصل قبل الغداء.»

لكن ليز لازمها إحساس بالصدمة فيما كانت تُسجِّل أفعال الحمقاء سيلفيا، بما يخدم مكاتب إعارة الكتب ومصلحة الضرائب إلى أقصى حد. لم يخطر ببالها أن اهتمامها بسيرل يُمكِن أن يكون معروفًا لدى أحد غير نفسها. والآن لا يبدو أن لافينيا وحدها تعرف على وجه الدقة ما كانت تشعُر به تجاهه، لكنها ألمحت أيضًا إلى أن والتر ربما يعرف هو الآخر. لكن من المؤكَّد أن هذا مستحيل. أنَّى له أن يعرف؟ لقد عرفت لافينيا لأنها هي الأخرى كانت ضحية جاذبية سيرل كما قالت بكل صراحة. لكن لا يُمكن أن يكون لدى والتر مؤشِّر كهذا على مشاعرها.

ولكن كانت لافينيا محقَّة تمامًا. فقد تغيَّر موقف والتر السلس تجاه الزائر الذي كان يعتبر وجوده أمرًا بديهيًّا إلى كونه علاقة بين مُضيف وضيفه. تغير موقفه شيئًا فشيئًا لكنه حدث أيضًا بين ليلة وضحاها. فمتى تغير موقفه ولماذا؟ كان هناك ذلك الحادث المؤسف عن تزامن وجود صندوقَين من الحلوى كل منهما مختلفٌ عن الآخر كثيرًا؛ لكن لا يُمكن لهذا أن يعتمل في قلب أي شخص راشد عاقل ويزرع فيه ضغينة. فشراء الحلوى للفتيات يُمثِّل رد فعل تلقائيًّا لدى الأمريكيين؛ وهو أمر ليس له مغزى أكثر من مغزى السماح للفتيات بالمرور عبر الباب أولًا. لا يُمكن لهذا أن يثير حنق والتر. إذن كيف خمَّن والتر السر الذي لم تتشاركه إلا مع لافينيا رفيقتها في المعاناة؟

واستطرد عقلُها يتدبَّر لافينيا وقدرتها على الفهم والإدراك. ففكَّرت في الشيء الوحيد الذي تركتْه لافينيا خارج لائحة الاتهام — وهو ازدراء توبي توليس — وتساءلت ما إن كانت لافينيا قد أغفلت ذكرَه لأنَّها لم تكن تعرف معاناته، أم لأنها غير مبالية وحسب بأي معاناة يُمكن لتوبي أن يتعرَّض لها. كان توبي — وكما تعرف القرية بأكملها — يتحمَّل أشد عذابات خيبة الأمل التي يمكن أن يتعرض لها إنسان على وجه الأرض. فقد رفض سيرل — بلامبالاة لطيفة لا يُمكن تصوُّرها — الذهاب لمُشاهَدة هوو هاوس، أو المشاركة بأي شكل في الأنشطة الأخرى التي كان توبي يتوق لترتيبها من أجله. بل إنه أخفق في أن يُظهر أي اهتمام حين عرض عليه توبي أن يذهب به إلى ستانوورث ليُقدمه هناك. لم

يسبق أن حدث هذا لتوبي من قبل. فالحرية التي يتمتَّع بها توبي في التنزه بين روائع ستانوورث الدوقية هي بمثابة بطاقته الرابحة. ولم يسبق له قطُّ أن لعب بها هباءً. كانت الخدعة تنطلي على الأمريكيِّين بصفة خاصة. لكن ليس مع هذا الأمريكي. لم يكن سيرل يرغب في أن يكون له صلة بتوبي توليس، وقد جعل هذا واضحًا بأكثر الأساليب الحميدة جاذبية. لقد راوغه سيرل في كياسة وكانت مشاهدة مراوغته ممتعة رغم أنها حدثت على نحو لاذع. فقد راح المثقفون في سالكوت يُشاهِدون مراوغته في سرور واضح.

وكان هذا هو ما أغضب توبي وأربكه.

كان من السيئ للغاية أن يزدريه ليزلي سيرل؛ أما أن يعرف الجميع أنه قد ازدُريَ فهذا هو العذاب.

فكَّرت ليز أن قدوم ليزلي سيرل إلى سالكوت سانت ماري لم يكن حقًّا حدثًا سعيدًا بصورة خاصة. ومن بين كل الأشخاص الذين دخل سيرل حياتهم، ربما كانت الآنسة إيستون-ديكسون وحدها سعيدة تمامًا بمجيئه. كان سيرل رائعًا معها؛ فكان ودودًا وحليمًا حيال أسئلتها التي لا تنتهي، وكأنه هو نفسه امرأة مهتمة بالأحاديث التافهة عن عالم السينما والأفلام. لقد عرض عليها كل الإشاعات الصغيرة عن سياسات الاستوديوهات، وتبادل معها ذكريات الأفلام الجيدة والسيئة، حتى قالت لافينيا إنهما يشبهان ربتَي منزل تتبادلان وصفات الطعام.

كانت تلك هي الليلة التي أتت فيها مارتا لتناول العشاء؛ وأثناء تلك الأمسية مرَّت لحظة على ليز — حين شاهدت سيرل مع الآنسة ديكسون — تملَّكها فيها شعور رهيب بالخوف من أنها في نهاية الأمر ربما تكون واقعة في حبِّ ليزلي سيرل. لكنها لا تزال تشعر بالامتنان تجاه مارتا لأنها طمأنتها. فحين استولت مارتا على ليزلي سيرل واصطحبته معها إلى الخارج في جنح الليل ولم تشعر ليز وقتها ولو بأبسط انقباض لدى رؤيتهما يغادران، حينها عرفت ليز أنها لا تشعر نحوه بالحب، على الرغم من قوة ما تشعر به من جاذبيته.

والآن، بينما تُسجل ليز أفعال الحمقاء سيلفيا، قررت أنها ستأخذ بنصيحة لافينيا وستجد طريقة تطمئن بها والتر، حتى يذهب إلى تلك الرحلة سعيدًا بدون أي ضغينة في قلبه تجاه سيرل. حين يعود والتر وسيرل من ميناء مير — حيث يحصُلان على زورقَي كانو ويرتبان لنقلهما إلى أوتلي حتى يصبحا بانتظارهما هناك — ستفكر ليز في القيام بشيء صغير وخاص مع والتر؛ شيء كمحادثة ثنائية ذات طابع حميمي. فقد كانت الأمور ثلاثية في أغلب الأحيان في الآونة الأخيرة.

أو ربما كانت ثنائية في أغلب الأحيان، لكن على النحو الخطأ.

الفصل السابع

رحَّب والتر بفكرة أن يُكملوا تقدُّمهم في زوارق الكانو، ليس لأنه يتطلع إلى حشر نفسه في قارب صغير غير ملائم، بل لأن هذا الأمر سيقدم له «قصته». فإن كان يريد النجاح للكتاب، فلا بد أن يكون لديه «مغامرات»، وكان استخدام وسيلة انتقال غير مُعتادة هو أسهل طريق للحصول على تلك المغامرات. فمن الصعب أن يكتسب المرء من التجارب الغريب والطريف وهو محمول على أكف الراحة في سيارة. وقد فقد السير سمعته واعتباره منذ أن أصبح عالميًّا في شكل نشاط يُدعى التنزُّه على الأقدام. كان والتر — الذي قطع مسافة كبيرة من أوروبا سيرًا على قدمَيه ومعه فرشاة أسنان وقميص احتياطي في جيب معطفِه الواقي من المطر — ليُسر كثيرًا بقطع وادي راشمير سيرًا على الأقدام، لكنه شعر بأنه لا يُمكِن له أن يأمل في أن ينال رضا الهواة المعاصرين. فأسلوب فرشاة الأسنان والقميص الاحتياطي كان من شأنه فقط أن يُحيِّر المتحمسين الذين يتلذذون بعذاب السير، ويسيرون بتثاقل، وهم يحملون الكثير من الأغراض ويرتدون أحذية ثقيلة، وقد ثبتت أعينهم الخالية من أي تعبيرات عند مستوى الأفق، حيث يصبحون أكثر شبهًا بأطلس من أوديسيوس. كما أن عبور الوادي سيرًا كحدث عارض مُرافق لعرض عرائس أو لعرض بانش وجودي قد يكون جيدًا للنشر في كتاب، لكنه لم يكن ليليق بقدر شخص صنع لنفسه مكانة تقارب حد الامتلاك في مجال برامج استضافة أصحاب مهن «الهواء الطلق».

لذا رحَّب والتر بفكرة زورق الكانو. وفي الأسبوع الماضي أو نحو ذلك بدأ يُرحِّب بالفكرة لسبب آخر مختلف تمامًا.

سيصبح والتر قريبًا من ليزلي سيرل يومًا بعد يوم سواء كان في سيارة أو سيرًا على الأقدام؛ وفي زورق الكانو سيصبح بمنأى عنه فعليًّا. لقد وصل والتر إلى المرحلة التي يتسبَّب فيها حتى حديث سيرل البطيء الممطوط في مضايقته إلى الحد الذي يُصبح فيه

في حاجة إلى سيطرة لحظية على نفسه. ولم يساعد وعيه الخافت بأنه كان سخيفًا قليلًا في التخفيف من انزعاجه منه. وجاءت الطامة الكبرى حين بدأت ليز تصبح ودودة معه. لم يُحلل والتر يومًا سلوك ليز تجاهَه، والذي بدا دائمًا ملائمًا. بمعنى أن ليز كانت تُقدم له التفاني المتساهل الذي يعتبره مثاليًّا في امرأة بعد قضائه ثمانية أشهر مع مارجريت ميريام. والآن أصبحت ليز ودودة معه. كانت كلمة «التعطُّف» هي كلمته الخاصة لوصف الأمر. ولولا وعيه الجديد بليز لما أمكن له أن يلحظ التغيير، لكن ليز أصبحت تحتلُّ الصدارة في تفكيره فراح يُحلِّل حتى أبسط كلماتها، وأكثر تعبيراتها اقتضابًا. وهكذا تثبَّت والتر من أنها أصبحت ودودة معه. ودودة! «تجاهه». تجاه والتر ويتمور.

ما كان لشيء جذري أو غير لائق كهذا ليحدث لولا وجود ليزلي سيرل. كان والتر يحتاج إلى قدر كبير من ضبط النفس حين يفكر في ليزلي سيرل.

قرَّر والتر وسيرل أن يُخيِّما في العراء كل ليلة؛ إذ يسمح الطقس بذلك؛ وسُر والتر بهذا أيضًا. فهذا لن يسمح له وحسب بأن يصف مجموعة نجمات الدب الكبير وهي متداخلة مع فروع شجر البلوط، أو أن يصف حياة الليل بين الحقول والنهر، لكنه سيُعفيه من الوجود معه داخل غرفة واحدة في نُزلٍ أثناء الليل. يمكن للمرء أن يخرج ليتمشى وحيدًا بعيدًا عن مكان مبيته، لكن لا يمكن له أن يفعل، وهو في نُزل صغير، من دون أن يلاحظه أحد.

سُمي الزورقان بيب وإيما (Pip and Emma وتعني في الإنجليزية فترة ما بعد الظهر) — فبالنسبة إلى سيرل، كان نهر راشمير مكانًا دائمًا ما تبدو فيه الأجواء مشابهة لأجواء ما بعد الظهر — وانزعجت السيدة جاروبي انزعاجًا مبالغًا فيه حين عرفت أن سيرل أخذ الزورق المسمَّى بإيما. لكن ما أثار انزعاجها أكثر بكثير هو إدراكٌ بزغ في ذهنها من أنها قد لا تتمكَّن من التخلُّص من سيرل في نهاية المطاف. وتراءى لها أن الرحلة ستنطوي على عملية احتيال نسبي. فتصوير الأجزاء الأكبر من المناظر الطبيعية كان يحتاج إلى أجهزة أكثر من التي يُمكن حملها بسهولة على متن زورق كانو يشغل مساحته بالفعل حقيبة نوم وقطعة قماش مقاومة للماء؛ لذا سيضطرُّ سيرل أن يأتيَ في وقتٍ لاحق ويُصوِّر الأماكن المحددة على مهل.

لكن على الرغم من كل الهزات الخفية التي كانت تُقلقِل منزل تريمنجز — هواجس لافينيا، واستياء والتر، وشعور ليز بالذنب، وما تحمله إيما من مشاعر كراهية — كانت الحياة على السطح تسير بسلاسة. فقد أشرقت الشمس في تألق غير متجانس يشيع للغاية

في إنجلترا في الفترة السابقة لاكتساء آخر الأشجار بالأوراق؛ وكانت الليالي تخلو من الرياح وكانت دافئة كالصيف. وذات ليلة، حين كان سيرل يقف في الشرفة الحجرية بعد العشاء، أشار إلى أن إنجلترا هذه يُمكن أن تكون مثل فرنسا تلك.

حيث قال: «إنها تُذكر المرء بفيلفرانش في ليلة صيفية. لقد كانت وما زالت حتى الآن مقياس السِّحر بالنسبة إليَّ. الأضواء على صفحة الماء، والهواء الدافئ الذي يحمل رائحة الأشجار، والقارب الأخير المتجه إلى السفينة بين الساعة الواحدة والثانية صباحًا.»

سأله أحدهم: «أي سفينة؟»

رد سيرل في تكاسل: «أي سفينة. لم أكن أعرف أن بريطانيا الخائنة تملك هذا السحر أيضًا.»

قالت لافينيا: «سحر! نحن أصل السحر.»

وضحكوا قليلًا وسادت حالة من الود بين الجميع.

ولم يُعكِّر شيء هذا الود حتى اللحظة التي انطلق فيها والتر وسيرل معًا عبر الطبيعة الإنجليزية الخلابة في ساعة متأخِّرة من ليلة أحد أيام الجمعة. كان والتر قد قدَّم برنامجه الإذاعي المعتاد، وأتى إلى المنزل ليتناول العشاء (الذي دائمًا ما يتناولونه مُتأخرًا عن موعده المعتاد مدة ساعة ونصف في يوم تقديمه «للبرنامج الإذاعي»)، وشربوا جميعًا نخب نجاح كتاب «زوارق كاوي في نهر راشمير». ثم أقلتهما ليز بالسيارة في ذلك المساء الربيعي الجميل عبر وادي راشمير، حيث نقطة انطلاقهما التي تبعد مسافة عشرين ميلًا. كان من المزمع أن يقضوا ليلتهما في جريمز هاوس؛ وهو كهف يطلُّ على المروج المرتفعة التي ينبع منها النهر. قال والتر إنَّ من الملائم والمناسب أن يبدآ قصتهما في أجواء إنجلترا ما قبل التاريخ، لكن سيرل شك إن كان من المرجح أن تكون التنسيقات المحلية أكثر بدائية من بعض التنسيقات التي عاينها بالفعل. فقد قال إن جزءًا كبيرًا من إنجلترا لا يبدو وكأنه ينأى كثيرًا عن مظاهر البدائية.

غير أن سيرل تحمس للغاية لفكرة النوم في الكهف. ففي صغره، نام سيرل على أرضية شاحنة، وفي الصحراء الجرداء الواسعة، وفي المرحاض، وعلى طاولة بلياردو، وفي أرجوحة شبكية، وفي داخل كابينة لعبة العجلة العملاقة في مهرجان، لكنه حتى الآن لم يُجرِّب النوم في كهف. لذا تحمس للغاية للنوم في الكهف.

أخذتهما ليز إلى حيث انتهى الطريق، وسارت معهما على طول المسار العشبي الذي يبلغ مائة ياردة لتتفحص ملجأهما لهذه الليلة. كان ثلاثتهم مبتهجين للغاية، بطونهم

ملأى بطعام شهي وشراب طيب، وثملين قليلًا بفعل سحر الليل. ثم تركا طعامهما وكيسا نومهما، ورافقا ليز في مسيرها عائدة إلى السيارة. وحين توقفوا عن الكلام قليلًا ملأ السكون آذانهم، حتى إنهم حافظوا على صوت وقع أقدامهم ليصبح هناك صوت يسمعونه.

قالت ليز كاسرةً الصمت: «أتمنَّى لو أنني لن أعود إلى المنزل لأنام تحت سقفه. إنها ليلة من أجل الاستمتاع بالبدائية والبساطة.»

لكنها قطعت المسار المليء بالحُفَر حتى وصلت إلى الطريق، فصنعت الكشافات الأمامية لسيارتها بقعًا بلون زمردي على العُشب القاتم، وتركتهما إلى الصمت والبدائية.

بعد ذلك أصبح المُستكشفان مجرد أصوات في سماعة الهاتف.

ففي كل مساء كانا يتَّصلان بمنزل تريمنجز من إحدى الحانات أو أكشاك الهاتف ليرويا ما يحرزانه من تقدم. فقد نجحا في قطع المسافة حتى أوتلي سيرًا ووجدا زورقيهما في انتظارهما. فأخذاهما إلى النهر وكانا مسرورَين بهما. ومن ثمَّ امتلأت مفكرة والتر الأولى بالفعل، وكان سيرل شاعريًّا في وصفه لجمال إنجلترا هذه في أولى مظاهر تفتُّحه. وقد اتصل خصيصي من قرية كابل ليتحدَّث إلى لافينيا ويخبرها أنها كانت محقة بشأن السحر؛ إذ إن إنجلترا تحوز بالفعل النسخة الأصلية منه.

قالت لافينيا بنبرة يشوبها الشك والارتياح حين أغلقت الهاتف: «يبدو أنهما في غاية السعادة.» كانت تتوق إلى الذهاب لرؤيتهما، لكن كان الاتفاق أن يكونا كغريبين في بلاد غريبة، وأن يُبحِرا في النهر عبر سالكوت سانت ماري وكأنهما لم يرياها من قبل.

قال والتر: «ستُفسدون انطباعي لو ظهر أحد من منزل تريمنجز في هذه الرحلة. لا بدَّ لي أن أراه وكأنني لم أره من قبل؛ أقصد الريف؛ ينبغي أن أراه وكأنه جديد عليَّ.»

وهكذا أخذ من في منزل تريمنجز ينتظرون كل ليلة من أجل تقريرهما الذي يُقدمانه عبر الهاتف؛ وهم يتندرون بعض الشيء على هذه الهوة الخيالية.

ثم وفي مساء يوم الأربعاء، أي بعد خمسة أيام من انطلاقهما في رحلتهما، دلفا إلى حانة سوان وحياهما الجميع باعتبارهما آل ستانلي من راشمير ودُعيا لتناول المشروبات على حساب العديد منهم. توقفا في بيتس هاتش، كما قالا، حيث ناما هناك؛ لكنهما لم يتمكَّنا من مقاومة السير عبر الحقول إلى سالكوت. كانت المسافة من بيتس هاتش وحتى سالكوت تبلغ ميلين، إذا ما قطعاها عبر النهر، لكن وبفضل انحناء نهر راشمير كانت المسافة بينهما إذا ما قطعاها عبر الحقول ميلًا واحدًا. لم يكن هناك أي نزل في بيتس هاتش؛ لذا سارا على طريق الحقول نحو سالكوت وسوان التي تُعتبَر ملاذًا مألوفًا لهما.

كان الحديث عامًّا في البداية حيث يسأل كل وافد جديد عن كيفية سير الأمور معهما. لكن سرعان ما أخذ والتر جعته واتجه إلى طاولته المفضلة عند الزاوية، وبعد ذلك بوقتٍ قصير تبعه سيرل. ومنذ تلك اللحظة ولعدة مرات كان واحد أو أكثر من المتسكعين عند المشرب يتجه نحوهما لينخرط معهما مرة أخرى في محادثة، ليتوقف بعدها ويغير رأيه؛ إذ يجد أن هناك شيئًا غريبًا في سلوك وأسلوب كلا الرجلين تجاه الآخر. لم يكونا يتشاجران؛ كان الأمر فقط أن هناك شيئًا شخصيًّا وطارئًا في حديثهما جعل الآخرين يحجمون — بغير وعي منهم — عن الانضمام إليهما.

وبعدئذ، وعلى نحو مفاجئ تمامًا، غادر والتر المكان.

غادر والتر من دون جلبة ومن دون أن يُلقيَ تحية المساء. ولم ينبههم إلى خروجه إلا ضربة الباب العنيفة. كانت ضربة الباب بليغة، وتنمُّ عن الغضب والحسم؛ كان خروجه حادًّا للغاية.

أخذوا ينظرون جميعًا في حيرة بين الباب والجعة التي لم يكمل تناولها في المكان الشاغر الذي كان والتر يجلس فيه، وقرروا أن والتر سيعود رغم الغضب الذي يفوح من صوت الباب.

كان سيرل جالسًا في ارتياح مُسترخيًا قبالة الجدار، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة؛ فاتجه بيل مادوكس نحوه وانضم إليه، شجعه على ذلك رغبته في التخفيف من حدة ذلك التوتُّر السرِّي الذي غطى الزاوية وكأنه سحابة في الأفق. وتجاذبا أطراف الحديث عن المحركات الخارجية وتجادلا بشأن أسلوب الألواح المتداخلة في مقابل أسلوب تراصِّ الحواف بين الألواح في بناء السفن، حتى فرغَتْ أكوابُهما. وبينما كان مادوكس يهم بالذهاب لإعادة ملْء كوبَيهما لاحظ السائل الساكن في كوب والتر وقال: «من الأفضل أن أُحضر كوبًا آخر للسيد ويتمور؛ فقد أصبح هذا الشراب غير مُستساغ.»

فقال سيرل: «أوه، لقد ذهب والتر ليخلد للفراش.»

شرع مادوكس يقول: «لكن الساعة لم تتجاوز ...» ثم أدرك أنه سيفتقِر بذلك إلى اللباقة.

«أجل، أعرف؛ لكنه رأى أن ذلك آمن أكثر.»

«هل شعر بتعب؟»

قال سيرل بنبرة ودودة: «كلا، لكنه لو بقيَ لأكثر من هذا لقرر أن يخنقني. وفي المدرسة التي كان والتر يذهب إليها، لديهم وجهة نظر سيئة عن الخنق. إنه يضع الإغراء الذي يحفزه لذلك خلف ظهره. حرفيًّا.»

فقال بيل الذي شعر أنه يعرف هذا الأمريكي الشاب أكثر من معرفته بوالتر ويتمور: «هل كنتَ تُزعج السيد والتر المسكين؟»

أجاب سيرل في مرح: «إلى حد شنيع» وبادل بيل ابتسامة بابتسامة.

أصدر مادوكس صوتًا بلسانه وذهب ليحضر الجعة.

بعد ذلك، أصبحت المحادثة عامة. ومكث سيرل حتى وقت إغلاق الحانة، وودع ريف، مالك الحانة، بينما كان يُغلق الباب خلفهم، وسار عبر شارع القرية مع البقية. وعند الزقاق الضيق الذي يؤدي من بين المنازل إلى الحقول، استدار سيرل ليسلكه بينما يرشقونه بتعازيهم الساخرة لعدم وجود سرير دافئ مريح له، وبدوره رشقهم سيرل باتهامات الشيخوخة وافتقاد الهواء النَّقي.

ثم صاح بهم، بعد أن قطع مسافة كبيرة من الزقاق: «طابت ليلتكم!»

وكانت هذه هي آخر مرة يرى فيها أحد من سالكوت سانت ماري وجه ليزلي سيرل.

وبعد ذلك بثمانٍ وأربعين ساعة، عاد آلان جرانت إلى الظهور في منزل تريمنجز.

الفصل الثامن

كان جرانت قد عاد لتوِّه من هامبشاير، حيث انتهت إحدى القضايا بصورة غير سارة بالانتحار، وكان ذهنه لا يزال يُراجع الأمر ويتفكر في الكيفية التي كان يُمكن له بها أن يتصرف بصورة مختلفة بما كان من شأنه أن يؤدي إلى نهاية مختلفة؛ لذا استمع بانتباه ناقص إلى ما يقوله له رئيسه حتى استرعى اسمٌ مألوفٌ له كاملَ انتباهه.

قال جرانت: «سالكوت سانت ماري!»

قال برايس وقد توقف عن سرده: «لماذا؟ أتعرف ذلك المكان؟»

«لم أذهب إلى هناك من قبل، لكني أعرف المكان، بالطبع.»

«ولماذا بالطبع؟»

«المكان هناك أشبه بملتقى للفنَّانين. كانت هناك حالة من حالات هجرة النخبة المثقفة إلى هناك. فهناك يعيش سيلاس ويكلي، ومارتا هالارد، ولافينيا فيتش. ويملك توليس منزلًا هناك أيضًا.» ثم سأل في ترقب: «هل الشخص المفقود هو توبي توليس، على أي حال؟»

«كلا، لسوء الحظ. إنه شابٌّ يُدعى سيرل. ليزلي سيرل. يبدو أنه شاب أمريكي.»

عاد جرانت بذاكرته للحظة إلى مدخل باب منزل كورماك روس المُزدحِم، واستمع إلى صوت يقول: «لقد نسيت البوق الخاص بي». إذن فقد اختفى الشاب الوسيم.

«يقولون في أورفوردشير إنهم يريدون إسناد هذا الأمر لنا ليس لأنهم يظنُّون أن القضية غير قابلة للحل، وإنما لأن القضية تتطلب مهارة وعناية خاصة. يظنون أن سيكون من الأسهل علينا أكثر منهم أن نباشر التحقيقات بين الشخصيات المهمة المحلية، وإن كان هناك توقيف لأحدِهم فإنهم يُفضِّلون أن نقوم به نحن.»

«توقيف؟ هل يشيرون إلى أنها جريمة قتل؟»

«لديهم ميل قوي تجاه هذا الافتراض كما فهمت. لكن وكما قال لي المفتِّش المحلي، يبدو الأمر عبثيًّا للغاية حين يجهر أحد بذلك حتى إنهم يُحجمون حتى عن النطق بالاسم.»

«أي اسم؟»

«والتر ويتمور.»

أفرغ جرانت أنفاسه في صفير صامت قائلًا: «والتر ويتمور!» ثم أكمل: «لا أعجب من عدم رغبتهم في الجهر بذلك. والتر ويتمور! ما الذي من المُفترَض أن يكون قد فعله بسيرل؟»

«لا يعرفون. كل ما لديهم مجرَّد إشارة إلى جدال دار بينهما قبل اختفائه. يبدو أن والتر ويتمور وليزلي سيرل كانا يسافران عبر نهر راشمير في زوارق كانو، و...»

«زوارق كانو؟»

«أجل، كعمل جريء ومُثير من نوع ما. كان ويتمور سيكتُب كتابًا عن هذا وسيمدُّه سيرل بالرسوم والصور التوضيحية.»

«أهو فنَّان، إذن؟»

«كلا. إنه مُصوِّر. كانا يخيمان في العراء كل ليلة، وفي مساء يوم الأربعاء كانا يبيتان عند ضفة النهر على بُعدِ ميل واحد تقريبًا من سالكوت. وقد ذهبا إلى الحانة في سالكوت تلك الليلة ليحصلا على شراب. ثم غادر ويتمور مبكرًا، ويُزعَم أنه كان في حالة من الغضب. وظل سيرل حتى موعد الإغلاق وشوهد يسير عبر المسار المؤدِّي إلى النهر. وبعد ذلك لم يرَه أحد.»

«من الذي أبلغ عن الاختفاء؟»

«ويتمور في صباح اليوم التالي. حين استيقظ ووجد أن سيرل لم يبِت ليلته في حقيبة النوم.»

«ألم يرَ سيرل مُطلقًا مساء يوم الأربعاء بعد أن ترك الحانة؟»

«كلا، يقول إنه خلد إلى النوم، وعلى الرغم من أنه استيقظ أثناء الليل فقد كان على يقين أن سيرل عاد وكان نائمًا؛ إذ كان الظلام أحلك من أن يرى أي شيء. ولم يدرك أن سيرل لم يخلُد إلى فراشه إلا حين حلَّ الصباح.»

«أظن أن الافتراض أنه سقط في النهر.»

«أجل. تولت شرطة ويكهام الأمر وبحثوا في قاع النهار بحثًا عن أي جثث. لكنهم يقولون إن المجرى المائي بين كابل وسالكوت سانت ماري سيئ ومُوحل؛ لذا لم يتفاجَئوا كثيرًا حين لم يجدُوا أي جثث.»

قال جرانت بنَبرة جافة: «لا أعجب من عدم رغبتهم في التعامل مع هذه القضية هناك.»

«أجل. إنها مسألة حسَّاسة. ولا توجد إشارة حقيقية إلى أيِّ شيء إلا من كون الأمر حادثًا. ولكن هناك علامة استفهام كبيرة بخصوص هذا الأمر.»

قال جرانت: «لكن ... لكن والتر ويتمور! ثمة شيء عبثي مُتأصِّل في هذا الأمر. كيف يُمكن أن تكون هناك علاقة بين محب الدمى الصغيرة ذاك وجريمة قتل؟»

فبادره رئيسه: «لقد أمضيتَ في الشرطة ما يكفي من وقتٍ لتَعرف أن مُحبِّي الدُّمى الصغيرة أولئك هم من يرتكبون جرائم القتل.» ثم مضى يقول: «على أي حال، ستكون مهمتك أن تمحص في مكان تجمع أولئك الفنانين بغربال حتى لا يتبقى لك سوى شيء لا يمكن أن ينفذ منه. ومن الأفضل لك أن تأخذ معك سيارة. يقولون في ويكهام إن المكان يبعد أربعة أميال عن المحطة، مع وجود تغيير في الخطوط عند كروم على أي حال.»

«جيد جدًّا. أتمانع لو أخذت الرقيب ويليامز معي؟»

«بصفته سائق، أم ماذا؟»

فقال جرانت بنبرة ودودة: «كلا. فقط ليتعرف على تفاصيل القضية. وحين تستدعيني متى ما طرأ أمر عاجل — كما سيحدُث في أي لحظة — يُمكن لويليامز أن يستكملها.»

«أنت تختلق أكثر الأعذار إقناعًا من أجل أن تغفو في السيارة.»

تلقَّى جرانت إجابته تلك، بالصورة الصحيحة، باعتبارها استسلامًا من جانبه، وذهب ليستدعي ويليامز. كان جرانت يحبُّ ويليامز ويحبُّ العمل معه. كان ويليامز هو نقيضه ومُكمِّله. فويليامز ضخم الجثة وذو بشرة وردية وبطيء الحركة، ونادرًا ما كان يقرأ شيئًا اللهم إلا جريدة مسائية؛ لكنه يتمتَّع بصفات كلاب الصيد والتي تكون نفيسة أثناء الصيد. فلم يُظهر كلب صيد قطُّ من الصبر والإلحاح عند جحر فأر أكثر مما يظهره ويليامز حين تسليطه نحو طريدة. وقد قال جرانت له أكثر من مرة أثناء سنوات عملهما معًا: «أكره أن يُكلِّفَك أحد بأن تُراقب تحركاتي.»

على الجانب الآخر، وبالنسبة إلى ويليامز، كان جرانت يُمثِّل كل شيءٍ ينمُّ عن الذكاء والعفوية. فويليامز يكنُّ إعجابًا كبيرًا يشوبه الحماس تجاه جرانت، وكان يحسده بغير حقد؛ إذ لم يكن لدى ويليامز طموح، ولم يكن يمدُّ عينه إلى ما بيد غيره. كان ويليامز يقول: «ليس لديك أدنى فِكرة كم أنت محظوظ يا سيدي، في أنك لا تبدو كرجل شرطة. أما أنا، فحين أدخل إلى إحدى الحانات، وينظر الناس إليَّ نظرة واحدة فيقولون لأنفسهم: شُرطي!

لكن حين تدخل أنت إحدى الحانات، فإنهم ينظرون إليك ويقولون: من الجيش ويرتدي ملابس مدنية؛ ولا تراودهم أي أفكار أخرى بشأنك. وهذه ميزة كبيرة في مهنة كمهنتنا، يا سيدي.»

وقد أوضح جرانت له من قبل: «لكنك تتمتَّع بمزايا تنقصني يا ويليامز.»

فقال ويليامز، في غير اقتناع: «مثل ماذا، على سبيل المثال؟»

«كل ما عليك هو أن تقول: «اغرب عن وجهي!» وحينها يختفي الناس من أمامك وحسب. أما حين أقولها أنا لأيِّ أحد، فمن المرجَّح كثيرًا أن يقولوا: «لمن تظنُّ أنك تتحدث؟»»

فقال ويليامز: «لتحلَّ عليك محبة الله، يا سيدي. ليس عليك حتى أن تقول «اغرب عن وجهي!» بل كل ما عليك أن تنظر إليهم، حينها ستجدهم قد بدءوا يتذكَّرون مواعيدهم.»

ضحك جرانت وقال: «لا بدَّ أن أُجرِّب ذلك!» لكن جرانت كان يستمتع بالتمجيد اللطيف الذي يحصل عليه من ويليامز؛ والأكثر من ذلك أنه يستمتع بمصداقيته ومثابرته.

سأله جرانت: «أتستمع إلى برنامج والتر ويتمور يا ويليامز؟» وكان ويليامز في تلك الأثناء يقود السيارة عبر الطريق المستقيم الذي وطأته أقدام الجحافل قبل ألفَي عام.

«لا يسعني القول إنَّني أفعل يا سيدي. فأنا لست من محبي الريف، كثيرًا. إنها لمثلبة أن يولد المرء فيه ويترعرع.»

«مثلبة؟»

«أجل. أنت تعرف كم أن هذا أمر مُملٌّ بالفعل.»

«أقرب إلى سيلاس ويكلي منه إلى والتر ويتمور.»

«لا أعرف بأمر ذلك الرجل المدعو سيلاس، لكن الريف بالطبع ليس كمثلِ ما يصوره والتر.» ثم فكر في الأمر قليلًا. وقال: «إنه يميل إلى البهرجة. فكر في رحلة نهر راشمير تلك.»

«أفكِّر فيها بالفعل.»

«أقصد، لم يكن هناك شيء يمنعه من البقاء في المنزل مع خالته والقيام برحلة وادي النهر كأيِّ شخص طبيعي، باستخدام سيارة. فنهر راشمير ليس بالغ الطول إلى هذا الحد. لكن كلا، كان عليه أن يتكلف في الأمر باستخدام زوارق الكانو وما إلى ذلك.»

ذكر خالة والتر استحث جرانت على طرح سؤال آخر.

«أظن أنك لا تقرأ للافينيا فيتش أليس كذلك؟»

«أجل، لكن نورا تقرأ لها.»

كانت نورا هي زوجة ويليامز، وأم أنجيلا وليونارد.

«أتحبُّ نورا كتابات لافينيا فيتش؟»

«إنها تعشقُها. تقول إن هناك ثلاثة أشياء تجعلها تشعر بالدفء والراحة مقدمًا. زجاجة مياه ساخنة، وربع باوند من الشوكولاتة، وكتاب جديد للافينيا فيتش.»

قال جرانت: «لو لم يكن للآنسة فيتش وجود، لأصبح من الضروري أن نبتكرها، على ما يبدو.»

فقال ويليامز: «لا بدَّ أنها تجمع ثروة طائلة. هل ويتمور هو وريثها؟»

«من المفترض أنه كذلك، على أي حال. لكن لافينيا ليست هي التي اختفت.»

«أجل. ما الضغينة التي يُمكن لويتمور أن يحملها ضد ذلك الرجل سيرل؟»

«ربما يعترض على آلهة الغابات من حيث المبدأ.»

«يعترض على ماذا، يا سيدي؟»

«لقد قابلت سيرل ذات مرة.»

«حقًّا!»

«تحدَّثت إليه بشكل عابر خلال إحدى الحفلات قبل شهر مضى.»

«كيف كان يبدو، يا سيدي؟»

«شابٌّ في غاية الوسامة بحق.»

فقال ويليامز في تدبر: «أوه.»

فقال جرانت: «كلا.»

«كلا ماذا؟»

فقال جرانت على نحو غير ذي صلة بالسؤال: «إنه أمريكي.» ثم، حين تذكَّر ذلك الحفل، أضاف: «بدا عليه أنه يُبدي اهتمامًا بليز جاروبي، تذكرت الآن.»

«ومن هي ليز جاروبي؟»

«خطيبة والتر ويتمور.»

«بدا عليه ذلك حقًّا؟ أها، حسنًا!»

«لكن لا تُسارع بافتراض أي استنتاج حتى نضع أيدينا على بعض الأدلة. لا يُمكن أن أصدق أبدًا أن والتر ويتمور لديه الشجاعة الكافية كي يضرب أحدهم على رأسه ويلقيه في النهر.»

فقال ويليامز وهو يُفكِّر في الأمر: «أجل. حين تفكر في الأمر، تجد أنه يفتقد الجرأة.» الأمر الذي وضع جرانت في حالة ذهنية جيِّدة لبقية الرحلة.

ومن ثم استقبلهما المفتِّش المحلِّي رودجرز في ويكهام؛ وهو رجل نحيف قلوق يبدو عليه وكأنه لم يحصُل على قسط جيد من النوم. لكنه كان مُنتبهًا وملمًّا بالكثير من المعلومات ويتمتَّع بالتبصُّر والتروي. حتى إنه أجرى حجزًا لحجرتَين في فندق سوان في سالكوت وحجرتَين في فندق وايت هارت في ويكهام؛ وذلك حتى يتسنَّى لجرانت الاختيار. وقد أقلهما لتناول الغداء في وايت هارت حيث أكَّد جرانت حجز الحجرتَين، مما أدَّى إلى إلغاء الحجز في سالكوت. ولم يكن هناك أي إشارة بعد إلى أنَّ إدارة سكوتلانديارد تهتمُّ بأمر اختفاء ليزلي سيرل؛ ولم يكن من المُمكن إجراء التحقيقات من فندق سوان دون إحداث ضجة في سالكوت.

قال جرانت: «ولكني أرغب في مقابلة ويتمور. أظنُّ أنه عاد إلى ... ماذا تُطلقون عليه: منزل الآنسة فيتش.»

«تريمنجز. لكنه في المدينة اليوم يُقدِّم برنامجه الإذاعي.»

سأله جرانت، وهو مُندهِش بعض الشيء: «في لندن؟»

«لقد جرى ترتيب الأمر على هذا النحو قبل أن ينطلقا في تلك الرحلة. وبحسب عقد السيد ويتمور فإن له إجازة شهر في أغسطس؛ إذ إنَّ هذا هو موسم الإجازة في مجال البث الإذاعي؛ لذا لم يكن من الوارد، على ما يبدو، عدم بث حلقة هذا الأسبوع فقط لأنه يقطع نهر راشمير على متن زورق كانو. كان كل من والتر وسيرل قد رتَّبا لأن يصِلا إلى ويكهام اليوم وأن يقضيا الليلة هناك. فقد حجزا حجرتين في فندق ذا آنجل. وهو مكان عتيق الطراز في ويكهام. ويبدو جذابًا للغاية في الصور. ثم وقع هذا الأمر. ونظرًا لأنه ليس هناك شيء يستطيع السيد ويتمور القيام به هنا، ذهب إلى المدينة ليقدم برنامجه الذي مدَّته نصف ساعة، تمامًا كما كان سيفعل لو أنَّهما قد وصلا إلى ويكهام.»

«فهمت. وهل سيعود الليلة؟»

«إن لم يختفِ بلا أثر.»

«على ذكر مسألة الاختفاء: هل أقرَّ ويتمور بوجود خلاف بينهما؟»

«لم أُواجهه بالأمر. هذا هو ...» ثم صمت المفتش.

فقال جرانت: «هذا هو سبب وجودي هنا» مُنهيًا جملته بدلًا منه.

«هكذا تقريبًا، يا سيدي.»

«من أين أتت قصة «الخلاف»؟»

«من حانة فندق سوان. كل من كان هناك مساء يوم الأربعاء خالجه انطباع بأن هناك نوع من التوتر بينهما.»

«ألم تقع مشاجرة صريحة؟»

«كلا، لم يحدث شيء من هذا القبيل. ولو كان قد حدث، لكنت قد اتهمته بذلك. كل ما حدث أن السيد ويتمور غادر مبكرًا من دون أن يُلقيَ التحية، وقال سيرل إنه كان غاضبًا من أمر ما.»

«سيرل قال هذا! لمن؟»

«إلى صاحب المرأب المحلِّي. رجل يُدعى مادوكس. بيل مادوكس.»

«وهل تحدَّثت إلى مادوكس؟»

«لقد تحدثت إليهم جميعًا. فقد ذهبت إلى سوان ليلة أمس. في حين أمضينا اليوم نجرف النهر تحسبًا أن يكون قد سقط فيه، وأجرينا تحريات في الحي بأكمله في حال ما إذا كان قد فقد ذاكرته وكان يهيم على وجهه هناك. غير أننا لم نجد أي جثة، ولم يرَه أحد ولم يتعرَّف أحد على أوصافه. لذا أنهيت التحرِّيات في سوان، والتقيت بمعظم من كانوا هناك مساء يوم الأربعاء. إنَّ حانة فندق سوان هي الحانة الوحيدة في الأرجاء، وهو نزل صغير لطيف للغاية له سمعة طيبة يديره رجل يُدعى جوي؛ وهو رقيب سابق بالبحرية؛ إنه مكان التقاء جميع أهل القرية. لم يكن أحد منهم حريصًا على اتهام السيد ويتمور …»

«إنه مشهور، أليس كذلك؟»

«حسنًا، إنه مشهور للغاية. وعلى الأرجح أنه يتألق عند عقد المقارنات. فثمة مجموعة غريبة تعيش هنا، لا أعرف إن كنت تعرف.»

«أجل. سمعت بذلك.»

«ومن ثم لم يرغبُوا في وضع والتر ويتمور في مشكلة، لكن كان عليهم أن يُفسِّروا عدم عودة الصديقين معًا إلى مخيمهما. وبمجرَّد أن تخلَّوا عن حذرهم وتحدثوا كانوا مجمعين بشأن حدوث مشكلة من نوع ما بينهما.»

«هل سرد بيل مادوكس قصته متطوعًا؟»

«كلا، من فعل ذلك هو الجزار. فقد أخبرهم مادوكس بذلك وهم في طريقهم إلى منازلهم يوم الأربعاء. بعد أن شاهدوا سيرل وهو يسير على ذلك الطريق وحيدًا. لكن مادوكس أكَّد الأمر.»

«حسنًا، سأذهب لألتقي بويتمور حين يعود الليلة، وأطلب منه سرد روايته لما حدث. في تلك الأثناء، سنذهب ونُعاين المكان الذي خيَّما فيه مساء يوم الأربعاء.»

الفصل التاسع

قال جرانت وهم يستقلون السيارة في طريقهم إلى خارج ويكهام: «لا أريد أن أظهر في سالكوت الآن. هل هناك طريق آخر يؤدي إلى ضفة النهر؟»

«لا يوجد أيُّ طريق آخر إلى ضفة النهر، في واقع الأمر. لكن ثمة مسارًا بين الحقول طوله ميل واحد تقريبًا يمتدُّ من سالكوت إلى المكان الذي خيَّما فيه. لكن بإمكاننا الوصول إلى هناك بالسهولة نفسها تقريبًا من على الطريق الذي يربط بين ويكهام وكروم، عبر الحقول. أو بإمكاننا الانعطاف نحو طريق ضيق نسبيًّا يُؤدِّي إلى بيتس هاتش، ثم نسير عبر ضفة النهر من هناك. زورقاهما راسيان على مسافة ربع ميلٍ بعد بيتس هاتش.»

«على كل حال، أفضل السير عبر الحقول من الطريق الرئيسي. سيكون من المثير أن نرى كم يطول المسير فيه. لأيِّ نوعية من القرى تنتمي قرية بيتس هاتش؟»

«إنها ليست بقرية على الإطلاق. إنما هي طاحونة مُتهدِّمة وبضعة أكواخ كان العمال يأوون إليها هناك. وهذا هو سبب ذهاب ويتمور وسيرل إلى سالكوت سيرًا على الأقدام للحصول على شَرابهم المسائي هناك.»

«فهمت.»

أخرج رودجرز البارع خريطة صغيرة من صندوق سيارته، وراح يتدارسُها. بدا إلى عين جرانت التي اعتادت المدينة أن الحقل الذي توقَّفوا أمامه يشبه كل حقل مرُّوا به منذ أن غادروا ويكهام، لكن المفتش قال: «ينبغي أن تكون قبالتنا هنا، على ما أعتقد. أجل؛ هذا هو مكان تخييمِهما؛ وهذا هو مكاننا نحن.»

وعرض الخريطة على جرانت. كان الطريق يمتدُّ شمالًا وجنوبًا من ويكهام وحتى كروم في الجنوب. وفي غربه يمتدُّ نهر راشمير، مُستتِرًا عن الأعين في واديه، في الاتجاه الشمالي الشرقي ليلتقيَ بالطريق عند ويكهام. وعند النقطة التي يقِفون فوقها الآن، كان النهر

ينحني على نفسه في حلقة واسعة على أرض الوادي المُنبسِطة. وعند النقطة التي يعود فيها إلى اعتداله، كان ويتمور وسيرل قد حدَّدا مكان مخيمهما. وفي الجانب الأقصى من الوادي، حيث يعود مُستوى النهر ليتساوى مع مستواهما، تقع سالكوت سانت ماري. كان كل من مخيمهما وقرية سالكوت يقعان على الضفة اليُمنى للنهر، بحيث تفصل بين مخيمهما والقرية أرض طينية مساحتها أقل من ميل.

لدى وصول الرجال الثلاثة إلى الحقل الثالث من عند الطريق، أصبح الريف مساحة مفتوحة تحت أنظارهم؛ بحيث أصبح الجزء ذو الصلة من نهر راشمير واضحًا أمامهم كما كان مبينًا على خريطة رودجرز: أرضية خضراء مُنبسطة يدور عبرها نهر راشمير وكأنه وشاح بلون أخضر قاتم، ومجموعة مكتظَّة من الأسطح والحدائق على الجانب الأقصى؛ حيث تقع سالكوت سانت ماري وسط أشجارها؛ كما توجد كتلة وحيدة تقف عند أعلى النهر من الخلف جهة الجنوب، وكانت تلك بيتس هاتش.

سأل جرانت: «أين يقع خط السكك الحديدية من هنا؟»

«ليس هناك خط سكك حديدية أقرب إلى هنا من ذلك الموجود في ويكهام. بمعنى آخر، لا تُوجد محطة للقطارات. يمرُّ خط السكك الحديدية على الجانب الآخر من الطريق الرابط بين ويكهام وكروم؛ وليس في الوادي على الإطلاق.»

«هل يوجد الكثير من الحافلات على طريق ويكهام كروم؟»

«أوه، أجل. لكنك لا تبغي بذلك الإشارة إلى أنَّ الشاب قد فرَّ من هنا، أليس كذلك؟»

«أنا أبقي هذه الاحتمالية نصبَ عيني. فنحن لا نعرف عنه شيئًا، في نهاية المطاف. وأعترف أن هناك احتماليات أكثر ترجيحًا.»

تقدمهما رودجرز عبر المنحدر الطويل وصولًا إلى ضفة النهر. وحيث انحرف النهر في الاتجاه الجنوبي الغربي، كانت تُوجد شجرتان ضخمتان تقطعان خط أشجار الصفصاف المقلمة الرءوس: شجرة صفصاف طويلة وشجرة دردار. وتحت شجرة الدردار رسا زورقا كانو. وكانت آثار الوطء على العشب لا تزال واضحة.

قال رودجرز: «هذا هو المكان. فرد السيد ويتمور حقيبة نومِه تحت شجرة الصفصاف الكبيرة تلك، ووضع سيرل حقيبة نومه بالقرب من الجانب الآخر من شجرة الدردار حيث يُوجد تجويف بين جذورها يبدو كمأوًى طبيعي. لذا كان من الطبيعي ألا يعرف السيد ويتمور أنه غير موجود هناك.»

تحرك جرانت إلى حيث توجد حقيبة نوم سيرل، وراح يتفحَّص الماء.

«كم تبلغ شدة التيار هنا؟ إن كان قد تعثر في تلك الجذور في الظلام وسقط في الماء برأسه، فماذا سيحدث؟»

«إن تيار نهر راشمير شنيع. أقرَّ بذلك. كما تكثر به الحفر وتيارات السحب من تحت الماء. وقاعُه كما يدعوه قائد الشرطة «طيني سحيق». لكن سيرل يُجيد السباحة. أو هكذا يقول والتر ويتمور.»

«أكان متَّزنًا؟»

«في كامل اتزانه.»

«إن كان قد نزل إلى الماء وهو غير واعٍ إذن، أين تتوقَّع أن نجد جثته؟»

«بين هنا وسالكوت. يتوقَّف ذلك على كمية المطر. لم نحظَ إلا بالقليل من المطر مؤخرًا حتى إنك ستجد مستوى الماء في النهر مُنخفِضًا، لكن وقعت عاصفة مطيرة في تانستول يوم الثلاثاء على نحو مفاجئ، فأتى تيار نهر راشمير شديدًا قويًّا.»

«فهمت. وماذا حدث لأمتعة التخييم؟»

«أرسل والتر ويتمور من أخذها إلى تريمنجز.»

«أظنُّ أن مُتعلِّقات سيرل الطبيعية لا تزال في تريمنجز.»

«أتوقع ذلك.»

«ربما من الأفضل أن أُلقيَ نظرة عليها الليلة. إن كان هناك شيء يُثير الاهتمام بين أشيائه فقد اختفى الآن، لكنها قد تُوحي بشيء. أتعرف إن كان سيرل على علاقة جيدة مع سكان سالكوت الآخرين؟»

«في الواقع، سمعت أن مشكلة قد حدثت قبل أسبوعَين. قذفه رجل يعمل راقصًا بكوب جعة.»

سأل جرانت: «لماذا؟» وقد علم من هو الرجل الذي يعمل راقصًا من دون صعوبة. فقد كان تسجيل مارتا لتاريخ سالكوت موثوقًا.

«لم يكن يروقه الانتباه الذي يوليه توبي توليس إلى سيرل، هكذا يقولون.»

«وهل كان يروق سيرل؟»

قال رودجرز: «كلا، إن كانت كل التقارير صحيحة»، وقد استرخى وجهه متبدلًا من القلق إلى التندر لحظة واحدة فقط.

«إذن لم يكن يروق توليس كثيرًا أيضًا؟»

«ربما لم يكن يروقه.»

«أظن أنك لم تحظَ بالوقت الكافي لتُحقِّق في حُجَج الغياب.»

«كلا. لم نعرف أن هذه القضية قد تصبح أكثر من مجرد قضية اختفاء بسيطة إلا في ساعة مبكرة من المساء. حتى ذلك الحين كان الأمر مجرَّد عملية بحث وتفتيش بسيطة. وحين عرفنا بما تتكشف عنه الأمور أردنا مساعدة خارجية وأرسلنا إليكم.»

«أنا مسرور أنكم أرسلتم إلينا سريعًا. من المفيد كثيرًا أن نكون موجودين حين ترفع الأشرطة عن مسرح الواقعة في اللحظات الأولى. والآن، لا أظنُّ أن هناك شيئًا آخر بإمكاننا القيام به هنا. من الأفضل أن نعود إلى ويكهام، وسأتولى أنا زمام الأمور.»

أوصلهم رودجرز إلى فندق وايت هارت، وتركهم مؤكدًا لهم أنه سيُقدِّم لهم أي مساعدة يحتاجونها ما دامت في حدود سلطته.

قال جرانت بينما يصعدان السلم ليستعرضا غرفتيهما في البناية: «إنه رجل بارع. ينبغي أن يعمل في إدارة سكوتلانديارد»، وكانت حوائط الغرف مزينة ببُسُط من الصوف مزينة بآيات من الكتاب المقدس وورق حائط به نقوش من الزهور.

وقال ويليامز وهو يختار أضيق الغرفتين في حزم: «إنه لأمر غريب، أليس كذلك؟ أن يختفي شخص في المروج الإنجليزية كما لو كان يُمارس خدعة الحبل. ماذا حدث له في اعتقادك، يا سيدي؟»

«لا أعرف شيئًا بشأن «خدعة الحبل»، لكني أشمُّ في الأمر رائحة خدعة قوية. الآن ترى الشيء، وفي اللحظة نفسها يختفي ولا تراه. خدعة تشتيت الانتباه التي كان يمارسها السحرة القدماء. هل رأيت من قبل خدعة قطعِ جسد امرأة بمنشار إلى نصفين يا ويليامز؟»

«رأيتها كثيرًا.»

«هناك رائحة قوية لخدعة كهذه. أم أنك لا تشمُّ هذه الرائحة؟»

«لا أتمتَّع بأنفٍ مثل أنفك، يا سيدي. كل ما أرى هو أمر غريب. ليلة ربيعية في إنجلترا، وشاب أمريكي يختفي في نطاق ميل واحد بين القرية والنهر. أتظن أنه قد فر حقًّا يا سيدي؟»

«لا يسعني التفكير في سبب كافٍ يدفعُه لذلك، لكن ربما كان لدى ويتمور تفسير لذلك.»

فقال ويليامز بنبرة جافة: «أتوقَّع أنه سيهتم للغاية بفعل ذلك.»

لكن كان من الغريب للغاية أن والتر ويتمور لم يُبدِ أي اهتمام بتقديم أي فرضية من هذا القبيل. بل على النقيض، رفض تلك الفرضية. قال إن من العبث الواضح الإشارة

إلى أن سيرل غادر من تلقاء نفسه. فبعيدًا عن حقيقة أنه كان في غاية السعادة، فقد كانت لديه صفقة مربحة للغاية يتطلع إليها. لقد كان سيرل مُتحمسًا أيما حماس إزاء الكتاب الذي يعملان عليه معًا، وكان من المُستبعَد الإشارة إلى أنه قد غادر بهذه البساطة.

ذهب جرانت إلى منزل تريمنجز بعد موعد العشاء، آخذًا في اعتباره ببراعة وذكاء حقيقة أن العشاء لا بدَّ أنه يقدم في وقت متأخر كثيرًا يوم البث الإذاعي. وكان قد أرسل رسالة يسأل فيها إن كان بإمكان السيد والتر ويتمور أن يقابل آلان جرانت، ولم يذكر سبب الزيارة إلى أن قابل والتر وجهًا لوجه.

كانت أولى الأفكار التي واتته حين رأى والتر على الطبيعة هي كم أنه بدا أكبر سنًّا بكثير مما كان يتوقع؛ ثم تساءل ما إن كان والتر يبدو أكبر سنًّا بكثير مما كان يبدو عليه يوم الأربعاء. فكر جرانت في نفسه أن والتر يبدو مشوشًا؛ هائمًا. حدث له شيء لا ينتمي للعالم الذي كان يعرفه ويُدركه.

لكنه تلقَّى إفصاح جرانت عن هُويته في هدوء.

إذ قال، وهو يقدم له علبة السجائر: «كنت شبه مترقب مجيئك. ليس أنت شخصيًّا، بالطبع. إنما مُمثِّل عمَّا أصبح يُعرف بالجهات العليا.»

ومن ثم سأله جرانت عن رحلتِهما عبر نهر راشمير، حتى يحثه على التحدث؛ فإنك إن حملت رجلًا على الحديث مطولًا بما يكفي، فإنه يفقد سلوكه الدفاعي. كان ويتمور يُدخن الكثير من السجائر إلا أنه يتحدَّث بحرية إلى حدٍّ كبير. وقبل أن يصل بالفعل في حديثه إلى زيارتهما لحانة سوان مساءَ يوم الأربعاء، انحرف به جرانت في الحديث. فقد كان من المُبكِّر جدًّا أن يسأله عن تلك الليلة.

قال جرانت: «أنت حقًّا لا تعرف الكثير عن سيرل، على ما أظن. هل سبق أن سمعت به قبل أن يظهر في حفل روس؟»

«كلا، لم أسمع به من قبل. لكن هذا ليس بأمرٍ غريب. فالمصورون الفوتوغرافيون كُثُر. وهم منتشرون وشائعون كشيوع الصحفيين تقريبًا. لم يكن ثمة سبب يدعو لأن أكون قد سمعت به من قبل.»

«ليس لديك سبب يجعلك تعتقد أن هويته قد تكون مختلفة عما صرح به، أليس كذلك؟»

«أجل، بكل تأكيد. ربما لم أسمع به من قبل قط، لكن لا شك أن الآنسة إيستون-ديكسون سمعت به من قبل.»

«الآنسة إيستون-ديكسون؟»

«إنها إحدى الكاتبات المحليات هنا. تكتب القصص الخيالية والحكايات الخرافية وتُدمن مشاهدة الأفلام. ولا يقتصر الأمر على السمع، بل تملك له صورة.»

فقال جرانت، وقد بدا مُندهشًا ومسرورًا: «صورة؟»

«في إحدى مجلات الأفلام تلك. لم أطلع عليها بنفسي. لكنها تحدثت عنها ذات ليلة حين أتت على العشاء.»

«والتقت بسيرل حين أتت إلى العشاء؟ وتعرفت عليه؟»

«هذا صحيح. وحدث بينهما تآلف رائع. كان سيرل قد التقط صورًا لحيواناتها التي تعمل في التمثيل، وكان لديها أيضًا نسخ من تلك الصور.»

«إذن ليس لديك أدنى شكٍّ في هُوية سيرل التي يصرح بها.»

«ألاحظ أنك تستخدم صيغة المضارع أيها المفتش. هذا يسرني.» لكنه بدا ساخرًا أكثر منه مسرورًا.

«هل لديك نظرية بشأن ما يُمكن أن يكون قد حدث، يا سيد ويتمور؟»

«بعيدًا عن العربات النارية الأسطورية ومقشَّات الساحرات، كلا. إنه لأمر مُحيِّر تمامًا.»

وجد جرانت نفسه يُفكِّر في أن والتر ويتمور، أيضًا، يميل إلى الظن بوجود حيلة في الأمر.

وأكمل والتر يقول: «في اعتقادي أن أكثر التفسيرات منطقية، هو أنه ضلَّ طريقه في الظُّلمة وسقط في النهر في بُقعة ما، حيث لا يُمكن لأحد أن يكون قد سمعه.»

فسأله جرانت بالنَّبرة نفسها التي استخدمها والتر في حديثه: «ولماذا لا تتَّفق مع هذه النظرية؟»

«حسنًا، أول الأسباب في الواقع، أن سيرل كان يملك عينين كعيون القطط. لقد خيمت بالخارج معه لأربع ليالٍ، وأعرف هذا جيدًا. كان مُذهلًا في القدرة على الرؤية في الظلام. وثانيًا أنه كان يتمتَّع بفراسة وإدراك رائع بمحيطه. وثالثًا أنه كان في كامل وعيه حين غادر حانة سوان؛ وذلك وفقًا لكل الإفادات. ورابعًا أن الطريق مستقيم من سالكوت وحتى ضفة النهر حيث كنا نُخيِّم، ومحاط بأسيجة من شجيرات قصيرة من بدايته وحتى نهايته. لا يُمكن للمرء أن يضلَّ طريقه هناك؛ لأنك لو ابتعدت عن السياج الشجري تدخل في حقلٍ محروث أو به محصول ما. وأخيرًا، وعلى الرغم من أنها شهادة تستند إلى أقوال الآخرين، كان سيرل يُجيد السباحة إلى حد كبير.»

«هناك إشارة يا سيد ويتمور إلى حدوث خلاف بينك وبين سيرل مساء يوم الأربعاء. فهل هذا صحيح؟»

قال والتر: «ظننت أننا سنأتي على ذكر هذا الأمر عاجلًا أو آجلًا.» ثم ضغط السيجارة التي كان يدخنها في المنفضة حتى أصبحت حطامًا مشوهًا.

فحثه جرانت قائلًا: «حسنًا، حدثني عن هذا الخلاف؟» إذ بدا أنه لم يكن لديه شيء يضيفه.

«حدث ما يُمكن أن نُطلِق عليه إمم ... «مشاحنة» بحسب ما أظن. كنت ... شاعرًا بالضيق. لا شيء أكثر من ذلك.»

«ضايقك إلى الحد الذي جعلك تتركه في الحانة وتعود بمفردك.»

«يروقني أن أصبح بمفردي.»

«وأخلدت إلى النوم من دون أن تنتظِر عودته.»

«أجل. لم أرِد أن أتحدَّث إليه أكثر من ذلك في تلك الليلة. أقول لك إنه ضايقني. ظننتُ أنني في الصباح سأكون في مزاج أفضل وأنه سيُصبح أقل استفزازًا.»

«هل كان مُستفزًّا؟»

«أعتقد أن هذه هي الكلمة المُناسبة.»

«بشأن ماذا؟»

«لا يتحتَّم عليَّ إطلاعُك على هذا.»

«لا يتحتَّم عليك إطلاعي على أي شيء، يا سيد ويتمور.»

«أجل، أعرف أنه لا يتحتَّم عليَّ شيء. لكنني أريد أن أكون عونًا بقَدرِ ما يُمكنني. يعلم الله أنني أريد أن ينكشِف غموض هذا الأمر بأسرع ما يُمكن. الأمر فقط أن ما اختلفنا بشأنه يعدُّ شخصيًّا وغير ذي صلة. وليس له أيُّ تأثير بأيِّ حالٍ على أي شيء حدث لسيرل ليلة الأربعاء. بالتأكيد لم أترصَّد له في طريق عودته، ولم أدفع به في النهر، ولم أُعرِّضه لأيِّ شكلٍ من أشكال العنف.»

«أتعرف أحدًا من المرجَّح أنه يرغب في ذلك؟»

تردَّد ويتمور؛ لا شكَّ أنه كان يُفكِّر في سيرج راتوف.

ثم قال بعد فترة طويلة: «ليس بهذا الشَّكل من العنف.»

«أي شكل تقصد؟»

«ليس بشكل الترصُّد له في الظُّلمة.»

«فهمت. النوع المألوف إذن كتوجيه لكمة له. عرفت أن شجارًا قد وقع بينه وبين سيرج راتوف.»

فقال والتر: «كل شخص يتعامل مع سيرج راتوف في الحياة ولا يتشاجر معه لا بد وأن يكون غير طبيعي.»

«هل تعرف أحدًا قد يحمل ضغينة لسيرل؟»

«لا أعرف أحدًا في سالكوت. ولا أعرف أي شيء عن أصدقائه أو أعدائه في أي مكان آخر.»

«هل لديك اعتراض إن تفقَّدت مقتنيات سيرل؟»

«ليس لديَّ اعتراض، لكن ربما يكون لدى سيرل. ماذا تتوقَّع أن تجد، أيها المفتِّش؟»

«لا شيءَ على وجه التحديد. إن مُقتنيات المرء تكشف الكثير، وهذا ما تأكَّدتُ منه خلال عملي. إنما أبحث فقط عن شيء قد يُشير إلى أيِّ شيء؛ أي مساعدة بأي شكل في مثل هذا الموقف المحير.»

«سأصحبك إلى الطابق العلوي الآن، إذن؛ إلا إن كان هناك شيء آخر تودُّ أن تسألني عنه.»

«كلا، شكرًا لك. لقد كنتَ عونًا كبيرًا. وكنت أتمنى لو أنك تثق بي بما يكفي لتُطلعَني على سبب الشجار ...»

فقال ويتمور بنبرة حادَّة: «لم يقعْ شجار!»

«أستميحُك عذرًا. أقصد، الطريقة التي أغضبك بها سيرل. من شأن هذا أن يكشف لي عن سيرل أكثر مما قد يكشف لي عنك؛ لكن ربما أفرطتُ في توقعاتي بأنك قد تتفهم هذا.»

وقف ويتمور بجوار الباب، يُفكِّر في ذلك. ثم قال بنبرة بطيئة: «كلا. كلا، أنا أتفهم ما تقصد. لكن إخباري إياك قد يتضمن ... كلا، لا أعتقد أن بإمكاني إخبارك.»

«أفهم أنك لا تستطيع. لنصعد إلى الطابق العلوي.»

وبينما يخرجان من المكتبة حيث دار بينهما اللقاء إلى الردهة البارونية، كانت ليز قد خرجت لتوِّها من حجرة الاستقبال وتعبر الردهة في طريقها إلى السلم. وحين رأت جرانت توقَّفَت وأضاء وجهها سرورًا.

وقالت: «أوه! أتيت تحمل أخبارًا عنه!»

وحين نفى جرانت ذلك، وقال إنه لا يحمل أي أخبار، بدت ليز متحيرة.

وقالت في إلحاح: «لكنك أنت من قدمه، في ذلك الحفل.»

كانت هذه أنباء جديدة على والتر، وشعر جرانت بأن والتر قد فُوجئ بذلك. واستطاع أيضًا أن يشعر باستيائه من تلك الفرحة الغامرة على وجه ليز.

قال والتر بنَبرة باردة وخبيثة بعض الشيء: «هذا، يا عزيزتي ليز، هو المفتِّش المحقق جرانت من إدارة سكوتلانديارد.»

«من إدارة سكوتلانديارد! لكن ... لقد كنتُ موجودًا في الحفل!»

فقال جرانت، وقد شعر بأن الأمر مُسلٍّ: «ليس من غير المُعتاد أن يبدي رجال الشرطة اهتمامًا بالفنون. لكن ...»

«أوه، من فضلك! لم أقصد الأمر بهذا الشكل.»

«لقد مررتُ فقط على الحفل لأصطحب صديقة لي. وكان سيرل يقف عند الباب ويبدو تائهًا لأنه لم يكن يعرف شكل الآنسة فيتش. لذا أخذته إليها وقدمته. هذا كل ما في الأمر.»

«والآن أتيتُ هنا لكي ... لكي تحقق ...»

«لأحقق في اختفائه. ألديكِ أي افتراضات حيال هذا، يا آنسة جاروبي؟»

«أنا؟ كلا. ولا حتى فرضية بدائية. إن الأمر يبدو غير منطقي فحسب. إنه غير مفهوم على نحو مثير للدهشة.»

«إن لم يكن الوقت متأخرًا بالنسبة إليك، هل لي أن أحدثك قليلًا بعد أن أنتهي من تفقُّد متعلقات سيرل؟»

فقالت، وقد بدت مُرهَقة: «أجل، بالطبع إن الوقت ليس مُتأخِّرًا. لم تدقَّ الساعة العاشرة بعد. منذ وقوع هذا الأمر أصبح الوقت يمر ببطء شديد. إنه أشبه بتدخين ... تدخين القنب، أليس كذلك؟ هل تبحث عن شيء مُعيَّن، أيها المفتش؟»

فقال جرانت: «أجل. الإلهام. لكنني أشك أنني سأجده.»

«سأكون في المكتبة حين تنزلان. أتمنى أن تجد شيئًا يمكنه مساعدتك. من المريع أن يتعلق المرء بخيط واهٍ بهذا الشكل.»

فكر جرانت بشأن ليز جاروبي وهو يتفقَّد مُتعلِّقات سيرل — ليز «العزيزة اللطيفة» بالنسبة إلى مارتا — وعلاقتها بمَن قال عنه ويليامز إنه «يفتقد الجرأة». لا يُمكن للمرء أبدًا أن يعرف ما تراه المرأة في رجل ما، وكان ويتمور شهيرًا بالطبع بالإضافة إلى أنه زوج صالح مُحتمَل. لقد قال هذا لمارتا وهما يغادران الحفل في ذلك اليوم. لكن إلى أي مدى كانت مارتا محقة بشأن قدرة سيرل على مضايقة الآخرين؟ إلى أي مدى كان شعور ليز جاروبي بجاذبية سيرل؟ إلى أيِّ مدى يعتبر ترحيبها الحار في الردهة سرورًا من أجل سلامة سيرل المتخيلة، وإلى أيِّ مدى كان مجرد ارتياح من عبء الشكوك والكآبة؟

راحت يدُه تقلب أشياء سيرل في كفاءة تلقائية، لكن ذهنه كان مشغولًا بتحديد كم الأسئلة التي سيطرحها على ليز جاروبي حين يُعاود النزول للطابق السُّفلي.

كان سيرل يقيم في حجرة بالطابق الأول في البرج المسور الذي يبرُز من يسار الباب الأمامي ذي الطراز التيودوري؛ لذا كانت الحجرة تحتوي على نوافذ من ثلاث جهات. كانت حجرة واسعة عالية السقف، وبها فرش مُتميِّز من المتاجر على طريق توتنهام كورت، كما كانت زاهية الألوان بطريقة مبالغ فيها بعض الشيء وتُوحي بالتواضُع بالنسبة إلى سعتها التي تتَّخذ الطراز الفيكتوري. لم يكن أحد يُقيم في الغرفة لذا لم تحمل طابعًا شخصيًّا، ومن الواضح أن سيرل لم يفعل أي شيء ليُضفي عليها من طابعه الشخصي. وقد استرعى هذا انتباه جرانت باعتباره أمرًا غريبًا. فنادرًا ما رأى حجرة، تخلُو من لمحات جمالية، وقد أقام بها شخص لفترة طويلة. لقد وضعت فرشات شعر على الطاولة، وكتب إلى جانب السرير، لكن لم يكن هناك أي أثر يدل على مالكها. يمكن لهذه الحجرة أن تكون في واجهة أحد المتاجر.

بالطبع كُنست الحجرة ورُتبت منذ آخر مرة أقام بها أحد قبل ستة أيام. لكنه نفس الإحساس. لكنه نفس الإحساس.

كان هذا الإحساس قويًّا لدرجة أن جرانت توقَّف ينظر حوله ويتفكَّر في الأمر. فكر في كل الحجرات التي فتشها طوال حياته. كانت جميعها — حتى غرف الفنادق منها — تحمل عبق آخر من أقام فيها. لكن هنا لم يكن هناك شيء سوى الفراغ. خواء بلا طابع شخصي. لقد احتفظ سيرل بشخصيته لنفسه.

وقد لاحظ جرانت — كما لاحظت ليز في ذلك اليوم الأول — كم كانت ملابسه وأمتعته باهظة الثمن. وبينما كان يتفقَّد المناديل في الدرج العلوي لاحظ أنها لا تحمل علامات طريقة الغسيل، فتعجب قليلًا. ربما صُنعت في المنزل. كانت القمصان والملابس الداخلية تحمل علامات، إلا أنها كانت قديمة وعلى الأرجح أمريكية.

وبالإضافة إلى حقيبتَين جلديتين، كان هناك صندوق من الصفيح مطلي بورنيش أسود يبدو وكأنه صندوق ألوان ضخم، كُتِب على غطائه اسم «إل سيرل» بأحرف بيضاء. كان هناك قفل مثبت على الصندوق لكنه كان مفتوحًا، فرفع جرانت غطاءه في شيء من الفضول، ليجد أنه يعج بالمواد الفوتوغرافية التي يملكها سيرل. كان الصندوق مصنوعًا وفقًا لتصميم صندوق ألوان، بغطاء علوي صُنع بحيث يمكن رفعه. رفع جرانت الغطاء العلوي بسبابتيه وراح يعاين القسم السُّفلي منه. كان القسم السفلي من الصندوق ممتلئًا

إلا من مساحة خاوية على شكل مُستطيل بدا أن شيئًا أُخِذ منها. وضع جرانت الغطاء الذي كان يمسك به وذهب يكشف عن تجهيزات التخييم التي أُعيدَت من عند ضفة النهر. لقد أراد أن يعرف ما الذي يلائم تلك المساحة المستطيلة الفارغة.

لكن لم يكن هناك شيء يلائمها.

من بين التجهيزات كانت هناك كاميرتان صغيرتان وبعض أفلام التصوير الخام. ولم يُلائم أي منها المساحة الخاوية في الصندوق الصفيحي لا فُرادى ولا مجتمعة. وكذلك لم يكن هناك أي شيء بين الأغراض يُلائمها.

عاد جرانت ووقف يُفكِّر برهة في تلك المساحة الخاوية. لقد أُخِذ شيء أبعاده زهاء ١٠ بوصات في ٣٫٥ في ٤ بوصات من ذلك الصندوق. وقد أُخِذ فيما كان الصندوق في وضعيته الحالية. فقد كان أي رفع للصندوق من موضعه سيتسبَّب في إزاحة الأشياء الأخرى من مكانها الذي رتبت فيه وكانت ستشغل المساحة الخاوية.

سيسأل جرانت عن ذلك حين ينزل إلى الطابق السفلي.

في تلك الأثناء، وبعد أن عاين الغرفة مُعاينة سريعة، أخذ جرانت يعاينها الآن بمزيد من التفصيل. وعلى الرغم من ذلك، كاد ألا يلحظ شيئًا مهمًّا للغاية. فقد تفقَّد جرانت على نحو سريع درج المناديل وربطات العنق غير المرتَّب نوعًا ما وكان على وشك إغلاقه حين لفت انتباهه شيء بين ربطات العنق فمدَّ يده وأخرجه.

كان الشيء هو قفاز امرأة. قفاز امرأة يدها صغيرة للغاية.

قفاز بحجم يد ليز جاروبي.

بحث جرانت عن الفردة الثانية له لكنه لم يجد شيئًا. كان القفاز يُمثل الغنيمة المعتادة لدى المتحابين.

إذن كان الشاب الوسيم واقعًا في الغرام إلى الحدِّ الذي يدفعه لسرقة أحد قفازات محبوبته. وجد جرانت في هذا شيئًا لطيفًا بشكل غريب. فقد كانت تلك لمحة من العصر الفيكتوري. أما في هذه الآونة فإنَّ الوقوع في الغرام وسرقة تذكار من المحبوب يتخذ أشكالًا أكثر شرًّا.

وأيًّا كان ما يثبته هذا القفاز، فمن المؤكد أنه يثبت أن سيرل كان ينوي العودة. فالمرء لا يترك تمائم العشق المسروقة في درج ربطات العنق على مرأى غرباء قد لا يتفهمون الأمر.

إن السؤال الذي ينبغي الإجابة عنه الآن هو: لمن يكون هذا القفاز، وكم كان يعني لسيرل؟

وضع جرانت القفاز في جيبه ونزل إلى الطابق السفلي. كانت ليز تنتظرُه في المكتبة كما وعدت، لكنه لاحظ أن هناك من كان يجلس معها وانصرف. فلا يُمكن لفرد واحد أن يُدخن كل هذا القدر من السجائر كما تُشير أعقاب السجائر في المنفضة. واستنتج جرانت أن والتر ويتمور كان يتشاور معها بشأن مسألة التحقيق الشُّرَطي هذه.

لكن ليز لم تنسَ أنها السكرتيرة وموظفة الاستقبال الرسمية لمنزل تريمنجز، فطلبت إحضار بعض المشروبات. رفض جرانت أن يتناول من الشراب لأنه في الخدمة الآن، لكنه أقر لها صنيعها نيابة عنه.

قالت ليز وهي تُشير إلى صحيفة ويكهام تايمز المفتوحة على الطاولة (والتي تصدر مرةً واحدةً أسبوعيًّا كل يوم جمعة): «أعتقد أن هذه هي البداية وحسب.» كان عنوانًا صغيرًا في مكانٍ غير بارز من الصحيفة يقول «شاب مفقود». وقد أشاروا إلى والتر بالمذيع الشهير السيد والتر ويتمور، من منزل تريمنجز، بسالكوت سانت ماري.

فقال جرانت: «أجل. ستتناول الصحافة اليومية الأمر يوم غد.»

سيقولون غدًا في الصفحة الأولى: «رفيق ويتمور مات غرقًا». «لغز ويتمور». «اختفاء صديق ويتمور».

«سيُصبح هذا سيئًا كثيرًا بالنسبة إلى والتر.»

«أجل. إن الإعلام يُعاني نوعًا من التضخيم. وقوته لا تتناسب بتاتًا مع قيمتها.»

«ماذا حدث له في رأيك، أيها المفتش؟ أقصد لليزلي؟»

«في الواقع، في وقت ما كان افتراضي أنه قد اختفى بمحضِ إرادته.»

«طوعًا! لكن لماذا؟»

«ما كنتُ لأعرف هذا من دون أن أعرف المزيد عن ليزلي سيرل. ألا تظنِّين، على سبيل المثال، أنه من النوع الذي يمزح ويُطبِّق المزاح عمليًّا؟»

«كلا. كلا بكلِّ تأكيد. لم يكن من ذلك النوع على الإطلاق. كان هادئًا للغاية و... ويتمتَّع بذوق رائع. ما كان ليرى شيئًا مرحًا في تطبيق المزاح عمليًّا. بالإضافة إلى ذلك، إلى أين يُمكنه الذهاب ليختفي وقد خلَّف كل أمتعتِه؟ لم يكن معه شيء سوى ما يرتديه بالفعل.»

«بخصوص تلك الأمتعة. هل صادف أن رأيتِ من قبل ما بداخل الصندوق الصفيحي المطلي بالورنيش الخاص به؟»

«صندوق التصوير الفوتوغرافي. أظن أنني قد رأيته ذات مرة. لأنني أتذكر كيف كان كل شيء مرتبًا بصورة منمقة.»

«لقد أُخِذ شيء من القسم السفلي منه، ولا يمكنني أن أجد شيئًا يناسب المساحة الخاوية. في رأيك، أيُمكنكِ أن تُحدِّدي ما هو مفقود؟»

«أنا واثقة من أنه لا يُمكنني ذلك. فليس بمقدوري أن أتذكَّر أي شيء بالتفصيل. إنما أتذكر الأناقة والنظام وحسب. كان الصندوق يحتوي على مواد كيميائية وشرائح، وأشياء من هذا القبيل.»

«هل كان يُبقي الصندوق مُغلقًا؟»

«كان به قفل. أنا واثقة من هذا. فبعض الأشياء به كانت سامة. لكنني لا أظنُّ أنه كان يبقيه مغلقًا طوال الوقت. أهو مغلق الآن؟»

«كلا. وإلا لما عرفت شيئًا عن المساحة الخاوية فيه.»

«كنت أظن أن بإمكان رجال الشرطة فتح أي شيء.»

«بإمكانهم ذلك، لكنه غير مسموح لهم دون إذن.»

ابتسمت ليز قليلًا وقالت: «دائمًا ما كنت أقع في المشكلات بسبب ذلك في المدرسة.»

قال جرانت: «بالمناسبة، أيُمكنكِ التعرف على هذا القفاز؟» ثم أخرجه من جيبه.

فقالت، وقد بدا عليها شيء من الاهتمام: «أجل. يبدو وكأنه أحد قفازاتي. أين وجدته؟»

«في درج مناديل سيرل.»

خطر بذهن جرانت أن الأمر يُشبه تمامًا لمس كائن الحلزون. من حيث الانغلاق والانسحاب الفوريين. ففي لحظة كانت تتحدَّث بصراحة وبلا تحفُّظ. والآن أصبحت مُتخوِّفة ومُتحفِّظة.

ثم قالت بنبرة مختنقة: «شيء غريب. لا بدَّ أنه وجده وكان ينتوي إعادته إليَّ. فأنا أحتفِظ بزوج احتياطي من القفازات في صندوق السيارة، زوج مُتوسِّط الجودة، وأقود بزوج قديم. ربما سقطت مني إحدى فردتَي الزوج المُتوسِّط الجودة في يومٍ ما.»

«فهمت.»

«وهذا القفاز هو بالتأكيد من الزوج الذي أحتفظ به في صندوق السيارة. إنه مُناسِب بما يكفي للزيارات والتسوق، لكنه ليس بالفخامة الكافية لأرتديه يوميًّا.»

«أتُمانعين لو احتفظت به بعض الوقت؟»

«كلا، بالطبع لا أمانع. أهو «دليل»؟» قالتْها وقد بذلت جهدًا كبيرًا لتبدو لطيفة.

«ليس بالضبط. لكن أي شيء في غرفة سيرل له أهمية محتملة في الوقت الراهن.»

«في رأيي أن هذا القفاز سيُضلُّك أكثر مما سيُساعدك، أيها المفتش. لكن لتحتفظ به على أي حال.»

راقت جرانت تلك اللمحة من الشجاعة، وكان مسرورًا باستعادتها السريعة لرباطة جأشها. فهو لا يستمتع أبدًا بمداعبة الحلزونات.

«أيُمكن للسيد ويتمور أن يُحدِّد ما هو الشيء المفقود من ذلك الصندوق؟»

«أشك في ذلك، لكن يُمكننا أن نرى.» ثم توجهت نحو الباب لتستدعيَ والتر.

«أو أي شخص آخر في المنزل؟»

«حسنًا، لن تستطيع الخالة لافينيا ذلك. فهي لا تعرف حتى ما يُوجد في أدراجها. وأيضًا لن تستطيع أمي؛ لأنها لا تذهب إلى حجرة البرج أبدًا إلا حين تُطلُّ برأسها فقط داخل الحجرة لترى إن كان قد جرى تنظيفها وترتيب السرير. لكن بإمكاننا أن نسأل العاملين.»

أخذهم جرانت إلى حجرة البرج وأراهم ما كان يقصد بالمساحة الخالية. ما الذي كان يوجد في تلك المساحة المستطيلة الخاوية؟

قال والتر مقترحًا: «هل من المُمكن أن تكون مادة كيميائية قد استخدمها بالفعل؟»

«لقد فكَّرت في ذلك، لكن كل المواد الكيميائية الضرورية لا تزال في مكانها ولم يستخدم أيًّا منها. ألا يُمكنكم أن تُفكِّروا في شيء رأيتموه معه يُمكِن له أن يملأ هذه المساحة الفارغة؟»

لم يكن بإمكانهم ذلك؛ وكذلك لم يكن بإمكان الخادِمة أليس.

قالت أليس إن أحدًا لم يكن يُنظِّف غرفة السيد سيرل غيرها. وهناك سيدة تدعى السيدة كلامب تأتي من القرية كل يوم لتُقدِّم المساعدة، لكنها لم تكن تنظف غرف النوم. كانت تُنظِّف السلم والممرات والمكاتب ومثل هذه الأماكن فقط.

أخذ جرانت يراقب وجوههم ويخمن. خلا وجه ويتمور من أي تعبيرات كما لو كان لاعب بوكر محترفًا؛ ولم تُبدِ ليز اهتمامًا كبيرًا تجاه هذه الأحجية، لكنها بدت شبه منزعجة؛ أما أليس فقد بدا على وجهها الخوف من مسئوليتها المحتملة عن اختفاء شيء من الصندوق أيًّا كان.

لم يكن جرانت يحرز تقدمًا.

ذهب ويتمور إلى الباب الأمامي برفقة جرانت، وقال وهو يحدق في الظلام: «أين سيارتك؟»

رد جرانت: «تركتها على الطريق، طابت ليلتك وشكرًا لك على مساعدتك.»

ثم تحرك جرانت نحو الظلام وانتظر حتى أغلق والتر الباب. ثم التف حول المنزل وذهب إلى المرأب. كان لا يزال مفتوحًا، وكان به ثلاث سيارات. فتش جرانت في صناديق السيارات الثلاث لكنه لم يجد فردة قفاز في أيٍّ منها. لم يكن هناك أي قفازات في أي منها.

الفصل العاشر

كان ويليامز جالسًا في زاوية المطعم في فندق وايت هارت يتناول وجبة عشاء متأخِّرة؛ وقد حيَّا صاحب الفندق جرانت وانصرف ليُحضر له العشاء هو أيضًا. كان ويليامز، بمساعدة رجال الشرطة المحلية، قد قضى يومًا طويلًا مُرهقًا طيلة ما بعد الظهيرة وحتى المساء لم يُسفِر عن شيء في محاولة التحقق من نظرية جرانت بأن سيرل ربما قد اختفى من تلقاء نفسه ولأسباب خاصة به. وفي تمام العاشرة، وبعد أن التقى بمُحصِّل الحافلات رقم ثلاثة وعشرين وآخر حمال مُتاح ممن يعملون في السكة الحديد، قرر ويليامز أن هذا كافٍ اليوم، وهو الآن يستريح ويتناول الجعة والنقانق والبطاطا المهروسة.

قال إجابة عن سؤال جرانت: «لا شيء. لم ير أحدٌ ولو شبيهًا له من بعيد. هل حالفك أي حظ، يا سيدي؟»

«لا شيء يُمكن أن يزيد من وضوح الموقف.»

«ألم تجد خطابات بين متعلِّقاته؟»

«لم أجد ولو خطابًا واحدًا. لا بدَّ أن خطاباته جميعها في محفظته، إن كان لديه خطابات من الأساس. لم أجد شيئًا سوى رزم من الصور الفوتوغرافية.»

تساءل ويليامز وقد أبدى اهتمامًا: «صور فوتوغرافية؟»

«صور لأماكن محلية كان قد التقطها منذ قدومه إلى هنا.»

«أوه. هل تحوي بينها صورًا لفتاة والتر ويتمور؟»

«تحوي عددًا كبيرًا من الصور لها في الواقع.»

«وبعد؟ أهي صور بوضعيات معينة؟»

«كلا، يا ويليامز، كلا. إنها رومانسية. كأن يكون رأسها في مقابل سماء تضيئُها الشمس وتتخلَّلها باقة من زهور اللوز. ذلك النوع من الصور.»

«هل الفتاة جذابة في الصور، في رأيك؟ هل هي شقراء؟»

«كلا، إنها مخلوق ضئيل الجسم، داكن البشرة، عادي المظهر، ولها وجه حسن.»

«أوه. ماذا يبغي بتصويرها؟ لا بدَّ أنه مُغرَم بها.»

قال جرانت: «إني أتساءل بخصوص هذا الأمر»؛ ثم صمت فيما كان الطعام يُوضع أمامه.

قال ويليامز: «ينبغي حقًّا أن تُجرِّب تناول المخلَّلات ولو مرة واحدة يا سيدي. إنها رائعة.»

«أقولها للمرة السابعة بعد الخمسمائة، أنا لا أتناول المُخللات. إنني أتمتع بحاسة تذوق يا ويليامز. وهي حيازة ثمينة. ولا أنوي أن أتدنَّى بمُستواها إلى حدِّ تناول المخللات. كان هناك شيء بين متعلقات سيرل يوحي بأكثر مما توحي به تلك الصور بكثير.»

«وما هو ذاك يا سيدي؟»

قال جرانت: «إنه فردة أحد قفازات الفتاة»؛ ثم أخبره بالمكان الذي وجدها فيه.

فرد ويليامز: «عجبًا، عجبًا» وراح يتدارس المعلومة في صمت لبرهة من الوقت. وأكمل: «لا يبدو أنها قد قطعت شوطًا طويلًا.»

«ماذا تقصد؟»

«العلاقة. إن كان لا يزال في مرحلة سرقة قفازها. صدقًا، يا سيدي، في يومنا وزمننا هذا، لم أكن أتخيل أن أحدًا يمكن أن تدفعه عواطفه ليكتفي بفردة قفاز.»

فضحك جرانت وقال: «لقد أخبرتك. إنها فتاة لطيفة. أخبرني، يا ويليامز، أي نوع من الأشياء يمكن أن تسعه مساحة أبعادها ١٠ بوصات في ٣٫٥ في ٤ بوصات؟»

فقال ويليامز من دون تردُّد: «قطعة صابون.»

«هذا غير مرجَّح. ماذا أيضًا؟»

«علبة سجائر.»

«كلا. هو ليس بمُدخِّن.»

«طعام من نوعٍ ما؟ يتَّخذ الجبن المطبوخ هذا الشكل.»

«كلا.»

«مسدَّس دوَّار؟ مسدَّس دوَّار في علبة، أقصد.»

«عجبًا. لماذا قد يحمل مسدَّسًا؟»

فسأله ويليامز: «ما المساحة التي تُحاول أن تجد شيئًا ملائمًا لها، يا سيدي؟» فوصف له جرانت صندوق الصور الفوتوغرافية، والمساحة الخاوية في القسم السُّفلي منه المرتَّب بعناية.

«أيًّا كان الشيء الذي كان موجودًا، فإنه شيء صلب، ذو حواف قوية وحادة. ولم يكن هناك شيء وسط مقتنياته يلائم تلك المساحة الخاوية. لذا فإما أنه أخرجه من مكانه وتخلَّص منه، أو أن الشيء أُخِذ من مكانه بعد اختفائه لسببٍ ما.»

«يعني هذا أن هناك شخصًا في منزل تريمنجز يُحاول إخفاء الأدلة. أما زلت تظنُّ أن ويتمور ليس من ذلك النوع، يا سيدي؟»

«ذلك النوع؟»

«أعني من النوع الذي قد يُقدِم على القتل.»

«أعتقد أن ويتمور أكثر عرضة للدخول في نوبة غضب من أن يُقدم على القتل.»

«لكنه لن يكون في حاجة إلى أن يرى لون الدم حين يُغرِق سيرل. إن دفعة واحدة ستفي بالأمر حين يشعر بالحنق، وربما لم يكن قادرًا على فعل أي شيء حيال إنقاذه في الظُّلمة. وبعدها يفقد صوابه ويدَّعي أنه لا يعرف شيئًا عن المسألة. يعلم الرب أن هذا هو ما يحدث في معظم الأحوال.»

«أتظن أن ويتمور قد فعلها لكن عن طريق الخطأ؟»

«لا أعلم من فعلها. لكن لديَّ قناعة راسخة بأن سيرل لا يزال في النهر، يا سيدي.»

««لكن المُفتِّش رودجرز يقول إنه قد بحث في النهر على نحو دقيق.»

«يقول الرقيب المسئول في قسم شرطة ويكهام إن كمية الوحل في قاع نهر راشمير يمكن أن تُفرَد حتى مُنتصَف الطريق إلى أستراليا.»

«أجل، أعلم هذا. وقد فهمتُ أن قائد الشرطة أبدى تلك الملحوظة لكن بعبارة أقل وضوحًا.»

فقال ويليامز وهو لا يُصغي إلى جرانت: «في نهاية المطاف، ما الذي يمكن أن يكون قد حدث له إن لم يكن قد غرق؟ إن كانت جميع التقارير صحيحة فهو ليس من النوع الذي يراه المرء وينساه.»

أجل. هذا صحيح. أخذ جرانت يفكر في الشاب الذي كان يقف عند مدخل باب منزل كورماك روس، وفكر مليًّا كيف أن الوصف الرسمي للشاب المُختفي لا يعبر عن الشخص الذي يبحثون عنه.

شاب في بداية العشرينيات من عمره، طوله خمس أقدام وثماني بوصات ونصف أو تسع بوصات، ذو بنية نحيفة، أشقر الشعر للغاية، عيونه رمادية، وأنفُه مستقيم، عظام خدِّه بارزة نوعًا ما، وفمه عريض؛ لا يرتدي قبعة؛ ويرتدي معطفًا واقيًا من المطر به حزام على سترة رمادية من الصوف، وبلوفرًا رماديًّا، وقميصًا رياضيًّا أزرق، وبنطالًا رماديًّا، وحذاءً أمريكيًّا بني اللون به مشبك أو إبزيم عند منتصف القدم بدلًا من الأربطة؛ صوته خفيض ولُكنتُه أمريكية.

إن أيَّ أحد يقرأ هذه الأوصاف لا يُمكن أن يتخيَّل ما كان يبدو عليه ليزلي سيرل في الواقع. وعلى الجانب الآخر، وكما أبرز ويليامز، لا يُمكن لأحد أن تقع عينه على ليزلي سيرل ولا يلتفت إليه ليُلقي نظرة ثانية. ما كان أحد ليراه ولا يتذكره.

واصل ويليامز في إصرار قائلًا: «علاوة على ذلك، لمَ قد يرغب في الاختفاء؟»

«لا يُمكنني أن أحزر ذلك من دون أن أعرف المزيد عن خلفيته. لا بدَّ أن أُكلِّف إدارة سكوتلانديارد بهذا الأمر كأول شيء أفعله صباح الغد. هناك قريبة له في مكانٍ ما بإنجلترا، لكنني أريد أن أعرف عن خلفيته الأمريكية. لا يسعني سوى أن أشعر أنَّ مهنة القتل هذه تتوطَّن كاليفورنيا أكثر مما تتوطَّن هيئة الإذاعة البريطانية.»

فأشار ويليامز قائلًا: «لم يأخذ أحد من كاليفورنيا شيئًا من صندوق سيرل أيًّا كان ذلك الشيء.»

رد جرانت مُتدبِّرًا: «كلا»؛ وأخذ يستعرض في ذهنه سكان منزل تريمنجز. سيتعين عليه غدًا أن يبدأ في التحرِّي عن حجج الغياب. كان ويليامز محقًّا بالطبع. فمن غير المرجَّح إلى حد الخيال أن يختفي سيرل بهذه الطريقة بإرادته. لقد أشار جرانت إلى ليز جاروبي أن سيرل ربما خطط لتطبيق مزحة عمليًّا من أجل أن يغيظ والتر، وقد سخرت ليز من ذلك. لكن حتى ولو كانت ليز مخطئة في تقديرها، كيف يمكن لسيرل أن يكون قد فعلها؟

قال جرانت بصوت مُرتفع: «لا يزال هناك الرجل الذي مرَّ بالدراجة النارية.»

«ما ذاك، يا سيدي؟»

«لقد التقينا بالأشخاص الذين يعملون بخدمات النقل المنتظمة، لكننا لم نجد طريقة بعدُ للوصول إلى قائد الدراجة النارية الذي ربما قام بتوصيله.»

ابتسم ويليامز، الذي استمر في تناول المزيد من النقانق والجعة، إلى جرانت، على نحو مُتعاطِف. وقال: «هذه هي المرة السابعة والخمسون التي تصرُّ فيها على رأيك، يا سيدي.»

«السابعة والخمسون؟»

«كم أنت مُستبدٌّ برأيك. أما زلت مُقتنعًا بنظرية أنه اختفى بمحض إرادته؟»

«ما زلت أظنُّ أنه ربما سار من عند منحنى النهر وعبر الحقول إلى طريق ويكهام كروم الرئيسي وحصل على توصيلة من هناك. سأسأل برايس في الصباح إن كنا نستطيع الحصول على رسالة استغاثة لاسلكية بشأن ذلك.»

«وبعد أن حصل على التوصيلة، يا سيدي؟ ماذا بعد ذلك؟ كل أمتعتِه في منزل تريمنجز.»

«لا نعرف ذلك. لا نعرف أي شيء عنه قبل أن يحضر ذلك الحفل في منزل روس. إنه مصور فوتوغرافي؛ هذا هو كل ما نعلمه علم اليقين. يقول إن لديه قريبة واحدة فقط من أبناء عمومته في إنجلترا، لكن من المُحتمَل أن يكون لديه نصف دزينة من المنازل ودزينة من الزوجات.»

«ربما، لكن لماذا لم يُغادِر بالطريقة الطبيعية حين تنتهي هذه الرحلة؟ ففي النهاية، كان سيرغب في تحصيل أجره عن ذلك الكتاب الذي كانا يعملان عليه، أليس ذلك مؤكدًا؟ لمَ كل هذا العبث؟»

«ربما ليُصعِّب الأمور على والتر.»

«فعلًا؟ أتظنُّ هذا؟ ولمَ؟»

فقال جرانت بابتسامة خافتة: «ربما لأنني أنا نفسي ما كنت لأمانع أن أُصعِّب الأمور على والتر. وربما أن هذا محض أمنيات من جانبي.»

ردَّ ويليامز من دون أي علامة أسف واضح من جانبه: «من المؤكد أن الأمور ستكون مزعجة للغاية لويتمور.»

«للغاية. ما كنت لأعجب لو أدَّت الأمور إلى حرب أهلية.»

«حرب؟»

«أتباع ويتمور المُخلصون ضد المشككين.»

«أيتقبَّل الأمر بصعوبة؟»

«لا أظنُّ أنه يدرك بعدُ ما ألمَّ به. ولن يفعل، بحسب ما أعتقد، حتى يرى صحف يوم غد صباحًا.»

«ألم تتناول الصحافة أمره بالفعل؟»

«لم يكن أمامهم متَّسع من الوقت. وصلت صحيفة كلاريون إلى عتبة باب المنزل عند الخامسة بعد الظهر، كما عرفت، وقد ذهب الصحفي إلى فندق سوان ليحصل على المعلومات حين فشل في الحصول عليها من منزل تريمنجز.»

«ثق أن صحيفة كلاريون لها السبق في تغطية الحادث. كان حري بويتمور أن يرى من كان ذلك الصحفي الذي تولى تلك التغطية. فلماذا لم يفعل؟»

«ينتظر عودة محاميه من البلدة، كما قال.»

«من كان الصحفي، أتعرفه؟ من صحيفة كلاريون.»

«جامي هوبكنز.»

«جامي! أفضِّل أن يتبعني قاذف لهب من أن يتبعني جامي. إنه لا يتحلَّى بأي ضمير على الإطلاق. سيختلقُ قصة جديدة تمامًا إن لم يحصل على مقابلة. أتعلم، لقد بدأت أشعر بالأسى تجاه والتر ويتمور. ما كان له أن يبُوح بأيِّ شيء إلى جامي، وما كان له أن يتسرع في الدفع بسيرل في النهر.»

فقال جرانت: «مَن منَّا المُستبدُّ برأيه الآن؟»

الفصل الحادي عشر

في الصباح هاتَف جرانت رئيسه، لكنه لم يكد يبدأ حديثه حتى قاطعه برايس.

«أهذا أنت، يا جرانت؟ أَرسِل مُساعدَك هذا على الفور. لقد سرَق بيني سكول محتويات خزانة غرفة نوم بوبي بلامتر ليلة أمس.»

«كنتُ أظنُّ أن مقتنيات بوبي الثمينة كلها مع آنكل.»

«ليس منذ أن اتخذت لنفسِها والدًا جديدًا.»

«هل أنتَ واثق أن من فعل ذلك هو بيني؟»

«واثق تمامًا. الأمر يحمل بصماته المميزة. المُكالَمة الهاتفية لإزاحة الحارس من طريقه، وعدم ترك بصمات الأصابع، ووجبة الحليب والخبز والمربَّى، وخروجه من مدخل الخدم. وما كان لينقصه سوى تسجيل اسمه في سجلِّ الزوار، حتى تكتمل بصماته التي تدلُّ على ارتكابه الجريمة.»

«حسنًا؛ إنَّ اليوم الذي سيتعلَّم فيه المُجرمون تنويع أساليبهم هو اليوم الذي سنفشل نحن فيه في أداء عملنا.»

«أريد من ويليامز أن يُلقيَ القبض على بيني. إنه يعرف بيني تمام المعرفة. لذا اجعله يعود. كيف تسير الأمور معك؟»

«ليس بأفضل شكل.»

«حقًّا؟ كيف ذلك؟»

«ليس لدينا جثة. لذا نحن أمام احتمالَين؛ إما أن سيرل قد مات، وذلك إما عن طريق الخطأ أو بتدبير مسبق؛ أو أنه اختفى لغاية خاصة به.»

«ما نوعية تلك الغاية؟»

«ربما تكون دعابة سيئة.»

«من الأفضل له ألا يُحاول فعل ذلك معنا.»

«ربما كان الأمر بالطبع أنه فقد ذاكرته فحسب.»

«من الأفضل له أن يكون الأمر على هذا النحو.»

«أحتاج إلى شيئين، يا سيدي. الأول هو رسالة استغاثة عبر الراديو. والشيء الآخر هو بعض المعلومات من شرطة سان فرانسيسكو بشأن سيرل. نحن نعمل دون معلومات تدلنا على الطريق الصحيح، لأننا لا نعرف شيئًا عنه. الصلة الوحيدة له في إنجلترا هي قريبة من أبناء عمومته؛ فنانة لم يتواصل معها. أو يقول إنه لم يفعل. على الأرجح أنها ستتواصل معنا حين ترى صحف هذا الصباح. لكن من المرجَّح أنها لن تعرف عنه الكثير.»

«وهل تظنُّ أن شرطة سان فرانسيسكو ستعرف الكثير؟»

«كانت سان فرانسيسكو مقر إقامته، بحسب ما عرفت، حين أمضى شهور الشتاء على الساحل، ولا شك أن بإمكانهم التنقيب عن أي معلومات بشأنه هناك. دعهم يُعلِمونا إن كان قد وقع في مشكلة هناك أو أراد أحد قتله لأي سبب كان.»

«أظنُّ أن الكثيرين قد يرغبون في قتل مصور فوتوغرافي. حسنًا، سنفعل ما طلبت.»

«شكرًا لك، يا سيدي. وماذا عن إشارة الاستغاثة؟»

«لا يروق هيئة الإذاعة البريطانية أن تُشوِّش برامجها اللطيفة برسائل الشرطة. ماذا تريد أن تقول في تلك الإشارة؟»

«أريد أن أطلب من أي أحد قام بتوصيل شاب في المنطقة بين ويكهام وكروم ليلة الأربعاء أن يتواصل معنا.»

«حسنًا. سنتولى ذلك. هل استوفيتَ كل الإجراءات المُعتادة؟»

«استوفيت كل شيء، يا سيدي. ولم أجدْ أثرًا له في أي مكان. وهو ذو صفات يسهل الاستدلال عليها. وباستثناء اتفاقه مع طائرة لتنتظره ثم تنقله بعيدًا عن المكان — الأمر الذي لا يحدث إلا في قصص الصِّبية، على حد علمي — فإن الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها الخروج من تلك المنطقة هي السير عبر الحقول والحصول على توصيلة من على الطريق الرئيسي.»

«ألا يُوجَد دليل على وقوع جريمة قتل بحقه؟»

«لا شيء حتى الآن. لكنني سأتحرَّى عن حجج غياب الناس هنا هذا الصباح.»

«أرسِل ويليامز قبل أن تشرع في أي شيء. وسأُرسل المعلومات التي تردُ من سان فرانسيسكو إلى قسم شرطة ويكهام حين تصلنا.»

«جيد جدًّا، يا سيدي. شكرًا لك.»

أنهى جرانت المكالمة وذهب يخبر ويليامز.

قال ويليامز: «تبًّا لبيني. يحدث ذلك حين بدأت أحب هذا الجزء من الريف. ليس اليوم مناسبًا للتصارع مع بيني على أي حال.»

«أهو عنيف؟»

«بيني؟ كلا! إنه رعديد. سيبكي ويبكي ويقول إننا نحاول اتهامه دون حق، وأنه لم يكد يخرج من السجن ويُحاول أن يُصبح صالحًا — «يصبح صالحًا!» بيني! — حتى تعقَّبناه وأتينا به نستجوبه، وسيقول إنه لا يملك فرصة في هذه الظروف، وهكذا دواليك. إنه يصيبني بالغثيان. إن رأى بيني عملًا جادًّا وشريفًا في طريقه فسيهرب منه وكأنه يُحاول النجاة بحياته. لكنه يجيد الشكوى. لقد تمكَّن ذات مرة من طرح سؤال في البرلمان. وقد يتساءل المرء كيف يكون لدى أعضاء البرلمان أولئك ما يكفي من الذكاء ليطلبوا تذكرة قطار من مسقط رأسهم. هل سيتحتم عليَّ أن أستقل القطار إلى البلدة؟»

قال جرانت مبتسمًا لدى رؤيته أمارات الرعب على وجه زميله من فكرة السفر بالقطار: «أتوقَّع أن يعطيك رودجرز سيارة تُقلُّك حتى كروم ومن هناك تستقلُّ قطارًا سريعًا.» ثم عاد جرانت إلى الهاتف وتحدث إلى مارتا هالارد في منزلها ميل هاوس في سالكوت سانت ماري.

قالت: «آلان! كم لطيف أن أسمع صوتك. أين أنت؟»

«في فندق وايت هارت في ويكهام.»

«كم أنت مسكين يا عزيزي!»

«أوه، إنه ليس بهذا السوء.»

«دعك من هذا النُّبل الزائد. أنت تعرف أنه بدائي للغاية. بالمناسبة، هل سمعت بآخر الأخبار المُثيرة؟»

«أجل. هذا هو سبب وجودي في ويكهام.»

ثم ساد صمت مطبق بينهما.

بعدها قالت مارتا: «أتقصد أن إدارة سكوتلانديارد تبدي اهتمامًا بغرقِ ليزلي سيرل؟»

«لنقل باختفاء سيرل.»

«أتقصد أن الشائعة التي تقول بوجود خلاف بينه وبين والتر تحمِل قدرًا من الحقيقة؟»

«أخشى أنني لا أستطيع أن أُناقش الأمر عبر الهاتف. ما أردت أن أسألكِ عنه هو ما إن كنتِ ستكونين في المنزل هذا المساء إذا ما مررت لزيارتك.»

«لا بدَّ أن تأتي وتمكث، بالطبع. لا يُمكنك المكوث في ذلك المكان المريع. سأبلغ السيدة ...»

«أشكركِ من كل قلبي، لكنني لا أستطيع فعل ذلك. لا بدَّ أن أكون هنا في ويكهام في مركز الأحداث. لكن إذا ما أردتِ أن تُقدِّمي لي العشاء ...»

«بالطبع سأُقدِّم لك العشاء. ستحظى بوجبةٍ رائعة، يا عزيزي. مع الأُومليت الذي أعده والدجاج الذي تُعدُّه السيدة ثروب، وزجاجة من الشراب المعتَّق في القَبو التي ستُنسيك مذاق جعة فندق وايت هارت.»

وهكذا مضى جرانت يباشر مهامَّ يومِه وقد تحمس بعض الشيء بفعل فكرة أن ينتهي يومه بشيء من التحضُّر، فبدأ بمنزل تريمنجز. إن كان سيُقيِّم حجج الغياب، فمن الملائم أن يكون قاطنو منزل تريمنجز هم أول من يُقدِّمون حجج غيابهم.

كان الصباح لطيفًا صافيًا، وقد بدأت برودة الجو تخفُّ بعد صقيع ساعاته الأولى، وكما أشار ويليامز، لم يكن هذا يومًا يضيعه المرء في مطاردة مجرمي هذه الحياة؛ لكن مشهد منزل تريمنجز وهو ينتصِب في خيلاء تحت أشعة الشمس الساطعة أحيا في نفس جرانت حالته المزاجية الجيدة التي كانت قد فارقته. ليلة أمس كان المنزل عبارة عن مدخل مضاء وسط الظلمة. واليوم انتصب المنزل واضحًا جليًّا، ضخمًا إلى حد مفرط، بكلِّ تفاصيله التي تُوحي بالغرور والأناقة، وكان جرانت مُبتهجًا كثيرًا حتى إنه ضغط على دواسة الفرامل وأوقف السيارة عند المنعطَف على الطريق، وجلس في مكانه يُحدِّق بالمشهد.

جاءه صوت من جانبه يقول: «أعرف كيف تشعر تمامًا». كانت تلك هي ليز؛ عيناها ناعستان بعض الشيء كما لاحظ، لكنها كانت هادئة وودودة.

فقال جرانت: «صباح الخير. كنت مُحبطًا بعض الشيء هذا الصباح لأنني لم أتمكَّن من نفض يدي عن كل شيء والذهاب لصيد السمك. لكنني أشعر الآن بشعور أفضل.»

فقالت موافقة إياه: «إنه جميل، بالطبع. لا يكاد المرء يُصدِّق أنه موجود من الأساس. تشعر وكأن أحدًا لم يفكر في إنشائه؛ بل ظهر في مكانه فجأة من العدم.»

وانتقلت أفكارها من المنزل إلى وجود جرانت، وقد رأى جرانت السؤال يتشكَّل في ذهنها.

«آسف لكوني مُزعجًا، لكنني منشغل هذا الصباح بتشذيب هذه القضية.»

«تشذيب؟»

«أريد أن أستبعد كل الأشخاص الذين لا يُمكن أن يكون لهم صلة بهذه القضية على الإطلاق.»

«فهمت. أنت تتحرَّى عن حجج الغياب.»

«أجل» ثم فتح باب السيارة حتى يُقلَّها تلك المسافة القصيرة حتى المنزل.

«آمل أن يكون لدينا حجج غياب قوية. ويُؤسفُني القول إنني ليس لديَّ أي حجَّة غياب على الإطلاق. كان هذا هو أول شيء فكَّرت فيه حين عرفت من تكون. هذا غريب، أليس كذلك، كم يشعر البريء بالذنب حين لا يستطيع تفسير موقفه للمرة الألف. هل تُريد حجج غياب الجميع؟ كالخالة لافينيا وأمي وجميع من بالمنزل؟»

«والعاملين كذلك. كل شخص كانت له أي صِلة بليزلي سيرل.»

«من الأفضل إذن أن تبدأ بالخالة لافينيا. قبل أن تبدأ بأعمالها الصباحية. فهي تُملي عليَّ طيلة ساعتين صباح كل يوم وتحب أن تبدأ في الموعد المحدَّد.»

فسألها جرانت حين وصلا عند الباب: «أين كنتِ، يا آنسة جاروبي؟»

«وقت حدوث الواقعة؟» فكَّر جرانت أنها تتعمد أن تكون باردة غليظة القلب حيال الأمر؛ إن «وقت حدوث الواقعة» هو الوقت الذي من المُفترَض أن ليزلي سيرل قد فقد حياته فيه، ولم يظنَّ جرانت أنها نسيت تلك الحقيقة.

«أجل. ليلة الأربعاء.»

«كما يقولون في القصص البوليسية كنت قد «أويت إلى فراشي». ولا تقل، أيضًا، إن «الوقت كان مبكرًا لأن آويَ إلى فراشي». أعرف أن الوقت كان مُبكرًا. يروقني أن أصعد إلى الطابق العلوي مبكرًا. أحب أن أختلي بنفسي في نهاية اليوم.»

«أتقرئين؟»

«كلا، أيها المفتِّش، لكنني أكتب.»

«أنتِ أيضًا تكتبين؟»

«هل خيَّبتُ أملك؟»

«بل تُثيرين اهتمامي. ماذا تكتبين، أم لا ينبغي لي أن أسأل عن ذلك؟»

«أُخرج بطلات طيبات من تفكيري، هذا كل ما هنالك.»

«تيلدا الخادمة الصغيرة ذات شفاه الأرنب وميول القتل، كترياق لمورين.»

أطالت ليز النظر إليه ثم قالت: «أنت رجل شرطة من نوع غريب جدًّا.»

فبادرها جرانت: «أشك أن فكرتك عن رجال الشرطة هي الغريبة. هلا أخبرتِ خالتك بوجودي؟»

لكن لم يكن هناك حاجة إلى الإعلان عن وصوله. فقد كانت الآنسة فيتش في الردهة بينما تصعد ليز درجات السلم مسرعة، وقالت بنبرة تنم عن الاندهاش أكثر منها عن الحزن:

«ليز، لقد تأخرت لخمس دقائق!» ثم رأت المحقق، فقالت: «عجبًا، عجبًا، لقد كانوا محقِّين. لقد قالوا إن أحدًا لن يظنَّ أبدًا أنك رجل شرطة. تفضَّل بالدخول أيها المفتِّش. لطالَما أردت أن ألتقي بك. بطريقة رسمية، على نحوٍ ما. بالكاد يُمكن تسمية آخر مقابلة بيننا لقاءً، أليس كذلك. تفضل بالدخول إلى غرفة الجلوس الصباحية. إنني أعمل بها.»

اعتذر جرانت عن تأخيرها عن عملها الصباحي، لكنها اعترفت بأنها مسرورة لتَأَخُّر التعامل مع «الفتاة المضجرة» لعشر دقائق على الأقل. وفهمَ جرانت أن «الفتاة المضجرة» هي البطلة التي تكتب فيتش قصتها في الوقت الراهن.

بدا أن السيدة فيتش أيضًا كانت قد أوت إلى فراشِها في ساعة مُبكِّرة ليلة الأربعاء. في التاسعة والنصف، على وجه التحديد.

إذ قالت: «حين تكون العائلة مجتمعة بعضها مع بعض طوال اليوم، كما هو حالنا، فإنهم ينزعون إلى الذهاب إلى غرفهم مُبكرًا في الليل.» كانت فيتش قد استمعت إلى مسرحية إذاعية، واستلقت مستيقظة لبعض الوقت فسمعت أختها من بعيد تدخل المنزل عائدة من الخارج، لكنها أخلدت إلى النوم مبكرًا في نهاية المطاف.

فقال جرانت: «تصل من الخارج؟ هل كانت السيدة جاروبي بالخارج إذن؟»

«أجل. كانت تحضر اجتماع جمعية مناهضي الحروب.»

بعد ذلك سألها جرانت عن سيرل. ماذا كانت تظنُّ بشأنه، وما يتوقَّع منه أن يفعله أو لا يفعله في رأيها. ورأى جرانت أنها كانت حَذِرة بشأن سيرل على نحو يُثير الدهشة؛ وكأنها تنتقي كلماتها؛ وتساءل جرانت في ذهنه عن سبب ذلك.

فحين قال جرانت: «في رأيك، هل أبدى سيرل أمارات على كونه واقعًا في غرام ابنة أختك؟» بدت مذهولة، وقالت «كلا، بالطبع!» بسرعة وتأكيد شديدين.

«ألم يكن مُهتمًّا بها؟»

قالت الآنسة فيتش: «عزيزي، إنَّ أي أمريكي يولي اهتمامًا للفتيات. إنه فعل لا إرادي. تلقائي كعملية التنفُّس.»

«أتظنِّين أنه لم يكن مُهتمًّا بها اهتمامًا جادًّا؟»

«أنا واثقة من ذلك.»

«أخبرني ابن أختك ليلة أمس أنه كان يُهاتفكم كل ليلة في طريق عودتهما إلى النهر.»

«أجل.»

«هل كان كل من في المنزل يعرفون بأمر رسالة ليلة الأربعاء؟ أقصد، هل كانوا يعرفون أين يُخيِّم الرجلان؟»

«أتوقَّع ذلك. كانت العائلة تعرف مكان تخييمِهما بالطبع؛ والعاملون دائمًا ما كانوا يتوقُون لمعرفة مدى التقدم الذي يُحرزونه؛ لذا أعتقد أن الجميع كانوا يعرفون ذلك.»

«شكرًا لكِ كثيرًا، يا آنسة فيتش. كان هذا في غاية اللطف منك.»

ثم نادت فيتش على ليز، فصحبت جرانت إلى أمها وعادت إلى حجرة الجلوس الصباحية لتُسجِّل آخر أحداث مورين.

كانت السيدة جاروبي من دون حجة غياب هي الأخرى. كانت في اجتماع جمعية مناهضي الحروب في القاعة الرئيسية بالقرية، وقد غادرت لدى انتهاء الاجتماع في التاسعة والنصف، ورافقت الآنسة إيستون-ديكسون لجزء من الطريق إلى المنزل وتركتها حين افترق طريقاهما. وقد عادت إلى المنزل في حدود العاشرة مساءً؛ أو ربما بعد ذلك؛ وكانت قد قرَّرت السير إلى المنزل لأن الليلة كانت رائعة؛ كما أوصدت الباب الأمامي للمنزل. أما الباب الخلفي فكانت السيدة بريت توصده دائمًا، وهي مدبرة المنزل والطباخة.

لم ينخدِع جرانت بإيما جاروبي ولو قليلًا. فكان كثيرًا ما يلتقي بأمثالها؛ تلك الأم الشرسة التي تتنكر خلف مظهر هادئ ووديع. فهل اعترض سيرل طريق الخطط التي كانت قد أعدَّتها لابنتها؟

سألها جرانت عن سيرل ولم يكن هناك انتقاء للكلام من جانبها على الإطلاق. قالت إنه كان شابًّا في غاية الجاذبية. ذا جاذبية استثنائية إلى حدٍّ بعيد. وكان يروقهم جميعًا بشكل كبير، وقد عصفت بهم المأساة التي ألَّمت به.

ووجد جرانت نفسه يتلقَّى هذا الأمر ذهنيًّا مع لفظ معبر.

شعر جرانت بأنَّ السيدة جاروبي تصيبه بشيء من الغصة، وقد ابتهج عندما ذهبت لتجلب له أليس.

كانت أليس قد خرجت ليلة الأربعاء تتمشَّى بصحبة البستاني، وعادت بحلول العاشرة والربع، حيثُ أوصدت السيدة بريت الباب خلفها، وصعدتا إلى حجرتَيهما معًا في الجناح

الخلفي بعد أن تناولا كوبًا من الكاكاو. شعرت أليس بالانزعاج فعلًا بسبب ما آل إليه مصير ليزلي سيرل. وقالت إنها لم يسبِق لها قطُّ أن خدمت شابًّا ألطف منه. لقد التقت بعشرات الشبان والنبلاء وغيرهم ممَّن يولون اهتمامًا بكَواحل الفتيات، لكن السيد سيرل كان هو الوحيد الذي يولي اهتمامًا بقدمَي الفتاة من بين من قابلتهم.

«قدمَي الفتاة؟»

لقد قالت الأمر نفسه للسيدة بريت ولإيديث خادمة الاستقبال. كان سيرل سيقول: «يُمكنكِ فعل هذا أو ذاك، وهذا سيُوفِّر عليك عناء الصعود ثانية، على ما أظن.» ولم يسعها أن تستخلص من ذلك سوى أن هذا من شيم الأمريكان؛ لأنها لم تُقابل رجلًا إنجليزيًّا من قبل أبدى ولو قليلًا من الاهتمام بما إن كانت ستصعد إلى الطابق العُلوي مرة ثانية أم لا.

بدت إيديث، هي الأخرى، حزينة على ليزلي سيرل؛ ليس لأنه أبدى اهتمامًا بقدمَيها ولكن لأنه كان في غاية الوسامة. وقد ثبَت لجرانت أن إيديث كانت أرفع مقامًا وأكثر رقيًّا. أكثر رقيًّا بحيث لا يمكن أن تخرج للتنزُّه مع بستاني. كانت إيديث قد ذهبت إلى غُرفتها لتَستمِع إلى المسرحية نفسها التي كانت سيدتها تستمِع إليها. وقد سمعت السيدة بريت وأليس وهما تصعدان إلى غرفتيهما، لكن غرف النوم في الجناح الخلفي كانت أبعد من أن يُمكن لها أن تسمع منها أحدًا قادمًا إلى المبنى الرئيسي للمنزل؛ لذا لم تعرف إيديث متى عادت السيدة جاروبي.

وكذلك لم تسمع السيدة بريت قدوم السيدة جاروبي. فقد قالت إنَّ العائلة لم تكن تُكلِّف العاملين بأي عمل بعد العشاء. فتُقدِّم إيديث مشروبات وقت النوم، وبعد ذلك لم يكن باب الردهة المُبطَّن بالجوخ الأخضر يُفتح ثانية حتى صباح اليوم التالي. كانت السيدة بريت قد أمضتْ تسع سنوات في خدمة الآنسة فيتش، ويُمكن للآنسة فيتش أن تأتمنَها على إدارة العاملين وغرفهم.

حين تقدَّم جرانت نحو الباب الأمامي للمنزل في طريقه إلى السيارة وجد والتر ويتمور يستنِد إلى جدار الشرفة. حيَّا والتر جرانت تحية الصباح وعبَّر عن أمله أن حجج الغياب كانت مُرضِية.

بدا لجرانت أن حال والتر ويتمور كان يتدهور بصورة جلية. فقد بدا الاختلاف واضحًا بين حاله الآن وقبل عدة ساعات منذ ليلة أمس. وفكَّر جرانت في الكم الذي أسهمت به قراءة صحف هذا الصباح في الفتور الذي أصاب ملامح والتر.

فسأله: «هل طاردك الصحفيُّون؟»

«كانوا هنا بعد الإفطار مباشرة.»

«هل تحدَّثت إليهم؟»

«لقد قابلتهم إن كان هذا هو ما ترمي إليه. لم يكن بإمكاني قول الكثير. سيحصلون على الكثير من حانة فندق سوان.»

«هل أتى مُحاميك؟»

«أجل. إنه نائم.»

«نائم!»

«لقد غادر لندن في الخامسة والنصف، ورافَقَني أثناء المقابلة. كان عليه أن يُغادِر على عجل لذا لم يخلد إلى الفراش ليلة أمس حتى الساعة الثانية صباحًا. إن كنت تفهم ما أعني.»

تركه جرانت وقد اعتراه شعور بالارتياح لا مُبرِّر له وذهب إلى حانة فندق سوان. ثم صفَّ سيارته في الساحة المرصوفة بالأحجار خلف الحانة وطرق الباب الجانبي لها.

جاء صوت مزلاج يفتح محدثًا ضوضاء تنمُّ عن نفاد الصبر، ثم ظهر وجه ريف عبر الفتحة. وقال: «لن يُجدي هذا نفعًا. عليك الانتظار حتى موعد فتح الحانة.»

فقال جرانت: «باعتباري رجل شرطة، أُقدِّر هذا الازدراء من حيث مدلوله الحقيقي. لكنني أرغب في الدخول والتحدث إليك لبعض الوقت.»

قال الجندي السابق في البحرية، مازحًا بينما تقدَّمه إلى صالون الحانة: «لو أردت رأيي، أنت تبدو ضابط جيش أكثر منك رجل شرطة.» وأردف يقول: «أنت نسخة طبق الأصل من ميجور كان معنا فيما مضى. كان اسمه فاندالور. هل التقيت به من قبل؟»

لكن جرانت لم يكن قد الْتقى الميجور فاندالور.

«حسنٌ إذن، ماذا يُمكنني أن أصنع لك، يا سيدي؟ أظنُّ أن الأمر بشأن مسألة سيرل.»

«أجل. ويُمكنك أن تفعل شيئَين. أريد رأيك المدروس — وأُشدِّد على كلمة المدروس — عن العلاقة بين ويتمور وسيرل مساء يوم الأربعاء. كما أرغب في قائمة بكل الأشخاص الذين كانوا في الحانة تلك الليلة ومواعيد مغادرتهم.»

كان ريف يتحلَّى بسلوك رجل عسكري يتَّسم بالموضوعية تجاه أي حدث. لم يكن لديه رغبة في تجميل الأمر ولا أن يجعله يعكس شخصيته كما يفعل الفنان. وشعر جرانت بنفسِه يسترخي. كان الأمر أقرب إلى بالاستماع إلى تقرير أحد رجاله. قال ريف إنه لم يكن هناك أحقاد شخصية بين الرجلين. ما كان ريف ليلحظ وجودهما على الإطلاق لو لم يكُونا

مُنعزلين بفعل حقيقة أن أحدًا لم يتحرَّك من على المشرب لينضمَّ إليهما. في العادة، كان أحد الحاضرين ليتحرَّك نحوهما ليكمل محادثة كانت قد بدأت حين كانا عند المشرب معًا. لكن يوم الأربعاء كان ثمة شيء في غياب وعيهما ببقيَّة الموجودين منع الآخرين من التطفُّل عليهما.

قال ريف: «كانا ككلبَين يدور كلٌّ منهما حول الآخر. لم يكن بينهما شجار، إنما كان شعورًا عامًّا من نوعٍ ما. وكان الشجار قد يندلِع في أيِّ لحظة، إن كنت تفهم ما أقصد.»

«هل رأيتَ ويتمور وهو يُغادر؟»

«لم يره أحد. كان الشباب يتجادلون بشأن هُوية لاعب كان يلعب الكريكت لصالح أستراليا في أحد الأعوام. وقد توقَّفُوا عن جدالهم حين دوى صوت الباب، وهذا كل شيء. وحين رأى بيل مادوكس أن سيرل يجلس وحده توجه نحوه وتحدث إليه. ومادوكس يملك المرأب الذي يقع عند طرف القرية.»

«شكرًا لك. والآن أُريد قائمة بمن كانوا في الحانة.»

دون جرانت القائمة؛ كانت أسماء الموجودين معظمها من قاطني المقاطعة لم تتغيَّر منذ عهد كتاب وينشستر. وبينما كان جرانت في طريقه للذهاب إلى سيارته قال: «هل هناك صحفيُّون يمكُثُون في المكان؟»

فأجاب ريف: «ثلاثة. من صحف كلاريون، ومورنينج نيوز، وذا بوست. وجميعهم بالخارج الآن، يُحاولون استخلاص أكبر قدر من المعلومات من أهل القرية.»

قال جرانت بنبرة ساخرة: «ومن إدارة سكوتلانديارد أيضًا»، ثم انطلق بالسيارة ليلتقي ببيل مادوكس.

عند طرف القرية يقع مبنًى مرتفع مكسوٌّ بألواح خشبية مكتوب عليه بطلاء باهت: «ويليام مادوكس وابنه. نجار وصانع زوارق.» وعند إحدى زوايا المبنى وضعت علامة باللونين الأصفر والأسود اللامع تشير إلى الباحة الجانبية ومكتوب عليها كلمة واحدة: «مرأب.»

قال جرانت لبيل مادوكس بعد أن قدَّم له نفسه: «تستطيع الجمع بين أفضل ما في العالمين، حسبما أرى» ثم أشار برأسه ناحية العلامة.

«أوه، «مادوكس وابنه» تشير إلى أبي، وليس إليَّ.»

«ظننت أنك ربما تكون «الابن» المشار إليه.»

بدا بيل مبتهجًا. وقال: «أوه، لا؛ كان جدي هو «الابن» المشار إليه. هذا العمل يعود لجدي الأكبر. ونحن لا نزال أفضل النجارين في هذه الناحية من المقاطعة، رغم أنني فقط من يقول هذا. أتبحث عن المعلومات، أيها المفتش؟»

حصل جرانت على كل المعلومات التي بإمكان مادوكس أن يقدمها له، وبينما كان يهم بالرحيل قال مادوكس: «أيصادف أنك تعرف صحفيًّا يُدعى هوبكنز؟»

«هوبكنز من صحيفة كلاريون؟ لقد التقيت به من قبل.»

كان هنا طيلة ساعات هذا الصباح، أوَتعرف ما يعتقده ذلك الرجل؟ إنه يعتقد أن الأمر برمته حيلة دعائية ليلقى الكتاب الذي خططا لتأليفه رواجًا.»

كان المزيج المكوَّن من رد فعل هوبكنز المعهود عنه وملامح الذهول التي تبدو على وجه بيل أكثر مما يحتمله جرانت. فمال على السيارة وأخذ يضحك.

ثم قال: «إنها لحياة منحطَّة، حياة الصحفيين أقصد. وجامي هوبكنز منحط بالفطرة، كما يقول أحد أصدقائي.»

فرد بيل وكان لا يزال مُتحيرًا: «أوه، كنتُ سأدعوها سخيفة. سخيفة للغاية.»

«بالمناسبة، أتَعرف أين يُمكنني أن أجد سيرج راتوف؟»

«لا أعتقد أنه استيقظ من نومه بعد، لكنه لو فعل فستجده متَّكئًا على منضدة مكتب البريد. ومكتب البريد في المتجَر. في مُنتصَف الشارع. يقطن سيرج في المنزل ذي السطح المائل المجاور له.»

لكن سيرج لم يكن قد بلغ بعدُ هذه المرحلة اليومية من الوقوف إلى منضدة مكتب البريد. فقد كان في طريقه عبر الشارع من عند بائع الجرائد ويتأبَّط جريدة. لم يكن جرانت قد رآه من قبل، لكنه يعرف العلامات الدالَّة على كل مهنة بالشكل الكافي الذي يمكنه من التعرف على راقص في شوارع قرية. الملابس الفضفاضة التي تُغطِّي جسدًا من الواضح أنه هزيل، والمظهر العام الذي يُوحي بسوء التغذية، والذبول الذي يُشعِر المرء أن عضلاته لا بدَّ أنها مُترهِّلة كمطاط بالٍ. لم يكن جرانت يكف قط عن الاندهاش من مظهر الراقصين الذين يبدون كالباعة الجائلين المهمشين حين يخرجون من باب المسرح، لكنهم على خشبة المسرح مخلوقات متألِّقة تتلاعب براقصات الباليه بمجهود لا يزيد عن مجرد اصطكاك بسيط بالأسنان.

أوقف جرانت السيارة عند الرصيف حين أصبح بمُحاذاة سيرج وحيَّاه.

«السيد راتوف؟»

«هذا أنا.»

«أنا المفتِّش المحقِّق جرانت. هل لي أن أحدِّثك قليلًا؟»

فقال سيرج في لامبالاة: «الجميع يتحدث إليَّ. فلماذا قد أستثنيك؟»

«الأمر بخصوص ليزلي سيرل.»

«آه، أجل. لقد غرق. وهذا شيء مبهج.»

فقدَّم له جرانت بضع عبارات عن فضيلة الحذر.

فقال سيرج بنبرة مطولة: «آه، الحذر!». ثم أردف: «صفة رأسمالية.»

«عرفت أنك تشاجرت شجارًا عنيفًا مع سيرل.»

«لا شيء من هذا القبيل.»

«لكن ...»

«لقد ألقيتُ بكوب جعة في وجهه، هذا كل ما في الأمر.»

«ألا تُسمِّي هذا شجارًا؟»

«نعم بالطبع. أن يتشاجر المرء معناه أن يكون في مستوًى يضاهي — كيف تقولونها — يضاهي المنزلة نفسها مع خصمه. والمرء لا يتشاجر مع «العامة والدهماء». كان جدي في روسيا سيضربه بالسوط. أما هنا فهذه إنجلترا حيث الانحطاط؛ لذا ألقيتُ عليه الجعة. هذه بادرة للفت النظر، على الأقل.»

حين قصَّ جرانت هذه المحادثة على مارتا قالت: «لا أستطيع أن أتخيل ما يمكن لسيرج أن يفعله من دون جده ذلك الذي في روسيا. لقد غادر والدُه روسيا حين كان في الثالثة، وليس بإمكان سيرج أن ينطق بكلمة روسية واحدة وله أصول تعود إلى نابولي على أي حال، لكن كل خيالاته مبنيَّة على جده ذاك الذي في روسيا.»

قال جرانت لسيرج في أناة: «أنت تتفهَّم أنه من الضروري بالنسبة إلى الشرطة أن تسأل أولئك الذين كانوا على صلة بسيرل عن تحرُّكاتهم ليلة الأربعاء.»

«فعلًا؟ يا له من أمر مضجر لك. إنها لحياة تعيسة، حياة رجل الشرطة. التحركات. إنها حياة محدودة، حياة بدائية.» ثم حوَّل سيرج نفسه إلى عمود إشارة وأعمل ذراعَيه في حركة كحركة الدمي المتحركة في محاكاة ساخرة لإشارات نقاط التفتيش. وأردف يقول: «مضجرة. مضجرة للغاية. الأمر مفهوم، بالطبع، لكنه يفتقِر إلى البراعة.»

فقال جرانت: «أين كنت ليلة الأربعاء منذ الساعة التاسعة؟» وقد قرر أن اتباع نهج غير مباشر هو مضيعة للوقت.

فأجاب سيرج: «كنت أرقص.»

«أوه. في القاعة الرئيسية للقرية؟»

فبدا سيرج وكأنه على وشك أن يفقد الوعي.

«أتُشير إلى أنني، أنا سيرج راتوف، كنت أشارك في عمل فني ما؟»

«أين كنت ترقص إذن؟»

«عند النهر.»

«ماذا؟»

«إنني أعمل على تصميم رقصة باليه جديدة. وتجتاحني الأفكار هناك عند النهر في ليلة ربيعية كتلك. إن الأفكار تتفجَّر بداخلي كالينابيع. وأجد هناك الكثير من الإلهام حتى إنني أثمل من كثرتِه. يُمكنني فعل أي شيء. وأُحاول ابتداع فكرة ساحرة للغاية تتماشى مع معزوفة ماشاكو. إنها تبدأ بـ ...»

«أي جزء من النهر؟»

«ماذا؟»

«أي جزء من النهر؟»

«أنى لي أن أعرف؟ الجو العام متشابه في كافة الأنحاء.»

«حسن، هل ذهبت باتجاه أعلى النهر أم أسفله، من سالكوت؟»

«أوه، أعلاه، بكل تأكيد.»

«ولماذا «بكل تأكيد»؟»

«أنا في حاجة إلى المساحات الفضاء الشاسعة من أجل أن أرقص. وتوجد مثل تلك عند أعلى النهر. أما عند أسفل النهر من القرية فكلُّها ضفاف منحدرة وأرض تكثر فيها المحاصيل المُزعجة ذات الجذور. الجذور. أشياء قَذِرة خرقاء. إنها ...»

«أيُمكنك تحديد المكان الذي كنت ترقص فيه ليلة الأربعاء؟»

«تحديد؟»

«تُحدِّده لي.»

«أنى لي ذلك؟ أنا لا أذكر حتى أين كان.»

«أيمكنك أن تتذكَّر إذا ما كنتَ قد رأيت أحدًا هناك؟»

«لا أحد جدير بالتذكر؟»

«جدير بالتذكر؟»

«إنني أتعثر بين العشاق الذين يجلسون على العشب بين الحين والآخر، لكنهم — كيف تقولونها — جزء من العرض. إنهم جزء من الـ ... البيئة. ليسوا جديرين بالتذكُّر.»

«إذن، أتذكر الوقت الذي غادرت فيه ضفَّة النهر ليلة الأربعاء؟»

«آه، أجل، أتذكَّر ذلك تمامًا.»

«متى غادرت؟»

«حين سقط الشهاب.»

«ومتى كان ذلك؟»

«أنى لي أن أعرف؟ أنا لا أحبُّ الشُّهُب. إنها تُصيبني بالقلق. رغم أنني فكرتُ في أنه من الرائع أن تنتهيَ رقصتي بشهاب. قفزة «سبيكتر دي لا روز»، ستجعل المدينة لا تتوقَّف عن الحديث، وستريهم أنني ما زلت ...»

«سيد راتوف، أيُمكنك أن تقترح كيف انتهى الحال بليزلي سيرل في النهر؟»

«كيف انتهى به الحال؟ لقد سقط، حسبما أظن. يا للخسارة. إنه تلوُّث. النهر جميل للغاية وينبغي أن نحافظ عليه من أجل الأشياء الجميلة. أوفيليا. شالوت. أتعتقد أن شالوت يمكن أن تؤلف رقصة؟ بكل تلك الأشياء التي تراها في المرآة؟ إنها لفكرة، أليس كذلك؟»

هنا استسلم جرانت.

ترك جرانت سيارته حيث كانت وسار عبر الشارع إلى حيث الواجهة الحجرية لمنزل هو هاوس التي تختلف عن الجملونات الجبسية لبيوت القرية ذات الألوان الوردية والفضية والصفراء. وقف المنزل على الرصيف مثل الأكواخ الأخرى، لكن الطابق الأرضي منه كان مُرتفعًا عن مستوى الشارع بثلاث درجات. وقد نأى المنزل بنفسه قليلًا، في استعلاء طبيعي تمامًا عن الأحداث اليومية. وبينما كان جرانت يسحب الجرس ذا الطراز الفيكتوري في دائرته النحاسية اللامعة جال في ذهنه أن يبارك الرجل — أيًّا كان هو — الذي كان مسئولًا عن إعادة إحياء ذلك المكان. لقد حافظ على هيكله لكنه لم يُحاول أن يُعيده إلى شكله الأصلي ومن ثم يجعل منه متحفًا؛ كانت مظاهر القرون الماضية بادية في المكان، من السلَّم وحتى الجرس النحاسي. من الواضح أن قدرًا كبيرًا من المال قد أُنفِق لكي يصبح المنزل في حالة التميز التي هو عليها الآن، وتساءل جرانت إن كان إنقاذ منزل هوو هاوس كافيًا لتبرير وجود توبي توليس.

فتح الباب خادم لربما كان قد خرج من إحدى مسرحيات توبي. وقد وقف في المدخل في كياسة لكنه لم يسمح بالدخول؛ كما لو كان متراسًا بشريًّا.

قال الخادم ردًّا على استفسار جرانت: «لا يُقابل السيد توليس أحدًا قبل الغداء.» ثم أردف: «إنه يعمل في الصباح. أما عن مواعيد مقابلة الصحفيين فهي عند الثانية ظهرًا.» وشرع يحرك يده نحو الباب.

هنا قال جرانت بنَبرة لاذعة: «هل أبدو لك صحفيًّا؟»

«في الواقع، لا، لا يسعُني أن أقول ذلك، يا سيدي.»

فقال جرانت فجأة بنَبرة لَبِقة: «ألا يجدُر بك أن تحمل صينية صغيرة؟»

استدار الرجل في خضوع وأخذ حاملة بطاقات فضية من خزانة على الطراز الجاكوبي في الردهة.

وضع جرانت قطعة من ورق الكرتون المقوَّى على الحاملة وقال: «قدِّم تحياتي إلى السيد توليس وقل له إنني سأكون شاكرًا لو حصلت على ثلاث دقائق من وقته.»

فقال الرجل: «بكل تأكيد يا سيدي» ولم يسمح لعينه أن تشرد بالقرب من البطاقة الورقية حتى. وأضاف: «هلا تكرمت ودخلت الردهة وانتظرت.»

اختفى الرجل داخل حجرة في الجزء الخلفي من المنزل، وأغلق الباب خلفه على صوت ثرثرة لا تليق. لكنه عاد في غضون لحظات. طلب من المفتش جرانت التفضل بالدخول من هنا. سيُسر السيد توليس كثيرًا للقائه.

وجد جرانت أن الغرفة في الجزء الخلفي من المنزل تطلُّ على حديقة كبيرة تنحدر حتى ضفة النهر؛ كان عالمًا آخر يختلف تمامًا عن شارع القرية الذي تركه جرانت خلفه. كانت غرفة جلوس مفروشة بأفضل «تحف» رآها جرانت خارج المتاحف. وقد جلس توبي خلف مجموعة من فناجين القهوة الفضية مُرتديًا رداء نوم لافت للنظر؛ ويحوم خلفه في ثياب نهارية أكثر تميزًا شاب غر متحمِّس يمسك بمفكرة. ومن الحالة الجديدة للمُفكِّرة، بدت وكأنها شارة تعريف وظيفة أكثر منها أداة من أدوات المهنة.

قال توبي مُحييًا إياه: «أنت مُتواضِع، أيها المفتِّش!»

«مُتواضِع؟»

«ثلاث دقائق! حتى الصحفيون يتوقَّعُون الحصول على عشرة.»

كان الغرض من هذه الجملة هو الإطراء على جرانت، لكن تأثيرها كان مجرَّد تذكير بأن تُوبي هو أكثر شخص يجري مقابلات في العالم الذي يتحدَّث بالإنجليزية، وأن وقتَه ثمين. وكعادته، كان ما فعله توبي «نشاز» بعض الشيء.

قدَّم توبي الشاب باسم جايلز فيرلين، سكرتيره الخاص، ثم عرض على جرانت فنجانًا من القهوة. فقال جرانت إن الوقت الآن مُتأخِّر جدًّا ومُبكِّر جدًّا في الآن نفسه لتناول القهوة، لكن ليتفضَّل السيد توليس بمتابعة تناول إفطاره؛ وقد فعل.

قال جرانت: «إنني أحقق في اختفاء ليزلي سيرل. وأخشى أن في هذا شيئًا من الإزعاج للأشخاص الذين كانوا على صِلَة بعيدة به. فعليَّ أن أطلب من كل شخص في سالكوت كان على معرفة بسيرل أن يُبرِّر غيابه ليلة الأربعاء، وذلك بقدر ما يُمكنهم.»

«أيها المفتش، إنك تُقدِّم لي سعادة بالغة لم آمُل قطُّ أن أنعم بها. لطالَما رغبت بشدة في أن يسائلني أحد عمَّا كنت أفعله في التاسعة والنصف ليلة الجمعة التي تُوافِق الثالث عشر من الشهر، لكنني لم أجرؤ فعلًا على أن يحدُوني أمل بأن يحدث هذا.»

«الآن وقد حدث ذلك، آمل أن تكون حُجة غيابك مناسبة لهذا الحدث.»

«إنها تتميز بالبساطة على الأقل. لقد أمضيت أنا وجايلز ساعات تلك الأمسية الجميلة في مناقشة المشهد الأول من الفصل الثاني من المسرحية، وهذا أمر مُمل، أيها المفتش، إلا أنه ضروري. فأنا رجل أعمال.»

انتقل جرانت ببصرِه من رجل الأعمال إلى جايلز، وقرر من حالة الانضباط الراهنة التي تبدو عليه أن الشاب قد يعترف بالجريمة إذا كان هذا يسرُّ توبي. ومن ثم سيصبح تقديم شيء بسيط كحجة غياب مجرد أمرٍ روتيني.

فقال جرانت: «والسيد فيرلين يؤكد صحة هذا، بالطبع.»

قال جايلز وهو يسرف في التأكيدات لصالح رب عمله: «أجل، أوه أجل، بالطبع؛ بالطبع أؤكِّد صحة هذا؛ أجل.»

أكمل توبي وهو يرتشف القهوة: «إنه لأمر مأساوي في الواقع، أمر غرقه ذلك. إنَّ مجموع كل ما هو جميل في هذا العالم ليس بالكثير بحيث يمكن لنا أن نتحمل كلفة خسارة أي منه. نهايته كانت على طراز نهايات شيلي، وهي بالطبع ملائمة في هذا الإطار. أتعرف نصب شيلي التذكاري في أكسفورد، أيها المفتش؟»

كان جرانت على علم بالنصب التذكاري وكان يُذكِّره بدجاجة أُفرط في سلقها، إلا أنه أحجم عن قول ذلك. ولم يكن توبي كذلك يتوقع إجابة.

«إنه لشيء جميل. من المؤكد أن الموت غرقًا هو الطريقة المثلى للخروج من هذه الحياة.»

«بعد أن عاينت عن قرب مجموعة كبيرة ومتنوعة من الجثث التي تُستخرَج من الماء، لا أستطيع القول إنني أتَّفق معك.»

صوَّب توبي نحوه نظرة تنمُّ عن المفاجأة وقال: «لا تُحطِّم خيالاتي أيها المُفتِّش. أنت أسوأ من سيلاس ويكلي. فدائمًا ما يُشير سيلاس إلى قبح الحياة. بالمناسبة، هل حصلت على حجة غياب سيلاس؟»

«ليس بعد. أعرف أنه كان بالكاد يعرف السيد سيرل.»

«ما كان لهذا أن يُوقفه. ولم يكن لي أن أعجب إن فعلها كلمحة من اللمحات التي تضفي على القصة صبغة محلية واقعية.»

«صبغة محلية واقعية؟»

«أجل. فوفقًا لسيلاس، يُمثِّل وجود الريف إحدى بؤر الاغتصاب والقتل وسفاح المحارم والإجهاض والانتحار، وربما ظن سيلاس أن الوقت قد حان كي تنحدر سالكوت سانت ماري إلى فكرته عن الريف. أتقرأ لسيلاس، أيها المفتِّش؟»

«أخشى أنني لم أفعل.»

«لا تعتذر. إنه ذوق مكتسب. وحتى زوجته لم تكتسِب ذلك الذوق بعد، إن كانت جميع الأخبار صحيحة. لكن يا لها من مسكينة، إنها مشغولة بالرضاعة والمُعاناة حتى إنها لا تحظى على الأرجح بوقت فراغ للتفكير في الأشياء المجرَّدة. لا يبدُو أن أحدًا قد أشار عليها بإمكانية منع الحمل. بالطبع ينظر سيلاس لأمر الخصوبة «نظرة خاصة». إنه يعتقد أن أسمى وظيفة للمرأة هي إنتاج الذُّريَّة. ألا تشعر أن هذا مؤسف كثيرًا ومخيب لآمال النساء، أن يقارنَّ بالأرانب، وأن يعلمن أنهن حتمًا سيُعتبرن منقوصات. الحياة، بالخصوبة الناتجة من القُبح. هكذا يرى سيلاس الحياة. إنه يكره الجمال. فالجمال بالنسبة إليه إثم. لا بدَّ له أن يسحقه ويجعله خصبًا. ثم يجعل منه مهادًا. إنه مجنون بعض الشيء بالطبع، ذاك التعيس، لكنه جنون من نوع مربح للغاية؛ لذا لا حاجة إلى الأسى عليه لذلك. فأحد أسرار الحياة الناجحة هو أن يعرف المرء كيف يصبح مجنونًا بشكل يدرُّ عليه ربحًا.»

تساءل جرانت في نفسه إن كان هذا مجرد عينة طبيعية من ثرثرة توبي، أم إنه كان حديثًا يرنو إلى شحذ سكينه على سيلاس ويكلي. فحين تكون شخصية المرء بأسرها مظهرًا زائفًا — كما هو الحال مع توبي توليس — يصعب تحديد مقدار الزيف الذي يُمثِّل حاجزًا دفاعيًّا ومقداره الذي يمثل مجرد واجهة للدعاية.

بعد ذلك قال: «أنت لم ترَ سيرل قط مساء الأربعاء، أليس كذلك؟»

كلا، لم يكن توبي قد رآه. فقد كان وقت ذهابِه للحانة قبل العشاء وليس بعده.

«لا أريد أن أكون مُتطفِّلًا، أيُّها المفتِّش، لكن يبدو لي أن هناك ضجة لا داعي لها على حادث غرق بسيط.»

«ولم الغرق تحديدًا؟»

«ولم لا؟»

«ليس لدينا أيُّ دليل على أن سيرل قد أغرق، ولدينا بعض الأدلة الحاسمة إلى حدٍّ ما تُشير إلى أنه لم يغرق.»

«أنه لم يغرق؟ أي دليل لديكم على ذلك؟»

«لقد مسحنا النهر مسحًا مكثفًا بحثًا عن جثَّته.»

«أوه، ذاك!»

«إن ما نُحقِّق فيه، يا سيد توليس، هو اختفاء رجل في سالكوت سانت ماري مساء يوم الأربعاء.»

«ينبغي عليك حقًّا، أيها المفتِّش، أن تلتقيَ بالقس. فهو يملِك الحلَّ المثالي لك.»

«وما هو ذاك؟»

«يعتقد القسُّ العزيز أن سيرل لم يكن هنا على الإطلاق. إنه يعتقد أن سيرل كان مجرَّد شيطان وأنه اتَّخذ هيئة البشر لبعض الوقت واختفى حين أصبحت المُزحة مُبتذَلة أو … حين نضب مصدرها إن جاز التعبير.»

«شيء مُثير للغاية.»

«أعتقد أنك لم ترَ سيرل من قبل أبدًا، أيها المفتِّش؟»

«بلى. لقد التقيت به.»

تفاجأ توبي جراء هذا كثيرًا لدرجة أن جرانت وجد ذلك أمرًا مُسليًا.

وقال: «لقد حضر الشيطان حفلًا في بلومزبري، قبل أن يأتيَ إلى سالكوت مباشرة.»

«عزيزي المفتِّش، «لا بدَّ لك» أن تلتقي بالقس. فهذه المساهمة بالميل نحو تفسير الأمر بتجسد الشياطين في هيئة البشر لها قيمة نفيسة في البحث.»

«لماذا سألتني إن كنت قد رأيت سيرل من قبل؟»

«لأنه كان كما قد يتخيَّله المرء تمامًا إن كان شيطانًا مُتجسِّدًا في بشر.»

«تقصد وسامته؟»

فقال توبي في نبرة اختلط فيها التحدِّي بالسخرية: «أكانت المسألة مسألة وسامة فقط؟»

رد جرانت: «كلا. كلا.»

فسأل توبي: «أتظنُّ أن سيرل كان مجرمًا؟» ناسيًا المظهر الزائف للحظة فانزلق إلى اللغة الدارجة بعيدًا عن الحذلقة.

«ليس هناك أي دليل في هذا الشأن.»

قال توبي: «آه، اعذرني» مُستعيدًا المظهر الزائف بتنهيدة ساخرة عابرة. وأضاف: «إنه جدار الحذر البيروقراطي المجرد. لم يتبقَّ لي في الحياة سوى بضعة طموحات، أيها المفتش، لكن أحدها هو رغبة حارة في معرفة الدافع الأساسي لدى ليزلي سيرل.»

فقال جرانت وهو يهمُّ بالوقوف استعدادًا للرحيل: «إن عرفت ذلك، فستكون هناك فرجة في جدار الحذر البيروقراطي كافية لأن تجعلني أخبرك.»

ثم وقف ينظر لحظةً إلى الخارج على الحديقة الساطعة بوميض النَّهر في الجهة الأخرى.

وقال: «قد يكون هذا منزلًا ريفيًّا بعيدًا عن كل شيء مسافة أميال.»

ردَّ توبي أن هذا هو أحد العوامل الساحرة في منزل هوو هاوس، لكن معظم الأكواخ التي تقع على جانب النهر من الشارع تحظى بحديقة تمتد حتى النهر بالطبع، إلا أن معظمها تحول إلى مخصَّصات أو بساتين سوقية من نوع ما. إن العناية بأرض منزل هوو هاوس وما عليها من مروج وشجر هو ما جعله يبدو رحبًا.

«كما أن النهر يُمثل حدًّا من دون أن يخرب المنظر. إن ذاك النهر لنعمة ونقمة مع الأسف.»

«تقصد البعوض؟»

«لا؛ بل تعتريه بين الحين والآخر رغبة عارمة في الدخول إلى المنزل. وينجح في ذلك مرةً واحدة كل ست سنوات. لقد استيقظ مدير المنزل ذات صباح في الشتاء الماضي ووجد القارب ينقر على نافذة حجرة النوم.»

«ألديك قارب؟»

«إنه قارب مزوَّد بمحرك صغير. قارب بنط يسرني أن أستلقي عليه في ظهيرة الأيام الصيفية.»

شكره جرانت على تعاونه، واعتذر إليه مرة أخرى على تطفُّله على إفطاره، وانصرف. وقد أظهر توبي أمارات على رغبته في أن يُريَه المنزل، إلا أن جرانت تجنَّب ذلك لثلاثة أسباب: كان أمامه عمل يقوم به، وأنه كان قد رأى معظم أجزاء المنزل بالفعل في الصحافة المصورة، بالإضافة إلى أنه شعر بتردُّد تجاه أن يعرض عليه أفضل ما قدَّمتْه حرفة المعمار في العالم من أعمال من قِبَل مُتحدِّث بارع كتوبي توليس.

الفصل الثاني عشر

كان سيلاس ويكلي يقطن كوخًا على الزقاق الذي يؤدِّي إلى منحنى النهر البعيد. أو بالأحرى، على الطريق الذي كان يبدأ سالكُه بالتوجُّه نحو النهر. ويلتفُّ الزقاق، حين يلتقي بالحُقول، بزاوية قائمة على طول الجزء الخَلفي من القرية، ثم يعود ليعتدلَ مرةً أخرى ليلتقيَ بشارع القرية. إنه زقاق داخلي بالكامل. وفي آخر الأكواخ أمام الحقول كان سيلاس ويكلي يعيش، وحين تقدَّم جرانت نحو الكوخ بهيئة رجل الشرطة، تفاجأ حين وجده مسكنًا رديئًا للغاية. لم يكن الأمر وحسب أن سيلاس ويكلي كان من بين أكثر الكتاب مبيعًا؛ ومن ثم بإمكانه تحمُّل كُلفة منزل جذاب أكثر من هذا، بل إن جرانت لم يجد أدنى محاولة لتجميل المكان؛ لم يكن هناك سخاء في استخدام الطلاء كما فعل قاطنُوا الأكواخ الأخرى ليجعلوا شارع سالكوت سانت ماري يسر أعين الناظرين. لم يكن هناك نباتات على النَّوافِذ ولا ستائر مزركشة. وكان جو الكوخ يدلُّ على البؤس الشديد، الأمر الذي كان غريبًا بالمقارنة مع ما يحيط به من أكواخ.

كان باب الكوخ مفتوحًا وقد انبعث منه إلى الصباح المشمس بكاء طفل رضيع وصياح ولد صغير مُمتزج كلٌّ منهما بالآخر. وكان في الشرفة حوض مطليٌّ بالمينا به ماء متَّسخ، تخرج منه فقاعات الصابون واحدة تلو الأخرى في استكانة بطيئة. وقد ألقيت على الأرض دمية حيوان مصنوعة من فراء ناعم، مهترئة ومتسخة إلى حد لا يتسنى معه معرفة الحيوان الذي تتَّخذ هيئته. لم يكن هناك أحد داخل الغرفة التي يُفضي إليها الباب في اللحظة الراهنة، فوقف جرانت يُعاينها في شيء من التعجب والاندهاش. كانت الحجرة مفروشة بأثاث رديء، كما كانت قَذِرة وفوضوية على نحوٍ يفُوق الوصف.

استمرَّ انبعاث البكاء والصياح من غرفة ما في الجزء الخلفي من الكوخ؛ لذا طرَق جرانت على الباب الأمامي طرقًا عاليًا. وعند الطَّرقة الثانية منه أتاه صوت امرأة تقول: «اتركها عندك وحسب، شكرًا لك». وعند طرقته الثالثة التي ألحقها بنداء، خرجت المرأة من ظلام الجزء الخلفي من الكوخ وتحركت نحوه تطالعه.

قال جرانت في تردُّد: «السيدة ويكلي؟»

«أجل، أنا السيدة ويكلي.»

لا بدَّ أنها كانت جميلة فيما مضى. جميلة ولبيبة؛ ومستقلَّة. تذكَّر جرانت أنه سمع في مكان ما أن ويكلي كان قد تزوَّج بمعلمة بمدرسة ابتدائية. كانت المرأة ترتدي مئزرًا فضفاضًا على قميص عليه حروف مطبوعة، وحذاءً قديمًا من النوع الذي تعتاده المرأة كونه مناسبًا بما يكفي للقيام بالأعمال المنزلية أثناء ارتدائه. ولم تكترث لارتداء جورب على الحذاء، الذي خلَّف على جلد قدمَيها بقعًا وعلامات. وكان شعرها غير المموج مسحوبًا للخلف في عقدة مشدودة يائسة، لكن الخصل الأمامية من شعرها كانت أقصر من أن تبقى مقيَّدة بالعُقدة طويلًا فكانت الآن تتدلَّى على جانبَي وجهها. وكان وجهها طويلًا بعض الشيء ويبدو عليه الإنهاك.

قال جرانت إنه يرغب في لقاء زوجها قليلًا.

استوعبت المرأة الطلب ببطء فقالت: «أوه»، وكأنَّ عقلها كان لا يزال مع الأطفال الباكين. ثم قالت بشكلٍ مُبهَم: «آسفة أن المكان غير مرتَّب.» بعدها أردفت: «لم تأتِ الفتاة التي تجيء من القرية لمساعدتي اليوم. وهي لا تأتي في الغالب. الأمر يتوقَّف على مزاجها وحسب. ومع وجود الأطفال من الصعب ... لا أظنُّ أن بإمكاني إزعاج زوجي في منتصف ساعات الصباح.» وتساءل جرانت في ذهنِه إن كانت المرأة تظنُّ أن الأطفال لا يتسبَّبون في إزعاج على الإطلاق. «إنه يُزاول الكتابة في الصباح.»

«فهمت. لكنكِ لو أعطيتِه بطاقتي، أظنُّ أنه سيلتقي بي.»

«هل أنت من الناشرين؟»

«كلا، إنما ...»

«إذن أظنُّ أن من الأفضل أن تنتظر، وألا تُقاطعه. يُمكنه أن يلتقيَك في حانة سوان، أليس كذلك؟ ربما قبل وقت الغداء.»

«لا، أخشى أنني لا بدَّ أن ألتقيَ به، فالمسألة ...»

«من المهم كثيرًا ألا يُقاطعه أحد. فهذا يقطع عليه سيل أفكاره، وحينها يجد صعوبة في ... في العودة. إنه يكتب ببطءٍ شديد ... أقصد بتأنٍّ ... أحيانًا يكتب فقرة واحدة في اليوم، إذن فأنت تدرك الآن أن ...»

فقال جرانت في صرامة: «سيدة ويكلي، من فضلك أعطي بطاقتي لزوجك وأخبريه أنني لا بدَّ لي أن ألتقيَ به، أيًّا كان ما يفعله.»

وقفت المرأة والبطاقة بين أصابعها، ولم ترمقْها ولو بنظرة سريعة حتى، من الواضح أن عقلها كان مشغولًا بالبحث عن عُذرٍ مُقنِع له. وفجأةً أدرك جرانت أنها كانت خائفة من إعطاء زوجها البطاقة. كانت تخشى أن تقاطعه.

ولكي يُساعدَها، قال لها إنه لن تكون هناك مقاطعة لزوجها إذ إن الأطفال يُصدِرُون ضجيجًا كبيرًا. ومن الصعب أن يكون زوجها في كامل تركيزه الآن.

فقالت: «أوه، إنه لا يعمل هنا. أقصد في المنزل. إنَّ لديه منزلًا صغيرًا خاصًّا به في آخر الحديقة.»

استعاد جرانت البطاقة التي كانت تُمسك بها، وقال مُبتسمًا: «هلا أرشدتِني إليه، يا سيدة ويكلي؟»

أرشدته السيدة ويكلي في صمت عبر مطبخ مُظلِم حيث جلَس ولد صغير مباعدًا بين ساقَيه على الأرض ومنخرطًا في البكاء، ورضيع في عربة أطفال يبكي بعنف شديد. وراء ذلك في الحديقة التى يغمرها نور الشمس كان هناك صبيٌّ يبلُغ من العمر ثلاثة أعوام أو نحو ذلك يُلقي بأحجار من المَمر المفروش بالحصى على بابٍ خشبيٍّ لمرحاض خارجي، عمل غير مُثمِر إلا أنه ينتُج عنه ضوضاء مقبولة.

قالت السيدة ويكلي بتلقائية: «توقف عن ذلك يا فريدي» وأكمل فريدي إلقاء الأحجار على الباب بنفس التِّلقائية.

كانت الحديقة الخلفية تتَّخذ شكل قطاعٍ رفيع وطويل من الأرض يمتدُّ إلى جوار جانب الزقاق الخلفي، وفي نهايتها، بعيدًا عن المنزل، يقَعُ كشكٌ خشبي. أشارت السيدة ويكلي نحوه وقالت:

«هلا ذهبت وقدَّمت نفسك إليه؟ سيأتي الأطفال من المدرسة ليتناولوا وجبة الغداء وهي ليست جاهزة.»

فقال جرانت: «الأطفال؟»

«أجل، الثلاثة الكبار. لذا اذهب بنفسك إن كنت لا تُمانع.»

فقال جرانت: «كلا، بالطبع لا أمانع.» في الواقع، ثمة أشياء قليلة من شأنها أن تسرَّه كمُقاطَعة سيلاس ويكلي الشهير هذا الصباح، لكنه أحجم عن قول ذلك لزوجتِه.

طرق جرانت مرتَين على باب الكشك الخشبي — ذي المظهر الجيِّد للغاية — من دون رد؛ ومن ثمَّ فتح الباب.

التف سيلاس ويكلي من على الطاولة التي جلس عليها يكتب وقال: «كيف تجرُؤين على الدخول إلى ...» وبعدها صمت حين رأى جرانت. من الواضح أنه توقَّع أن تكون المتطفلة هي زوجته.

ثم قال على نحو يفتقد إلى قواعد اللياقة: «مَن أنت؟ إن كنتَ صحفيًّا فستجد أن هذه الوقاحة لا تُجدي. هذه مِلكية خاصة وأنت تنتهكُها.»

رد جرانت: «أنا المفتش المحقِّق جرانت من إدارة سكوتلانديارد» وراح يُشاهدُه وهو يتلقى الخبر.

بعد لحظات استعاد سيلاس السيطرة على فكه السفلي مرة أخرى وقال: «وماذا تُريد، هل لي أن أسألك؟» كانت تلك محاولة منه كي يبدو عدوانيًّا لكنها لم تكن مقنعة.

ألقى جرانت على مسامعه عبارته الرسمية عن التحقيق في اختفاء ليزلي سيرل وعن التمحيص في تحركات كل أولئك الذين كانوا على معرفة بسيرل، ولاحظ بالجزء غير المشغول من عقلِه أن الحبر على الورقة التي كان ويكلي يكتبها لم يكن جافًّا وحسب، وإنما كان داكنًا. كان حبر البارحة. لم يكن ويكلي قد كتب ولو سَطرًا واحدًا هذا الصباح رغم أن الساعة الآن قد تجاوَزَت الظهيرة.

ولدى ذكر سيرل بدأ ويكلي تهجُّمًا لاذعًا ضد الهواة الأثرياء، وهو الأمر الذي وجده جرانت — في ضوء ما يتحصَّل عليه ويكلي من دخل والمجموع الإجمالي لمبلغ العمل الصباحي — غير ملائم. قاطعه جرانت وسأله عما كان يفعلُه ليلة الأربعاء.

«وإن اخترت ألا أخبرك؟»

«سأسجِّل رفضك وأنصرف في سبيلي.»

لم يرُق ويكلي وقْع هذا؛ لذا غمغم بشيء عن كونه يتعرَّض لمُضايقات مستمرة من الشرطة.

فقال جرانت: «كل ما أفعله هو أنني أطلب تعاونك كمُواطن. وكما أشرت، من حقك أن ترفض التعاون.»

قال سيلاس مُتجهِّمًا إنه كان يمارس عمله في الكتابة ليلة الأربعاء منذ وقت العشاء إلى ما بعده.

فسأله جرانت على نحو مباشر: «هل هناك أي شاهد على ذلك؟»

«زوجتي، بالطبع.»

«كانت هنا معك؟»

«كلا، بالطبع لم تكن معي. كانت في المنزل.»

«وكنتَ هنا وحدك؟»

«أجل.»

فقال جرانت: «شكرًا لك، وطاب صباحُك»، ثم خرج من الكشك وأغلق الباب خلفه في صرامة.

بدا نسيم الصباح مُنعشًا ولطيفًا. لم تكن الرائحة النفاذة للحليب المتقيَّأ وخِرَق غسل الصحون الجافة التي كانت مُعلَّقة في أرجاء المنزل بشيء يُذكر مقارنة برائحة الرجل الكريهة التي تملأ المكان حيث يعمل سيلاس ويكلي. وبينما كان يسير عائدًا نحو المنزل تذكر جرانت أن «الروائع» الحالية المكتوبة بالإنجليزية كانت تأتي من ذلك العقل البائس المشوش. ولم تنجح هذه الفكرة في تهدئته. فتفادى جرانت المنزل الكئيب حيث أوضحت قعقعة المقالي المُهتزَّة انشغال ربته (ولم يستطِع جرانت أن يتوقف عن التفكير في أن تلك الأصوات بينها تناسق مناسب)، فدار حول المنزل من جانبه إلى البوابة الأمامية ورافقه فريدي خلال ذلك.

قال جرانت: «مرحبًا فريدي» وكان يشعر بالأسف تجاه الصبي المصاب بالملل.

فقال فريدي من دون أي حماس: «مرحبًا.»

«ألا تُوجد لعبة أكثر إثارة من إلقاء الحجارة على الباب؟»

فقال فريدي: «كلا.»

«أما كنت ستجد لعبةً لو بحثت عنها؟»

فقال فريدي بنبرة حاسمة باردة: «كلا.»

وقف جرانت يتأمَّله لحظة.

ثم قال: «لن يكون هناك أي شكٍّ أبدًا حيال نسبك لوالدك، يا فريدريك»، ثم سار مبتعدًا عبر الزقاق إلى حيث ترك سيارته.

عبرَ هذا الزقاق كان ليزلي سيرل قد سار ليلة الأربعاء، مُودِّعًا المجموعة التي كانت تُرافقُه في شارع القرية. وقد مرَّ بكوخ ويكلي إلى حيث تُفضي درجات سلم إلى أول الحقول التي تمتد بين القرية ومنحنى النهر.

على الأقل هذا ما يمكن التسليم بأنه قد فعله دون تشكيك.

من الممكن أن يكون قد سار عبر الزقاق الخلفي وخرج إلى شارع القرية مرة أخرى. لكن من المؤكد أن هذا لم يكن منطقيًّا. فلم يرَه أحد بعد ذلك في القرية أبدًا. لقد دلف إلى ظلمة الزقاق ثم اختفى.

كان توليس قد قال عن سيلاس ويكلي إن به مسًّا من الجنون. لكن جرانت لم يجدْ سيلاس ويكلي مجنونًا. لكن ربما كان ساديًّا. وفي حكم المؤكَّد أنه مُصاب بجنون العظمة. إنه رجل مريض بغرور خبيث. لكنه لم يكن مجنونًا بالفعل.

أم إنَّ الطبيب النفسي كان سيظن ظنًّا مختلفًا؟

ذات مرة قال أحد أشهر الأطباء النفسيين في البلاد إنَّ تأليف كتاب يعني أن يبوح المرء بما في أغوار نفسه. (وقد قال شخص آخر الأمر نفسه لكن بفِطنة وبلاغة أكبر، لكن في هذه اللحظة لم يكن بمقدور جرانت أن يتذكَّر من كان.) قال الطبيب النفسي إن كل سطر من أسطر الكتاب يحمل إفشاءً غير واعٍ. وتساءل جرانت ماذا سيُصبح حكم الطبيب النفسي بعد أن يقرأ إحدى دفقات سيلاس ويكلي ومؤلفاته الخبيثة؟ هل سيقول إنه فيض من عقل تافه، أم اهتياج من غروره؟ أم إنه اعتراف بالجنون؟

فكَّر جرانت برهة في أن يعود إلى حانة سوان وأن يُهاتف قسم شرطة ويكهام من هناك، لكن الحانة ستكون الآن مزدحمة كما أن الهاتف أبعد ما يكون عن كونه موثوقًا. فقرَّر العودة إلى ويكهام وأن يتناول غداءه هناك، بحيث يُمكِن له رؤية المفتِّش رودجرز في وقت راحته وكذلك الحصول على أيِّ رسائل من المقر الرئيسي تنتظر أن يتسلَّمها.

في ويكهام، وجد جرانت أن الرتب الرفيعة في قسم الشرطة تستعدُّ للمغادرة لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، وأن الرتب الأدنى تستعدُّ لنشاط ليلة السبت الأسبوعي. ولم يكن لدى رودجرز الكثير ليقوله — إذ لم يكن كثير الكلام قطُّ — ولم يكن لديه كذلك شيء ليبلغ به. فقد قال إن اختفاء سيرل هو حديث ويكهام، بعد أن جعلت الصحف الصباحية من الأمر نبأً عامًّا؛ لكن أحدًا لم يأتِ إلى الشرطة ليُبلغ بأنه رآه.

قال رودجرز بنبرة جافة: «ولا حتى أحد «المجانين» ليقرَّ بالجريمة.»

فقال جرانت: «حسنًا، سيُصبح ذلك تغييرًا رائعًا.»

رد رودجرز في استسلام: «سيأتي، سيأتي»، ودعا جرانت لتناول الغداء معه في المنزل. لكن جرانت فضَّل أن يتناول طعامه في فندق وايت هارت.

كان يجلس في غرفة الطعام في وايت هارت يتناول الغداء المُتواضِع على وفرته الذي قدموه له، حين توقفت الموسيقى الصادرة من الراديو في المطبخ، وسرعان ما أتى صوت المذيع، لبقًا بصورة غريبة، بين جلبة الأواني.

«قبل إذاعة الأخبار، إليكم رسالة من الشرطة. إلى أيِّ شخص قدم توصيلة لشاب في ليلة الأربعاء على الطريق بين ويكهام وكروم في أورفوردشير أو أي مكان في تلك المنطقة، يرجى التواصل مع إدارة سكوتلانديارد ...»

وردد عمال المطبخ في مرحٍ: «اتصل بالحكومة البريطانية في وايتهول ١٢١٢.»

وبعد ذلك راح عُمَّال المطبخ يتحاورون في صخب مُرتفِع حول ذلك الخبر الجديد المثير.

أكل جرانت الكعكة المحشوة بالمربى من دون شهية وخرج مرةً أخرى إلى ضوء النهار المشمس. أضحت الشوارع مهجورة وقد كانت تعجُّ بمُتسوِّقي يوم السبت حين دخل ليتناول غداءه، كما أغلقت المحال أبوابها. فقاد جرانت سيارته إلى خارج المدينة وهو يتمنَّى لو أن بإمكانه الذهاب لصيد السمك. كيف اختار مهنة ليس بإمكانه خلالها أن يحصُل على إجازة في فترة ما بعد الظهر يوم السبت؟ كان معظم الناس الآن في حلٍّ من أمرهم أن يسترخوا ويستمتعُوا بهذه الفترة المشمسة، بينما كان عليه أن يُمضيَها متجولًا في الأرجاء طارحًا أسئلة لم تكن تقوده إلى أي شيء.

قاد جرانت السيارة عائدًا إلى سالكوت في حالة تُخمة ذهنية، ولم يسرَّه قليلًا إلا صحبة دورا سيجينز. كان جرانت قد أقلَّ دورا من على الزقاق الطويل المستقيم الذي يُحيط به سياج شجري ويمتدُّ مسافة ميل أو أكثر بمحاذاة النهر خارج حدود البلدة تمامًا. رأى جرانت جسدًا مُتثاقلًا على مسافة بعيدة فظنَّ أنه شابٌّ يحمِل صندوق أدوات، لكن حين اقترب منه أكثر وأبطأ سرعتَه استجابة لإبهامه المرفوع، اكتشف أنها فتاة ترتدي بذلة عمل من الجينز الأزرق وتحمل حقيبةَ تسوُّق. ابتسمت له الفتاة ابتسامة جريئة وقالت:

«لقد أنقذتَ حياتي! لم أستطع اللحاق بالحافلة لأنني كنت أشتري حذاءً من أجل الحفل الراقص الليلة.»

رد جرانت وهو ينظر إلى الصندوق الذي كان من الواضح أنه يأبى الدخول في الحقيبة التي تعج بالأشياء: «أوه، أهو حذاء زجاجي؟»

فأجابت وهي تغلق الباب خلفها وتتلوى في المقعد لتجلس مستريحة: «لستُ من ذلك النوع. لست من أولئك الذين يتحتَّم عليهم العودة إلى المنزل قبل منتصف الليل. بالإضافة

إلى أن الحذاء لم يكن زجاجيًّا على الإطلاق. بل كان من الفراء. الفراء الفرنسي، أو شيء من هذا القبيل. تعلمنا ذلك في المدرسة.»

تساءل جرانت في سرِّه إن كان هناك أي مجال للتخيل قد ترك للأجيال الحديثة. كيف سيبدو العالم من دون خيال؟ أم إنَّ الوهم المغري المتأصل لدى الطفل المعاصر بأنه مهم أيما أهمية يحل محلَّ الخيالات المبكرة المجرَّدة؟ وقد ساعدت تلك الفكرة في تحسين حالته المزاجية بصورة كبيرة.

على الأقل، يتميَّز أولئك الصغار بسرعة البديهة. وافترض جرانت أن ذلك يعود إلى السينما. لطالما كان الجالسون في صالة السينما ذات المقاعد الرخيصة هم من يفهمون المغزى فيما يظلُّ من هم في الشرفة الأمامية ذات المقاعد الغالية لا يزالون يتلمَّسون طريقهم. لقد فهمتِ الراكبة التي معه إشارته إلى حذاء الرقص من دون أن تُطيل التفكير ولو للحظة.

كانت الفتاة مرِحة، حتى بعد قضائها أسبوع عمل وعدم لحاقها بالحافلة في يوم سبتٍ نصفه إجازة، وقد صبَّت على مسامعه قصتها من دون تشجيع منه على ذلك. كان اسمها دورا سيجينز وتعمل في مغسلة، لكن كان لديها صديق حميم يعمل في مرأب في سالكوت، وكانا سيتزوَّجان بمُجرَّد أن يحصل صديقها الحميم على زيادة، الأمر الذي سيحدث خلال عطلة الكريسماس، هذا إن سارت كل الأمور كما هو متوقَّع لها.

بعد مرور فترة طويلة على هذه الواقعة، حين أرسل جرانت إلى دورا سيجينز علبة شوكولاتة كهدية لا تحمِل اسم من أرسلها تقديرًا لما قدمته له من عون، كان الأمل يحدو جرانت ألا يؤدي ذلك إلى سوء تفاهم من جانب صديقها الحميم الذي كان واثقًا كثيرًا من حصوله على الزيادة في الكريسماس.

وقد سألتْه الفتاة خلال الحوار نفسه الذي دار بينهما بعد أن فرغت من سرد قصتها الشخصية: «هل أنت تاجر؟»

رد جرانت: «كلا، أنا رجل شرطة.»

فقالت: «لا تمزح!» ثم وبعد أن خطر لها احتمال أن جرانت يقول الحقيقة، دارت بعينها بنظرة أكثر إمعانًا إلى داخل السيارة. وأخيرًا أردفت «أراهن أنك كذلك!»

تساءل جرانت بفضول: «ما الذي أقنعك؟»

فأجابت: «الإفراط في التنظيف. رجال المطافئ والشُّرطة وحدهم هم من يملكون الوقت الكافي ليجعلوا السيارة تلمع بهذا الشكل. كنتُ أظنُّ أنَّ رجال الشرطة ممنوعين من تقديم التوصيلات؟»

«أنتِ تقصدين مكتب البريد، على ما أظن. ها هي سالكوت في الأفق. أين تقطنين؟»

«عند الكوخ الذي أمامه شجرة الكرز البرية. حقًّا، لا أستطيع أن أصف لك مدى سعادتي لأنَّني لم أُضطر لقطع الأميال الأربعة تلك سيرًا. هل أخذت هذه السيارة على عجل؟»

فقال جرانت: «كلا»، ثم سألها عن سبب اعتقادها ذلك.

«الملابس المدنية وما إلى ذلك. ظننتُ أنكَ ربما كنت ستخرج اليوم وحيدًا. هناك شيء واحد يتمتع به رجال الشرطة الأمريكيُّون وينبغي أن يكون لديك.»

فسألها جرانت وهو يُوقف السيارة عند الكوخ ذي شجرة الكرز البرية: «وما هو ذاك؟»

«صافرات الإنذار، وأن تسير على طول الطريق بها وهي تصيح.»

فقال جرانت: «حاشا لله أن أفعل ذلك.»

«لطالَما أردت أن أجوب الشوارع خلف صافرة إنذار، وأن أرى الناس وهم يتفرقون في كل اتجاه.»

قال جرانت في غير تأييد: «لا تنسَي حذاءك» مُشيرًا إلى الصندوق الذي تركته على المقعد.

«أوه، يا إلهي، لن أنساه؛ شكرًا! شكرًا جزيلًا على كل شيء. لن أنطقَ بكلمة سيئة في حق الشرطة ما حييت.»

ثم هرعت على الممر المؤدِّي إلى الكوخ، ووقفت تُلوِّح له، ثم اختفت.

واصل جرانت طريقه داخل القرية ليُكمِل تحقيقه.

الفصل الثالث عشر

حين دلف جرانت إلى منزل ميل هاوس في السابعة إلا الربع شعر وكأنه غربل سالكوت سانت ماري خلال غربال شبكي صغير، وأنه لم يتبقَّ له في الغربال أيُّ شيء حرفيًّا. كان جرانت قد عايش قطاعًا عريضًا من تجارب الحياة في إنجلترا، ولهذا كان الأكثر خبرة ودراية. لكنه لم يكن قد أحرز أيَّ تقدُّم تجاه حلِّ القضية التي أوكِلت إليه.

حيَّته مارتا بأفضل عبارات الود الهامسة واجتذبته إلى السكينة والراحة. كانت حجرة المعيشة في منزل ميل هاوس تطلُّ على الماء، وفي أثناء النهار كان أثاثها يسبح وسط الأضواء المتمايلة؛ أضواء خضراء تُشبه تلك التي تحت سطح الماء. لكن مارتا هذا المساء كانت قد أسدلت الستار على آخر مشاهد الغروب، وصدَّت ضوء النهر؛ إذ أعدَّت ملجأً من الدفء والطُّمأنينة، ولهذا كان جرانت شاكرًا لها إذ كان مُنهَكًا وفي حيرة من أمره.

قالت مارتا وهي تدفعه على نحو رقيق إلى كرسيٍّ بإحدى إيماءاتها المفضَّلة وتصبُّ له شرابًا: «أنا مسرورة كثيرًا أن والتر لم يكن هو من اختفى.»

فتساءل جرانت: «مسرورة؟» وقد تذكَّر ما عبرت عنه مارتا من رأيٍ لها تجاه والتر.

«لو كان والتر هو من اختفى لكنتُ من المشتبه بهم، بدلًا من أن أكون شريكة مهجع.»

فكَّر جرانت أن مارتا لا بدَّ أنها تتشارك الكثير مع الفِتَن النائمة باعتبارها شريكة مهجع.

«أما الآن فبإمكاني الجلوس إلى جوار العدالة ومشاهدة الأمور وهي تمضي. هل تُبلي بلاءً حسنًا، يا عزيزي؟»

رد جرانت في قسوة: «أنا في حيرة من أمري»، لكن مارتا تعاملَت مع الموقف بهدوء.

«أنت تشعر بهذا فقط لأنك مُنهَك وجائع؛ وربما أنك تُعاني من سوء الهضم، على أيِّ حال، بعد أن تناولت الطعام في فندق وايت هارت ليومَين. سأتركُكَ مع دورق الشراب

وسأنزل إلى الطابق السفلي لأحضر النبيذ. نبيذ أبيض مُبرَّد في القبو. يقع المطبخ تحت هذه الحجرة ويقع القبو تحت المطبخ، فيخرج النبيذ منه باردًا كالماء الجاري. عزيزي، لقد وعدتُ نفسي بأنني لن أزيد التفكير اليوم في الماء الجاري. لقد أسدلت الستائر لأحجب مشهد النهر؛ فأنا لم أعدْ مفتونة بالنهر كما اعتدت. لربما سنشعر كلانا بشعور أفضل بعد تناول النبيذ الأبيض. حين أحضره من القبو سأُعِدُّ لك الأومليت الذي لا يُعدُّه أحد مثلي، بعدها سنَجلِس في هدوء. لذا استرخ قليلًا ولتستعدْ شهيَّتك. وإن لم يكن هذا الشراب قويًّا بما يكفي، فهناك شراب تيو بيبي في الخزانة؛ لكنني أظن أن تقييم قوته مبالغٌ فيه.»

ثم ذهبت مارتا وامتنَّ جرانت لها لأنها لم تُزعجه بالأسئلة التي لا بدَّ أنها تتزاحم في ذهنها. كانت مارتا امرأة لا تقدر الطعام الشهي والشراب اللذيذ وحسب، بل كانت تملك حسن تقدير مُتأصِّلًا يكاد يرقى إلى العطف. لم يكن جرانت قد رآها من قبل على نحو أفضل مما رآها عليه في منزلها الريفي الرائع هذا.

استلقى جرانت وسط ضوء المصباح، ومدَّ قدمه إلى المدفأة حيث الحطب الذي يصدر عنه صوت احتراقه واسترخى. كان المكان دافئًا وفي غاية الهدوء. ولم يكن للنهر صوت: كان نهر راشمير يجري في صمت. لم يكن هناك أي صوت على الإطلاق عدا صوت النار الخافت. وعلى الأريكة مُقابلَه وضعت جريدة، وخلفها حقيبة كتب، لكنه كان مُتعبًا بشكلٍ أكبر من أن يتمكَّن من إحضار الجريدة أو كتاب. وعند مرفقِه كان هناك رفٌّ وضعت عليه مراجع. راح جرانت يقرأ عناوين المراجع في فتور حتى وصل إلى سجل هواتف لندن. مظهر تلك الكتب أرسل عقله في قناة جديدة من الفكر. فحين تحدَّث جرانت إلى إدارة سكوتلانديارد هذا المساء، قالوا إن قريبة سيرل لم تتواصَلْ معهم بعد. ولم يُفاجئهم ذلك بالطبع؛ فالأخبار لم تنتشِر سوى هذا الصباح، ومن المحتمل أن ابنة عمومته الفنانة تعيش في أي مكان بين جزر سيلي وإحدى المزارع في كمبرلاند؛ وربما أنها لا تقرأ الصحف على أيِّ حال؛ وإن وصل الأمر إلى هذا الحد، فقد تكون غير مُكترِثة تمامًا بالمصير الذي لحقَ بابن عُمومتها. وعمومًا كان سيرل قد قال وبكل صراحة إن أحدهما لا يكترث بالآخر.

لكن جرانت كان لا يزال يرغب في الحديث مع أحد يعلم خلفية سيرل؛ أو على الأقل جزءًا ضئيلًا منها. والآن، وقد جلس مُسترخيًا في راحة للمرة الأولى منذ يومين، مدَّ جرانت يده إلى المجلد الذي يحتوي على الأسماء التي تبدأ بحرف السين، وبناء على احتمالية أن تكون مقيمة في لندن وأنها وسيرل أبناء اثنين من الإخوة، بحَث عن اسم سيرل. وفي المجلد

لاحَظ جرانت أن هناك آنسة باسم سيرل تعيش في هولي بيفمينت. تقع هولي بيفمينت في هامبستيد، وهي مُستعمَرة شَهيرة للفنانين. وبفعل باعث بداخله رفع جرانت سماعة الهاتف وطلب رقم لندن.

جاءه الصوت المبتهج من الطرف الآخر على الهاتف يقول: «ستتأخر المكالمة مدة ساعة. سأعاود الاتصال بك.»

فرد جرانت: «إنها مُكالَمة ذات أولوية.» ثم قدم بياناته.

قال صاحب الصوت في إحباط لكن يصحبه عزم: «أوه، حسنٌ. سأرى ما يمكنني فعله.»

قال جرانت: «بل على النقيض. سأرى أنا ما يمكنك فعله.» ثم أغلق الهاتف.

أعاد جرانت سجل الهاتف إلى حيث كان وأخرج مرجع «أعلام المسرح» ليسلي نفسه به قليلًا أثناء انتظاره. وقد شعر من خلال ما قرأ من بعضه بأن العمر قد مضى به كثيرًا. مُمثِّلون وممثلات لم يسمع بهم من قبل قط أصبح لديهم بالفعل قوائم طويلة بنجاحات تُحسَب لهم. والذين عرفهم من بين من هم في الكتاب كان لديهم صفحات من الإنجازات تمتدُّ بالفعل إلى الماضي البعيد. بدأ جرانت يبحث عن الأشخاص الذين كان يعرفهم، كما يفعل المرء في فهرس كتاب من كتب السيرة الذاتية. توبي توليس، ابن سيدني توليس وزوجته مارثا (سبيك). كان من المدهش في رأي جرانت التفكير في أن رمزًا وطنيًّا كتُوبي توليس قد خضَع لعمليات الحمل والمجيء إلى هذا العالم بالطُّرُق الطبيعية. ولاحظ جرانت أن بدايات توبي كمُمثِّل قد أُخفيت بصورة لائقة تحت عنوان: «كان فيما مضى ممثلًا». وعلم جرانت أن زملاءه من تلك الفترة كانوا ليُنكروا بشدَّة أنه كان مُمثلًا ولو حتى على وجه التقريب. ومن ناحية أخرى، فكر جرانت، بينما يتذكر لقاءه معه هذا الصباح، أن حياة توبي توليس برمتها كانت «مسرحية». فقد اختلق توبي لنفسه دورًا وصار يلعبه منذ ذاك الحين.

وكان من المدهش لجرانت، أيضًا، اكتشاف أن مارجريت ميريام (وهي ابنة جيفري ميريام وزوجته بريندا (ماتسون)) كانت أكبر سنًّا بكثير مما كان المرء يعتقد بفعل رقَّتها التي تشبه رقة المراهقين. ربما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، لوهنت صفة المراهقة تلك، ولاضمحلَّت قدرتها على فطر قلوب الجماهير. لا شكَّ أن هذا هو ما كانت تقصده مارثا حين قالت إن مارجريت لو عاشت عشر سنين أخرى، لوردت إعلانات نعيها في الصفحات الأخيرة من الصحف.

كانت مارتا (ابنة جيرفاس وينج سترات إم آر سي إس، إل آر سي بي وزوجته آن (هالارد))، بالطبع، ذات نشأة تقليدية تمامًا. فقد تلقَّت تعليمها في أفضل المدارس وتسلَّلت إلى المسرح من أبوابه الخلفية عن طريق فنِّ الخطابة مثلها في ذلك مثل الكثير من أسلافها الكريمي الأصل. أَمَّل جرانت أن يجد جيرفاس وينج سترات وزوجته آن العزاء عن خداع ابنتهما لهما قبل ربع قرن مضى، حين يتبع اسمها حروف دي بي إي في الطبعة التالية، أو التي تليها على أقصى تقدير.

ولم يكد جرانت يبدأ في التلذُّذ بأولى قطوف التَّسلية المحتملة التي يقدمها هذا المجلد الساحر حتى دق جرس الهاتف.

جاء الصوت يقول: «مُكالمتك إلى لندن مباشرة الآن. فلتبدأ، من فضلك.»

قال جرانت: «مرحبًا. هل يمكنني التحدث إلى الآنسة سيرل؟»

فجاء صوت رقيق يميل إلى النشاط يقول: «الآنسة سيرل تُحدِّثك.»

«آنسة سيرل، أنا آسف حقًّا لإزعاجك، لكن هل لديك ابن عمومة يُدعى ليزلي سيرل؟»

«أجل لديَّ، وإن كان قد استعار منك مالًا فإنك تُضيِّع وقتك إن ظننت أنني سأردُّه لك.»

«أوه، لا. ليس الأمر على هذا النحو. لقد اختفى ابن عمومتك أثناء مُكوثه مع أصدقاء له في الريف ويحدُونا الأمل أن تُساعدينا في تتبعه. اسمي جرانت. وأنا مُفتِّش مُحقِّق في إدارة سكوتلانديارد.»

قال الصوت: «أوه» وبدا على صاحبته التفكير وليس الذعر. «في الواقع، لا أدري كيف سأقدم لك المساعدة. فليس بيني وبين ليزلي الكثير. لم يكن يروقني، وبالتأكيد لم أكن أروقه.»

«قد يكون من العون إن أتيتُ وتحدثتُ إليكِ عنه. هل ستكونين في المنزل غدًا بعد الظهر إن أتيت؟»

«كنت سأذهب إلى حفل موسيقي يوم غد بعد الظهر في قاعة ألبرت هول.»

«أوه. ربما يُمكنني القدوم قبل الغداء بقليل إن كان هذا أفضل بالنسبة إليكِ.»

فعلقت قائلة: «أنتَ في غاية الرقة واللطف بالنظر إلى كونك رجل شرطة.»

فقال جرانت: «لا يرانا المجرمون كذلك.»

«كنتُ أظنُّ أن توفير المأوى للمجرمين هو غاية إدارة سكوتلانديارد وهدفها. لا بأس، أيها المفتش. لن أذهب إلى الحفل. إنه ليس بالرائع على أي حال.»

«ستكونين موجودة بالمنزل لو أتيت؟»

«أجل، سأكون موجودة.»

«هذا لطفٌ بالغ منكِ.»

«ذلك المصوِّر المُبالغ في تقديره لم يأخذ مجوهرات الأسرة معه حين غادر، أليس كذلك؟»

«كلا. كلا، لقد اختفى وحسب.»

فأطلقتْ صوتًا خافتًا من أنفها. كان من الواضح أن أيًّا ما ستقوله الآنسة سيرل عن ابن عمومتها، فلن يتضمَّن تورية للحقائق أو حياء زائفًا.

حين كان جرانت يضع السماعة، عادت مارتا يتبعها صبيٌّ صغير يحمل الحطب للنار. وضع الصبي الحطب بعناية في المدفأة، ثم رمق جرانت بنظرة تنم عن الإجلال والخشية.

قالت مارتا: «يُريد تومي أن يسألك شيئًا. إنه يعلم أنك مُحقِّق.»

«ما الأمر، يا تومي؟»

«هلا أريتني مسدسك، يا سيدي؟»

«كنت سأريك إياه لو كان معي. لكنني أخشى أنه في درج داخل مكتبي في إدارة سكوتلانديارد.»

بدا تومي مفطور الفؤاد. «كنتُ أظنُّ أنكم تحملُون المسدسات دائمًا. الشرطيُّون الأمريكيون يحملونه دومًا. أنت تجيد إطلاق النار، أليس كذلك، يا سيدي؟»

فقال جرانت محاولًا تخفيف حدة الخوف الشديد الذي بدا واضحًا على وجه الصبي: «أوه، أجل. اسمع، في المرة القادمة التي تأتي فيها إلى لندن، يُمكنك القدوم إلى إدارة سكوتلانديارد وسأريك مسدسي.»

«أيُمكنني أن آتي إلى إدارة سكوتلانديارد؟ أوه، شكرًا لك. شكرًا جزيلًا لك يا سيدي. سيكون هذا رائعًا.»

ثم انصرف الصبي بعد أن ألقى تحية المساء في تهذيب، وهو في حالة من عدم التصديق.

قالت مارتا بينما كانت تضع طبق الأومليت على الطاولة: «ويَعتقد الآباء أن بإمكانهم مداواة الصِّبْية من الوقوع في حبِّ الأسلحة المميتة بألا يعطوهم دمى الجنود. هيا لنتناول الطعام.»

«أدين لكِ بثمن مكالمة خارجية إلى لندن.»

«ظننتُ أنكَ كنتَ ستسترخي.»

«كنت سأفعل لكن واتتني فكرة، وقد حققت على إثرها أول تقدم منذ توليت القضية.»

قالت مارتا: «هذا جيد! يُمكنك الآن أن تشعر بالسعادة وتدع عصاراتك الهضمية تقوم بعملها.»

ومن ثم أعدت طاولة دائرية صغيرة بجوار نار المدفئة، مع إضاءة شموع لإضافة البهجة والزينة، وتناولا الطعام معًا في هدوءٍ ساده الود. ثم صعدت السيدة ثروب بالدجاج، وقُدِّم إلى جرانت، وقد أفصحت عن مدى امتنانها بالدعوة التي قدمها جرانت لتومي. بعد هذا لم يقاطع صَفوهما أحد. وأثناء تناولهما القهوة تطرَّق حديثهما إلى سيلاس ويكلي وغرابة أهل المنزل الذي يقع على الزقاق.

«يفتخر سيلاس بكونِه من «الطبقة العاملة»، أيًّا كان ما قد يحمله هذا من معنى. لن يبدأ أيٌّ من أطفاله حياته بأفضل مما بدأ هو. إنه مُضجر ومريع بشأن أصول مدرسته الثانوية. لدرجة أنك قد تظن أنه كان أول من يدخُل جامعة أكسفورد من طلاب المدرسة الثانوية منذ تأسَّست. إنه مثال كلاسيكي للتواضع المصطنع.»

«لكن ماذا يفعل بكل ما يكسب من أموال؟»

«الرب وحده يعلم. ربما يدفنه تحت أرضية ذلك الكشك الصغير الذي يعمل فيه. إنه لا يسمح لأي أحد أبدًا أن يدخل إلى ذلك الكشك.»

«لقد التقيت به في ذلك الكشك هذا الصباح.»

«آلان! يا لبراعتك! ماذا كان بداخله؟»

«كاتب شهير، يقوم بعمل قليل جدًّا.»

«أتوقَّع أنه ينزف دمًا من أجل أن يكتب شيئًا. إنه لا يملك أيَّ خيال. أقصد أنه لا يدري تمامًا كيف تعمل عقول الآخرين. لذا فإنَّ المَواقف التي يكتبها وكذلك ردود أفعال شخصياته عليها ما هي إلا أشياء مبتذلة وتقليدية. إنه يبيع مؤلفاته بسبب «أسلوبه المباشر» و«مهارته البدائية»، لينجدنا الرب جميعًا. لنُبعِد الطاولة ونقترب أكثر من النار.»

ثم فتحت مارتا دولابًا صغيرًا وقالت بتقليد ممتاز للصبية الذين يبيعون الأشياء على الصواني على أرصفة السكة الحديد: «درامبوي، بينيديكتين، استريجا، جراند مارينير، بولز، تشارتروز، شليفوفيتس، أرمانياك، كونياك، راكيا، كوميل، ومختلف المشروبات الفرنسية بحلاوتها التي لا توصف، وشراب الزنجبيل المنعش الخاص بالسيدة ثروب!»

«أتنوينَ إغوائي لاستخلاص الأسرار الرسمية من دائرة التحقيقات الجنائية؟»

«كلا، يا عزيزي؛ بل أبدي التقدير والإجلال لذوقك. أنت أحد الرجال القلائل الذين أعرفهم ممن يستمتعون بشيء كهذا.»

ثم وضعت مارتا التشارتروز وزجاجات الشراب على صينية وعدلت ساقيها الطويلتين على الأريكة إلى وضعية مريحة.

ثم قالت: «والآن أخبرني.»

فقال مُعترضًا: «لكن ليس لدي شيء لأخبرك به.»

«لا أقصد هذا النوع من الإخبار. أقصد حدِّثني. تظاهرْ بأني زوجتك — حاشا لله — واجعل مني مستمعةً لك. على سبيل المثال، أنت لا تظنُّ حقًّا أن ذلك المسكين والتر ويتمور يتمتَّع بما يكفي من الشجاعة ليضرب سيرل بشيء على رأسه، أليس كذلك؟»

«كلا، لا أظنُّ ذلك. إنَّ الرقيب ويليامز يُطلق عليه فاقد الجرأة، وأظنُّ أني أتَّفق معه.»

«يُطلَق عليه ماذا؟»

فسَّر لها جرانت معنى الكلمة، فقالت مارتا: «وكم هو صائب رأي الرقيب ويليامز! لقد تأخرت مغادَرة والتر كثيرًا.»

«ربما يُغادِر من تلقاء نفسه إن لم تُحلَّ هذه القضية.»

«أجل، أظن أنه يواجه وقتًا عصيبًا، ذلك المخلوق السخيف المسكين. إن الشائعات في مكان ريفي صغير قاتلة. بالمناسبة، هل استجاب أحد لمناشَدة الشرطة التي أطلقتْها؟ لقد سمعتُها عند الساعة الواحدة.»

«كلا، ليس حتى السابعة إلا الربع، حين تحدثت آخر مرة مع إدارة سكوتلانديارد. وقد أعطيتهم رقم الهاتف هنا ليتَّصلوا خلال الساعتين التاليتين. آمل أنكِ لا تمانعين.»

«لماذا تظن أنه من الممكن أن يكون قد حصل على توصيلة؟»

«لأنه إن لم يكن في النهر فلا بدَّ أنه سار بعيدًا عنه.»

«بمحضِ إرادته؟ لكن سيكون من الغريب حقًّا فعل ذلك.»

«ربما أنه يُعاني من فقدان الذاكرة. هناك خمسة احتمالات مُجتمعة.»

«خمسة!»

«مساء يوم الأربعاء، سار سيرل عبر ذلك الزقاق، في تمام الصحة واليقظة؛ ولم يظهر في الجوار منذ ذلك الحين. إذن الاحتمالات هي: الأول، أن يكون قد سقط في الماء بطريق الخطأ وغَرِق؛ الثاني، أن يكون قد قُتِل وأُلقِيَ به في النهر؛ الثالث، أن يكون قد غادَر لأسباب شخصية؛ الرابع، أن يكون قد ضلَّ طريقه وابتعد وأنه نسي من يكون وإلى أين كان يتجه؛ الخامس، أن يكون قد اختُطف.»

«اختطف!»

«نحن لا نعرف شيئًا عن حياته في أمريكا؛ وعلينا أن نضع هذا في اعتبارنا. بل من المُمكن حتى إنه أتى إلى هذا البلد ليهرُب من أمريكا لبعض الوقت. ولن أعرف شيئًا عن هذا الأمر حتى يصلَنا تقرير عنه من كاليفورنيا؛ إنه أمر غير مُؤكَّد! خبِّريني، ما رأيك في سيرل؟»

«من أي جانب تقصد؟»

«أتظنِّين أنه يميل إلى المزاح المزعج، على سبيل المثال؟»

«أي شيء عدا ذلك.»

«أجل. تُخالف ليز جاروبي أيضًا هذه الفرضية. قالت إنه لم يكن ليرى أن المزاح المُزعجَ أمر طريف. في رأيك كم كان حجم إعجابه بليز جاروبي؟ لقد كنتِ هناك على العشاء.»

«معجبًا بها بما يكفي ليجعل والتر مُعتلًّا من شعوره بالغيرة.»

«أحقًّا؟»

«كانا رائعَين معًا، أقصد ليزلي وليز. كانا يُشكِّلان ثنائيًّا طبيعيًّا، بطريقةٍ ما. شيء لن يُصبح عليه والتر وليز مُطلقًا. لا أظنُّ أن والتر يعرف أي شيء عن ليز؛ وتراءى لي أن ليزلي سيرل يعرف عنها الكثير.»

«هل راقكِ حين التقيت به؟ هل اصطحبته في طريق عودتك تلك الليلة، بعد العشاء.»

«أجل. أجل على كلا السؤالين. راقني مع بعض التحفُّظات.»

«أي نوع من التحفظات؟»

«من الصعب وصف ذلك. بالكاد كنتُ أتمكَّن من إبعاد عيني عنه، إلا أنَّني لم أرَ قطُّ أنه ... أنه حقيقي. يبدو هذا جنونًا، أليس كذلك.»

«تقصدين أنه كان هناك شيء زائف بشأنه؟»

«ليس بالمعنى المعروف. من الواضح أنه كان مثلَما صرَّح عن نفسه. على أي حال، تشهد الآنسة إيستون-ديكسون على ذلك، كما تعرف على الأرجح.»

«أجل، كنت أتحدث إلى الآنسة إيستون-ديكسون بعد ظهر اليوم بشأنه. وقد يتَّضح أن الصورة التي معها له ذات جدوى. عن أيِّ شيء تحدثتِ أنتِ وسيرل، في تلك الليلة التي اصطحبتِهِ فيها في طريق العودة؟»

«الكثير من الأشياء، عن الصعاليك والملوك. الأشخاص الذين التقط لهم الصور. والأشخاص الذين التقى كلانا بهم. والأشخاص الذين كان يُريد أن يلتقيَ بهم. وقد

أمضينا وقتًا طويلًا في إبداء إعجاب مشترك بداني مينسكي، ووقت طويل آخر في خلاف محتدٍّ بشأن مارجريت ميريام. كان يظن أن مارجريت عبقرية فذة، مثله في ذلك مثل الجميع، ولم يكن ليقبل بسماع كلمة سيئة في حقها. وقد انزعجت منه كثيرًا حتى إنني أخبرته ببضع حقائق مزعجة عنها. وقد شعرت بالخزي من نفسي بعدها. من الوضاعة أن يكسر المرء لعبة طفل.»

«أعتقد أنكِ أسديته معروفًا. لقد كان أكبر من أن يبقى بمعزل عن حقائق هذه الحياة.»

«سمعت أنكَ كنتَ تجمع حجج الغياب اليوم.»

«كيف عرفتِ ذلك؟»

«بنفس الطريقة التي أعرف بها كل شيء. من السيدة ثروب. من هم سيئو الحظ الذين لا يملكون حجج غياب؟»

«القرية بأكملِها فعليًّا، بمن فيهم الآنسة إيستون-ديكسون.»

«إن صديقتنا ديكسي «مُستبعَدة». من أيضًا؟»

«الآنسة لافينيا فتيش.»

فقالت مارتا: «العزيزة لافينيا!» ضاحكة بغير تحفظ من فِكرة قُدرة الآنسة فيتش على ارتكاب جريمة القتل.

«ليز جاروبي؟»

«لا بدَّ أن ليز المسكينة تواجه وقتًا عصيبًا بسبب هذه المسألة. أعتقد أنها كانت شبه واقعة في حب الشاب.»

«السيدة جاروبي؟»

توقَّفت مارتا لتتأمل هذه الفكرة. «أتعرف، ما كنتُ لأستبعد قيامها بذلك. كانت لتفعلها دون أن تهتزَّ لها شعرة لأنها ستقنع نفسها أن هذا عين الصواب. بل إنها كانت ستذهب إلى الكنيسة لتطلب من الرب أن يُبارك فعلتها.»

«توبي توليس؟»

«كلا، بالكاد أظنُّ ذلك. كان توبي ليجد طريقة أخرى ليثأر لنفسه. شيء أقل خطورة بالنسبة إليه ومرض بالقدر ذاته. إن رأسه خصب في ابتكار طرق الثأر الصغيرة. ما كنت لأظن أنه في حاجة لقتل أحدهم.»

«سيلاس ويكلي؟»

«دعني أفكر. أجل، أعتقد أن سيلاس كان سيرتكب جريمة القتل. خاصة إن صادف أن الكتاب الذي يكتبه في الوقت الراهن لا يسير على خير ما يُرام. فالكتب هي مُتنفَّسٌ لمشاعر الكراهية لديه. وإن ساء أمر ذلك الكتاب، كان سيقتل أحدهم. كان سيقتل شخصًا يبدو له ثريًّا ووسيمًا ومحظوظًا على نحو غير مستحق.»

«أتظنِّين أن ويكلي مجنون؟»

«أوه، أجل. ربما ليس بشكل مؤكَّد، لكنه لا شك أنه غير متزن. بالمناسبة، هل شائعة حدوث مشاجرة بين والتر وسيرل تحمل أيَّ قدرٍ من الصدق؟»

«يُنكر ويتمور أنها كانت مشاجرة. يقول إنها كانت «مجرَّد مشاحنة».»

«إذن هناك «بالفعل» ضغينة بينهما؟»

«لا أعرف إن كان لدينا أدلَّة حتَّى على هذا. فانزعاج مؤقَّت لا يتساوى مع مشاعر الضغينة. يمكن لرجلين أن يختلفا بشكل جوهري تمامًا في حانة ذات مساء من دون أن تُصبح هناك ضغينة واقعية لدى أي منهما.»

«أوه، لكَم تُثير جنوني. بالطبع كانت هناك ضغينة، وبالطبع نعرف سبب ذلك. كانت الضغينة بسبب ليز.»

فقال جرانت ساخرًا من تسرعها في الاستنتاج: «هذا استنتاج خيالي تمامًا. قال ويتمور إن سيرل كان «استفزازيًّا». من وجهة نظرك، أيُمكنكِ أن تُخبريني كيف سيصبح سيرل استفزازيًّا بشأن ليز؟»

«على الأرجح أنه أخبر والتر بمدى قلَّة تقديره لليز، وإنه سيأخُذ ليز منه إن لم يُصلِح والتر من نفسه وسلوكه، وإن ظنَّ والتر أن سيرل لا يقدر على ذلك فإنه مُخطئ وأنه سيجعل ليز تحزم أمتعتها وتُغادر معه بحلول ثلاثاء الأسبوع المقبل، وأن سيرل يُراهن بخمسة جنيهات على ذلك. حينها قال والتر، في غضب وخشونة، إننا في هذه البلاد لا نُراهن على احتمال منح المرأة استحسانها لرجل وإدخاله في حظوتها، أو على الأقل أنَّ الرجال النبلاء لا يفعلون ذلك، وإن المراهنة على ليز بخمسة جنيهات هو ببساطة إهانة لها (إذ إنَّ والتر لا يتمتع بحس الدعابة كما تعلم؛ فهذه هي طريقته في تقديم ذلك البث الإذاعي وجذب إعجاب السيدات العجائز اللاتي يتجنَّبْن الريف كالوباء وما كنَّ ليتعرَّفنَ على طائر النمنمة إن رأينه)؛ وعلى الأرجح أن ليزلي قال إن كان والتر يعتقد أن خمسة جنيهات هي مبلغ زهيد جدًّا فإنه مُستعدٌّ لأن يجعلها عشرة، حيث إن ليز وإن كانت مخطوبة إلى مُفسِد بهجة مثل والتر طيلة ما يقرُب من سنة كاملة فإنها باتت جاهزة الآن لإحداث تغيير وستصبح الجنيهات العشرة كنزًا، وهكذا نهض والتر وخرَج وصفق الباب وراءه.»

«كيف علمت بأمر صفق الباب؟»

«عزيزي، كل من في أورفوردشير يعرفون الآن بأمر صفق الباب. لهذا فإن والتر هو المُشتبَه به رقم واحد. بالمناسبة، أهذه هي كل قائمتِك بمَن ليس لديهم حُجَج غياب؟»

«لا، هناك سيرج راتوف.»

«ماذا كان سيرج يفعل؟»

«يرقُص على العشب قرب النهر في الظلام.»

«يبدو هذا حقيقيًّا، على أيِّ حال.»

«لماذا؟ هل رأيته؟»

«لا. لكنه الأمر الذي يبدو أن سيرج كان سيفعله. إنه لا يزال مُشبعًا بفكرة تحقيق العودة. قبل وقوع المشكلة التي وقعت بينَه وبين ليزلي سيرل، كان يُخطط للعودة كوسيلة لإرضاء توبي؛ أما الآن فإنه يخطط لها من أجل «الاستعراض» أمام توبي.»

«من أين تحصلين على كل هذه المعرفة الاستبطانية؟»

فأجابت: «لم أؤدِّ الأدوار طيلة خمسة وعشرين عامًا بناءً على توجيهات المُخرِجين وحسب.»

نظر جرانت نحوها، كانت مُتألِّقة وفاتنة أمام ضوء النار، وفكَّر جرانت في كل الأدوار المختلفة التي شاهدها وهي تؤديها: كامرأة بغيٍّ وكعجوز مُحبَطة، وكامرأة عاملة طَموحة وكربَّة منزل خانعة. لقد كانت عين الحقيقة أن الممثلين يتمتَّعون بنفاذ بصيرة، وفهم للدوافع الإنسانية، الأمر الذي يفتقر إليه الأشخاص العاديُّون. وليس لهذا أدنى علاقة بالذكاء، كما أن علاقته بالتعليم محدودة. ففيما يتعلق بالمعرفة العامة كانت مارتا محدودة العلم وكأنها طفل في الحادية عشرة يفتقر إلى الذكاء؛ كان انتباهها يتحول تلقائيًّا عن أي شيء مغاير لاهتماماتها الآنيَّة وتصبح نتيجةً لذلك جاهلةً مثل طفلٍ رضيع. وقد رأى جرانت الشيء نفسه في مُمرضات المستشفيات، وأحيانًا كان يراه في الأطباء الممارسين للطب العام المثقلين بالعمل. لكن ضع في يدها نص سيناريو وستجد أنها تستقي الوسائل لتجسيد ما أبدعه الكاتب من مُستودَع سري وفطري للمعرفة بداخلها.

قال جرانت: «بافتراض أن هذه القضية هي بالفعل جريمة قتل. بناء على الملابسات الظاهرية والشكل الحالي الذي تخذه الأمر، إن جاز التعبير، على من كنتِ ستُراهنين على أنه القاتل؟»

راحت مارتا تُفكِّر في هذا قليلًا، وهي تقلب كوب شرابها الفارغ أمام ضوء النار.

ثم قالت في النهاية: «إيما جاروبي بحسبِ ما أظنُّ. هل يمكن أن تكون إيما هي من فعلتها؟ أقصد من حيث الملابسات المادية.»

«أجل. فقد تركت الآنسة إيستون-ديكسون حيث افترقَ طريقاهما مساءً يوم الأربعاء، وبعد ذلك الوقت كانت وحدها تمامًا. لا أحد يعرف الوقت الذي عادت فيه إلى تريمنجز. كان الآخَرُون قد ذهبوا إلى أَسِرَّتهم؛ أو على وجه الدقة، إلى غرفهم. والسيدة جاروبي هي من يُوصد الباب الأمامي للمنزل على أي حال.»

«أجل. هناك متَّسع من الوقت. والمسافة بين منزل تريمنجز ومنحنى النهر ذاك ليست ببعيدة. أتساءل كيف كان حال حذاء إيما صباح يوم الخميس. أم إنها نظَّفتْه بنفسها.»

«صدقيني، إن كان هناك طين غير مألوف على حذائها فقد نظَّفتْه بنفسها. تبدو لي السيدة جاروبي امرأة في غاية الترتيب والنظام. لكن لماذا تتحاملين على إيما جاروبي؟»

«أظن أن المرء يرتكب جريمة قتلٍ لأنه يكون أحاديَّ التفكير. أو أنه أصبح على هذا النحو. وطالَما أن للمرء طائفةً من الاهتمامات فلن تأبَه لأيٍّ منها إلى حدِّ ارتكاب جريمة قتل. فحين يصبح كل البيض لدَيك في سلَّة واحدة، أو حين لا يبقى لك إلا بيضة واحدة في السلة، تفقد إحساسك بالاتِّساق والملائمة. هل كلامي واضح، أيها المفتش جرانت؟»

«واضح تمامًا.»

«رائع. والآن خذ مزيدًا من التشارتروز. في الواقع، تبدو لي إيما الأكثر تركيزًا من بين المشتبه بهم المُحتمَلين. لا يمكن لأحد أن يصف سيرج بأنه يتحلَّى بالتركيز، إلا على ما يفعله في الوقت الراهن. إن سيرج يقضي وقتَه في خصومات مُتأجِّجة، ولم يظهر من قبل أيُّ إشارة على أنه قد يقتل أحدًا. فأبعد ما يُمكن أن يصل إليه هو أن يقذف بأي شيء يصادف أنه بالقُرب من يده.»

رد جرانت: «ينقصُه في ذلك أن يحمل سوطًا» ثم أخبرها بلقائه مع سيرج. بعدها سألها: «وماذا عن ويكلي؟»

«من حيث الشكل، ولكَي أستخدم التعبير المجازيَّ الرائع الذي استخدمته، فسيلاس يتأخَّر عن إيما بفارق جنيه أو اثنين في الرهان على هوية مرتكب الجريمة؛ لكن من المؤكَّد أنه مُتأخِّر عنها. لدى سيلاس نجاحاته الخاصَّة، وأُسرته والكتب التي سيكتبُها في المستقبل (حتى ولو كانت مشابهة للكتُب التي كتبها من قبل ولكن بكلمات مختلفة)؛ أقول إنَّ اهتمامات سيلاس ليست «محدَّدة» كما في حالة إيما. وبصرف النظر عن أن به مسًّا من جنون وشيئًا من كُرهٍ غير مبرر، فإن سيلاس لا يملك دافعًا يجعله يتخلَّص من ليزلي.

وكذلك الأمر مع توبي. فحياة توبي تتألَّق بفعل التنوُّع. ما كان توبي ليُفكِّر قطُّ في قتل شخصٍ ما. وكما أخبرتك، فإنه يملِك الكثير من الحيل والطُّرُق الأخرى التي تُمكنه من تسوية حساباته. ولكن إيما. لا تملِك شيئًا سوى ليز.»

ثم فكرت فيما قالت لبُرهة، ولم يشأ جرانت أن يقضَّ مضجعَ الصمت.

ثم قالت مارتا في النهاية: «كان ينبغي أن ترى إيما حين أعلن والتر وليز عن خطبتهما. كانت ... كانت متلألئة حرفيًّا. كانت كشجرة كريسماس تمشي على قدمَين. كان هذا هو ما أرادت دومًا، وعلى عكس كل الاحتمالات تحقَّق لها ما أرادت. فقد وقع والتر في حبِّ ليز، وهو الذي التقى بالكثير من بنات جيله الذكيات الجميلات، وكانا سيتزوَّجان. وكان والتر سيرثُ منزل تريمنجز ذات يوم، وكذلك ثروة لافينيا؛ لذا فحتى لو تلاشت شعبية والتر، فإنهما سيحصُلان من متاع هذا العالم على ما قد يتمنَّاه أيُّ إنسان أو يرغب به. كان الأمر أشبه بقصَّة خرافية تتحقَّق على أرض الواقع. وكانت إيما تكاد أن تطير من السعادة. وعلى حين غِرَّة ظهر ليزلي سيرل.» وهنا سمحت مارتا، الممثلة البارعة، بعودة الصمت. ولكونها فنانة بارعة أيضًا، فقد تركته دون أن تُذيب جليدَه.

في نار المِدفأة انزلق الحطب وتناثَرَ، فنفَثَ لهيبًا جديدًا، وظلَّ جرانت مُستلقيًا في سكون في كرسيِّه وأخذ يُفكِّر في إيما جاروبي.

وكذلك في الشيئين اللذين لا تعرف مارتا عنهما شيئًا.

كان من الغريب أن يحتلَّ المُشتبَه به لدى مارتا المساحة نفسها في ذهنه التي يحتلها الشيئان اللذان يفتقران إلى المبرِّر: وهما القفاز الذي وجدَه في درج سيرل، والمساحة الخاوية في صندوق التصوير.

إيما. إيما جاروبي. تلك المرأة التي ربَّت أختها الصغرى وحين خرجَت تلك الأخت من كنفها تزوجت برجل أرمل له طفلة صغيرة. لقد شعبت إيما اهتماماتها على نفس النحو الطبيعي الذي توسَّع به توبي توليس في اهتماماته، أليس كذلك؟ كانت مُتألِّقة — «كشجرة كريسماس تمشي على قدمين» — بسبب إعلان الخِطبة؛ وفي الفترة التي تلت الخِطبة (التي صادف أن عرف جرانت أنها بلغت خمسة أشهر وليس اثنَي عشر شهرًا) لا بدَّ أن ابتهاجها المبدئي قد تمدَّد وتضاعف إلى شيء أكبر بكثير؛ إلى شعور بالرضا؛ شعور بالإنجاز، وبالسكينة والاطمئنان. وقد تحملت الخِطبة الصدمات الصغيرة التي لاقتها، أيًّا كانت، طيلة الأشهر الخمسة تلك، ولا بدَّ أن إيما كانت قد اعتادت النظر إلى هذه الخِطبة باعتبارها آمنة وراسخة.

ثم، كما قالت مارتا، ظهر ليزلي سيرل.

ليزلي سيرل بجاذبيتِه وحياته غير المستقرَّة. سيرل بسيمائه التي بدت وكأنها ليست من هذا العالم. ما كان أحد لينظر من فوره بارتياب إلى ذلك الأشقر الجذاب العصري أكثر من إيما جاروبي.

سأل جرانت مارتا: «ما الشيء الذي يمكن أن يوضع داخل مساحة مقاسها عشر بوصات ونصف في ثلاث بوصات ونصف في أربع بوصات؟»

فأجابت مارتا: «فُرشاة شعر.»

تذكر جرانت أن هناك لعبة يلعبها علماء النفس، إذ يذكر الضحية أول شيء يخطر بباله لدى سماعه كلمة ما. وبأخذ كل شيء في الاعتبار، لا بدَّ أن هذا النهج قد حقق نجاحًا جيدًا. لقد عرض جرانت تلك المسألة على بيل مادوكس، وجاءت إجابة بيل «مفتاح براغي» في غير تردُّد، تمامًا كما فعلت مارتا وقالت «فرشاة شعر». وتذكَّر أن ويليامز قد اقترح أن يكون الشيء هو قطعة صابون.

«أي شيء آخر؟»

«مجموعة من قطع الدومينو. علبة أظرُف خطابات؟ كلا، إذ سيكون هناك فارق صغير عند الجانب الصغير من المساحة. رزمة من البطاقات؟ هناك ما يكفي من البطاقات لتُداهم جزيرة منعزلة! أدوات مائدة. ملاعق العائلة. أكان هناك من يُخفي القطع الفضية الخاصة بالعائلة؟»

«لا. إنما هو شيء كنتُ أُفكِّر فيه.»

«إن كانت قطعًا فضية خاصة بمنزل تريمنجز، فدع هذا الأمر عنك، يا عزيزي، فما كانت تلك القطع مجتمعة لتأتي بثلاثين شلنًا إذا ما بيعت في مزاد.» ثم انتقلت عينها في ارتياح لا شعوري تجاه أدوات المائدة على الطاولة خلفها، التي كانت تتميَّز ببساطة العهد الجورجي. ثم أردفت: «أخبرني، يا آلان، لو أخبرتني من هو الشخص الذي تفضل أن يلعب هذا الدور، لن يُعدَّ هذا إفشاءً أو أمرًا مُنافيًا لأخلاق المهنة، أليس كذلك؟»

«أي دور؟»

«دور القاتل.»

«سيعدُّ هذا مُنافيًا لأخلاق المهنة وإفشاءً أيضًا. لكنني لا أعُده إفشاءً طائشًا لو أخبرتكِ أنني لا أظن أن هناك قاتلًا.»

«ماذا! أتظنُّ حقًّا أن ليزلي سيرل لا يزال على قيد الحياة؟ لماذا؟»

كان جرانت يسأل نفسه هذا السؤال. ما الشيء الذي ينطوي عليه هذا المشهد وخلَّف لديه إحساسًا بأنه في عرض مسرحي؟ إحساسًا بأنه يُدفَع إلى المقاعد الأمامية بحيث يفصل موقع فرقة أوركسترا بينه وبين الواقع. لقد قال له نائب مفوض الشرطة ذات مرة في لحظة غير معتادة من الفضفضة إنه يمتلك أثمن الصفات التي تقتضيها وظيفته؛ وهي الموهبة الفطرية. وقال له أيضًا: «لكن لا تكن مطية لها، يا جرانت. اجعل تركيزك منصبًّا على الأدلة». أتشكل هذه القضية مثالًا على سماحه لموهبته بأن تمتطيَه؟ كانت احتمالات أن يكون سيرل قد سقط في النهر هي تسعة وتسعون إلى واحد. كل الأدلة تشير في ذلك الاتجاه. ولولا تداعيات خلافه مع ويتمور، لما تدخل جرانت في هذه القضية على الإطلاق؛ كانت ستصبح قضية بسيطة تتعلق بـ «مفقود في عداد الغرقى».

«ولكن». رغم ذلك. يبدو الأمر كحيلة ساحر، أنت الآن ترى الشيء، وفي اللحظة التالية يختفي. تلك العبارة القديمة الخاصة بالسحرة. لقد صارت تلازمه كالوسواس.

وفي شيء من غفلة قالها بصوتٍ عالٍ.

حدَّقت فيه مارتا وقالت: «حيلة ساحر؟ من صاحب الحيلة؟ وما الهدف منها؟»

«لا أعرف. إنما ينتابني إحساس قويٌّ وحسب أن هناك من يتلاعب بي!»

«أتظنُّ أن ليزلي غادر من تلقاء نفسه بطريقة ما؟»

«أو أن أحدًا خطط لأن يبدو الأمر على هذا النحو. أو شيء من هذا القبيل. ينتابني إحساس قوي بأنني أشاهد شيئًا يُقطع بمنشار إلى نصفين.»

فقالت مارتا: «أنت تشق على نفسك في العمل. في ظنك أين اختفى ليزلي؟ إلا إن كان قد عاد إلى القرية واختبأ بمكان ما.»

انتبه جرانت بشدة ونظر إليها في إعجاب. وقال في سرور: «من الغريب للغاية أنني لم أفكر في هذا الأمر. أتظنِّين أن توبي يُخبِّئه ليُصعِّب الأمور على والتر؟»

«كلا، أعلم أن هذا غير منطقي. وكذلك فكرتك عن أنه غادر من تلقاء نفسه. إلى أين كان سيتجه في ساعة مُتأخِّرة من الليل وهو لا يرتدي غير بنطال ومعطف واقٍ من المطر؟»

«سأعرف حين ألتقي بأحد أقاربه غدًا.»

«ألديه أقارب؟ يا للمفاجأة. الأمر أشبه بالعثور على أقرباء للإله ميركوري. من هو؟»

«إنها امرأة. عرفتُ أنها رسَّامة. إنسانة لطيفة تخلَّت عن حضور حفل موسيقي بعد الظهر يوم الأحد في قاعة ألبرت هول كي تظلَّ في المنزل لمُقابلتي. وقد استخدمت هاتفك في تحديد موعد معها.»

«وتتوقَّع منها أن تعرف سبب مغادرة ليزلي في منتصف الليل وهو لا يرتدي شيئًا سوى بنطال ومعطف يقي من المطر؟»

«أتوقع منها أن تستطيع اقتراح مكان من المحتمل أن يكون ليزلي قد توجه إليه.»

فقالت مارتا: «سأَستعير العبارة الخالدة لمُساعِد خشبة المسرح وأقول: أتمنَّى لك دوام التوفيق.»

الفصل الرابع عشر

قاد جرانت سيارته عائدًا إلى ويكهام في تلك الأمسية الربيعية، نشيط الجسد منشرح الصدر.

وقد جلست إيما جاروبي إلى جواره طوال الطريق.

همست له موهبته الفطرية بمُغريات بسيطة، لكن إيما كانت حاضرة في منتصَف الصورة، حيث وضعتها مارتا، وهي راسخة على نحو يصعُب معه أن يصرفها. كان وجود إيما منطقيًّا ومعقولًا. فهي تمثل مثالًا وسابقة. لقد كانت معظم أمثلة الوحشية الكلاسيكية تخرج من الحياة المنزلية. كمثل ليزي بوردن وأشباهها. وإن استدعى الأمر كانت إيما تتحول إلى كائن بدائي. مخلوقة تحمي صغيرتها. إن الأمر يتطلَّب براعة هائلة كي يجد سببًا يُفسر اختيار ليزلي سيرل لأن يختفي. أما تفسير سبب قتل إيما جاروبي له فلا يتطلب براعة على الإطلاق.

في واقع الأمر، إن استمراره في العودة إلى فكرة أن سيرل ربما فرَّ من تلقاء نفسه تمثل ضربًا من العناد. وهو يتوقَّع ردَّ مُساعد مفوض الشرطة لو طرح عليه نظرية كهذه. الأدلة، يا جرانت، الأدلة الموحية المعبرة. المنطق السليم، يا جرانت، المنطق السليم. لا تُصبح مطية لموهبتِك يا جرانت، حاذر أن تصبح مطية لها. اختفى من تلقاء نفسه؟ ذلك الشاب المُبتهج الذي كان بإمكانه أن يدفع فواتير مكوثه في ويستمورلاند، ويشتري ثيابًا غالية يرتديها ويتحمل كلفة حلوى غالية يهادي بها، ويجوب العالم على حساب أشخاص آخرين؟ ذلك الشاب ذو الوسامة المدهشة والذي يلتفِت نحوَه كلُّ من يراه، حرفيًّا أو مجازيًّا؟ ذلك الشاب الجذاب الذي راقته ليز البسيطة العادية كثيرًا لدرجة أنه احتفظ بفردة قفاز لها؟ ذلك الشاب الناجح على الصعيد المِهَني الذي يُشارك في صفقة ستُدرُّ عليه مالًا وشهرة؟

المنطق السليم، يا جرانت. الأدلة، يا جرانت. لا تُصبح مطية لموهبتك.

فكِّر في إيما جاروبي، يا جرانت. كانت الفرصة سانحة لها. ولديها الدافع. وفي ظاهر الأمر، ربما كانت لديها الإرادة. فقد كانت تعرف مكان مخيَّمهم في تلك الليلة.

لكنها لم تكن تعلم أنهما أتيا إلى سالكوت من أجل تناول شراب.

لم يغرق سيرل في سالكوت.

ما كان لإيما أن تعرف أنها ستجده وحده. فقد كانت محض مصادفة أن ليزلي ووالتر تفرقا في تلك الليلة.

«شخص ما» وجده وحدَه. فلمَ لا تكون إيما؟

كيف يمكن لذلك أن يحدث؟

ربما رتَّبت لذلك.

إيما! كيف؟

هل لفتَ انتباهك أن سيرل قد خطط لأمر إبعاد والتر؟

كلا. كيف ذلك؟

كان سيرل استفزازيًّا. لقد استفز والتر لدرجة أنه لم يقدر على تحمُّل الأمر ولو لدقيقة واحدة أخرى، وكان أمامه إما أن يغادر أو أن يبقى ويتشاجر معه. لقد تخلَّص سيرل من والتر تلك الليلة.

لم قد يفعل ذلك؟

لأنه كان على موعد.

موعد! مع من؟

ليز جاروبي.

هذا تصور سخيف. لا يوجد أي دليل على أن ليز جاروبي كانت تكنُّ إعجابًا حقيقيًّا بـ …

أوه، لم تكن ليز هي من أرسلت الرسالة لكي يلتقي بها.

حقًّا؟ من كان إذن؟

إيما.

أتعني أن سيرل ذهب ليلتقي شخصًا كان يظن أنه ليز؟

أجل. لقد تصرَّف كما يفعل العشاق، إن فكرت في الأمر أكثر.

كيف ذلك؟

أتذكُر كيف ودَّع رفاقه تلك الليلة؟ مزاحهم وهم يتَّجهون إلى مضاجعهم في ليلة ربيعية صافية كتلك الليلة؟ أتذكر البهجة؟ شعوره وكأنه في قمة السعادة؟

كان قد تناول بضع كئوس من الجعة وحسب.

وكذلك رفاقه. وبعضُهم تناول أكثر من مجرد بضع كئوس. لكن هل كانوا يُنشدون أغاني مجازية عن تلك الليلة الربيعية؟ كلا لم يفعلوا. بل كانوا يسلكون أقصر الطرق إلى مضاجعهم، حتى أولئك الأصغر من بينهم.

في الواقع، هذه نظرية.

إنها أكثر من نظرية. إنها نظرية تدعمها الأدلة.

الأدلة، يا جرانت، الأدلة.

لا تُصبح مطية لموهبتك يا جرانت.

جلست إيما جاروبي إلى جواره طوال سَيره عبر الأزقة المُظلِمة بين سالكوت سانت ماري وويكهام. وحين خلد جرانت إلى فراشه، أخذها برفقته.

ولأنه كان مُتعبًا، ولأنه قد تناول وجبة عشاء جيدة، ولأنه أخيرًا رأى طريقًا مفتوحًا أمامه بشكل ما في القضية، حظي جرانت بنومٍ هانئ. وحين فتح عينَيه مع ضوء النهار على عبارة «تأتي ساعة وهي الآن» على صوف أُرجواني مصنوع من غُرَز متقاطعة، اعتبر جرانت هذه الآية من الكتاب المقدس بشارة أكثر منها تحذيرًا. كان جرانت يتطلَّع إلى الذهاب إلى البلدة، حتى على سبيل الاستجمام الذهني بعد انغماسه في سالكوت سانت ماري. فسيُمكِن له بعدها أن يعود وينظر إليها بالشكل الملائم. فلا يمكن للمرء أن يستمتع بمذاق أي شيء بالصورة الصحيحة إلا بعد أن يُنظِّف فمه بين الفينة والأخرى كي يُنشِّط حاسة تذوُّقه. كان جرانت يتساءل في غالب الأحيان كيف يتمكَّن المتزوِّجون من الرجال من الجمع بين الحياة المنزلية والمتطلبات المُستنزِفة للعمل الشُّرَطي! وخطر له الآن وللمرة الأولى أن الحياة الزوجية هي أفضل مُنظِّف لحاسة التذوق. فلا يمكن أن يكون هناك شيء يفوق سِنَة من نشاط يحظى بها المرء بمساعدته لابنه الصغير في مادة الجبر بحيث تساعده على العودة بذهن نشط إلى معضلة الجريمة التي يعمل عليها في الوقت الراهن.

فكَّر جرانت أنه سيتمكَّن على الأقل من الحصول على قمصان نظيفة. ومن ثم وضع أشياءه في حقيبتِه والتفت يهمُّ بالنزول لتناول الإفطار. كان اليوم هو يوم أحد، ولا تزال الساعة مبكرة، لكنهم سيتدبرون أمر تقديم شيء له على الإفطار. وعندما فتح باب حجرته رنَّ جرس الهاتف.

كان تركيب هاتف إلى جوار السرير هو وجه الاستثناء الوحيد الذي قدَّمه فندق وايت هارت بشأن تحقيق الرقيِّ والتقدُّم. سار جرانت عبر الغرفة في اتجاه الهاتف ورفع سماعته.

جاء صوت مالك المكان يقول: «المفتِّش جرانت؟ دقيقة من فضلك؛ لديك مُكالمة هاتفية.» ثم ساد الصمت لحظة، بعدها قال الرجل: «تفضَّل، إذا سمحت؛ أنت الآن على الخط.»

«مرحبًا.»

جاء صوت مارتا يقول: «آلان؟ أهذا أنت، يا آلان؟»

«أجل، هذا أنا. لقد استيقظتِ مُبكرًا، أليس كذلك؟»

«اسمع، يا آلان. لقد حدَث أمر ما. لا بدَّ أن تأتي في الحال.»

«آتي؟ تقصدين إلى سالكوت؟»

«إلى منزل ميل هاوس. لقد حدث أمر ما. إنه أمرٌ غاية في الأهمية وإلا لما هاتفتك في مثل هذه الساعة المبكِّرة.»

«لكن ما الذي حدث؟ ألا يُمكنكِ ...»

«أنت تتحدَّث عبر هاتف الفندق، حسبما أظن.»

«أجل.»

«لا يمكنني أن أُخبرك بدقة، يا آلان. لقد تكشَّف أمر ما. أمر يغير كل شيء. أو على وجه الدقة، كل شيء كنت ... كنت تعتقد فيه، إن جاز التعبير.»

«حسنًا. لا بأس. سآتي من فوري.»

«هل تناولتَ إفطارك؟»

«ليس بعد.»

«سأُعدُّ لك شيئًا من الطعام.»

يا لها من امرأة، هكذا فكر جرانت وهو يُعيد سماعة الهاتف. لطالما ظن جرانت أن أول المتطلبات في الزوجة هو الذكاء، والآن أصبح جرانت واثقًا من ذلك. لكن لم يكن هناك مساحة في حياته لمارتا، ولا في حياتها له؛ لكن الأمر كان باعثًا على الأسى، على أيِّ حال. إنَّ امرأة تستطيع أن تُعرب عن تطور مفاجئ في جريمة قتل من دون أن تُثرثر في الهاتف هي جوهرة، لكن المرأة التي تسأله في الوقت نفسه عما إذا كان قد تناول إفطاره بل وترتب لتقديم الإفطار الذي لم يتناوله حين يأتي فهي امرأة أثمن من كل الجواهر.

ذهب جرانت ليستقلَّ سيارته وقد ملأت الظنون قلبه. ما الذي يمكن أن يكون قد تكشَّف لمارتا؟ شيء تركه سيرل في الليلة التي كان فيها هناك؟ شائعة ما أخبرها بها بائع الحليب؟

كان هناك أمر واحد مؤكد: أن ما تكشف ليس بجثة. فلو كانت جثَّة لأخبرته مارتا بذلك — لكونها مارتا الذكية — حتى يتمكَّن من أن يحضر معه كل الأدوات اللازمة والأشخاص المعنيين للتعامل مع مثل ذلك الاكتشاف.

كان اليوم شديد الرياح ويظهر في سمائه قوس المطر. فقد ولَّت الأيام الصافية المشمسة الهادئة الرياح التي تحلُّ كل عام على الربيع الإنجليزي حين يرقد الغبار على الطرقات. فجأةً أصبح الربيع عاصفًا وهائجًا. وأصبحت الزخات المتلألئة تتمايل في الأفق. وتجمعت سحب ضخمة في الآفاق وجرفت معها رياحًا مدوية مصحوبة بأمطار في السماء. وانكمشت الأشجار ثم انتفشت واكتست بالأوراق، ثم انكمشت ثانية.

كان الريف مهجورًا. ليس بسبب الطقس ولكن لأنَّ اليوم كان يوم أحد. لاحظ جرانت أن ستائر بعض الأكواخ كانت لا تزال مغلقة. فالأشخاص الذين يستيقظون مع أول خيط ضوء طوال الأسبوع، والذين ليس لديهم من الحيوانات ما يُوقظهم في هذا اليوم، لا بد أنهم مسرورون بأن يغطُّوا في سباتهم لفترة أطول. غالبًا ما كان جرانت يتذمَّر حين تتداخل واجبات عمله الشُّرَطي مع حياته الخاصة (وهو تذمُّر مرفه، نظرًا لأنه كان بمقدوره أن يتقاعَد قبل سنوات طويلة حين تركت له عمَّته مالها) لكن أن يُمضي المرء حياته مُقيدًا بنزعاته الحيوانية، فذاك أمر يُمثل حتمًا مضيَعة مُحزنة لوقت الرجل الحر.

وبينما كان جرانت يوقف سيارته في مواجهة منزل ميل هاوس، حيث يقع الباب، خرجت مارتا لتُحييه. لم يحدث قطُّ من جانب مارتا أن ارتدت الثياب الريفية في الريف كما فعل الكثير من زملائها المُمثلين. فقد كانت تنظر إلى الريف كما ينظر إليه الريفيون أنفسُهم، كمكانٍ يعيش المرء فيه؛ وليس مكانًا يرتدي المرء له خصوصًا الزاهي وغير الرسمي من الملابس. كانت مارتا ترتدي القفازات إذا ما شعرت ببرودة في يدها. لم تكن تشعر أن عليها أن تبدوَ غجرية فقط لأنه يصادف أنها تعيش في منزل ميل هاوس في سالكوت سانت ماري. لذا كانت مارتا تبدُو هذا الصباح أنيقةً وراقية، وكأنها تلتقي به على سلَّم أحد منازل حي ستانوورث. لكن فكَّر جرانت أنَّ وجهَها تعتريه أمارات الصدمة. بالفعل بدت مارتا وكأنها كانت مريضة جدًّا مؤخَّرًا.

«آلان! لا يُمكنك أن تتخيَّل مدى سعادتي لسماع صوتك عبر الهاتف. كنتُ أخشى أن تكون قد غادرت إلى المدينة، حتى في مثل تلك الساعة المبكرة.»

فسألها جرانت وهو يتجه نحو الباب: «ما الذي تكشَّف بهذه الصورة المفاجئة؟» إلا أنها قادته حول المنزل حتى باب المطبخ في جانب من جوانب المنزل.

«إنه تومي ثروب، الصبي المعجب بك، هو من وجده. تُومي يعشق صيد السمك. وكثيرًا ما يخرج قبل الإفطار ليصطاد، لأن هذا الوقت مناسب للصيد على ما يبدو.» فكَّر جرانت في ذهنه أن عبارة «على ما يبدو» تمثل تجسيدًا لنمط مارتا في الحديث. فقد عاشت مارتا إلى جوار النَّهر طيلة سنوات ولا تزال تضطر لاستعارة كلمة شخص آخر للتعبير عن الوقت المناسب لصيد السمك. «في أيام الأحد غالبًا ما يأخذ تومي شيئًا في جيبه ولا يعود — شيئًا من الطعام أقصد — لكنه عاد هذا الصباح بعد ساعة لأنه ... لأنه اصطاد شيئًا عجيبًا.»

ثم فتحَت مارتا الباب ذو اللون الأخضر اللامع وتقدمته إلى داخل المطبخ. كان تومي ثروب وأمه هناك. كانت السيدة ثروب منكبَّة على الموقد وكأنها كانت تشعر هي أيضًا بإعياء شديد، لكن تومي تقدم ليلتقي بهما في هيئة يكسوها التألق. لم يبدُ على تومي شيء يُوحي بالتوعك. كانت هيئة تومي تُوحي بالفخر. كان مبتهجًا إلى أقصى حد. وبدا شامخًا حد السماء متوجًا بالبرق.

قال تومي قبل أن تقول مارتا أي شيء: «انظر يا سيدي! انظر إلى ما اصطدت!» وسحب جرانت تجاه طاولة المطبخ. وعلى الطاولة، وُضع حذاء رجلٍ بعناية على بضع طبقات من الجرائد لكي يحافظوا على نظافة الطاولة المثالية.

تأوهت السيدة ثروب من دون أن تلتفت قائلة: «لن أتمكَّن من خبز شيء على هذه الطاولة ثانية.»

نظر جرانت إلى الحذاء وتذكر وصف الشرطة لملابس الرجل المفقود.

فقال: «أظن أنه يخص سيرل.»

فردَّت مارتا: «أجل.»

كان حذاءً بني اللون، وبدلًا من أن يكون ذا أربطة، كان مربوطًا بإبزيم وحزام عبر مشط القدم. كما كان الحذاء موحلًا ومشبعًا بالماء.

«من أين اصطدته، يا تومي؟»

«من على بعد نحو مائة ياردة من المنحنى الكبير باتجاه أسفل النهر.»

«أظن أنك لم تُفكِّر في وضع علامة على المكان؟»

رد تومي وقد شعر بالإساءة: «بل وضعت علامة بالطبع!».

«أحسنتَ. سيتعيَّن عليك أن تُريني المكان بعد قليل. في تلك الأثناء، انتظر هنا. لا تخرج وتتحدث عن هذا الأمر.»

«أجل، يا سيدي، لن أفعل. لا أحد يعلم بهذا الأمر غيري والشرطة.»

صعد جرانت إلى الطابق العلوي وهو مُبتهج بعض الشيء بفعل هذا التطور الجديد في الموقف، وتوجه إلى الهاتف في غرفة المعيشة واتصل بالمفتش رودجرز. وبعد مهلة؛ إذ كان يتحتَّم على قسم الشرطة أن يوصله بهاتف منزل رودجرز، أصبح جرانت على الخط معه فأخبره بأن النهر ينبغي أن يُفتَّش تفتيشًا دقيقًا مرة ثانية ووضح له سبب ذلك.

غمغم رودجرز: «أوه، يا إلهي! هل أخبرَك الصبيُّ ثروب بالمكان الذي اصطاده منه؟»

«على بُعد مائة ياردة تقريبًا من عند منحنى النهر الكبير، إن كان في هذا ما يُرشدك إلى شيء.»

«أجل. يقع هذا المكان باتجاه أسفل النهر على بُعد مائتي ياردة تقريبًا من المكان الذي كانا يُخيِّمان فيه. وقد فتشنا تلك المساحة كلها تفتيشًا دقيقًا. ألا تظنُّ أنه ربما …؟ هل يبدو الحذاء وكأنه كان في الماء منذ ليلة الأربعاء؟»

«أجل، يبدو كذلك بالفعل.»

«أوه، حسنٌ. سأُجري الترتيبات اللازمة. يمكن أن نفعل ذلك رغم أننا في عطلة يوم أحد، أليس كذلك؟»

«هلا رتَّبتَ للأمر في هدوء بقدر ما يمكن؟ فلا نرغب في وجود مشاهدين أكثر مما يمكننا التعامل معهم.»

وبينما كان يضع السماعة دخلت مارتا بصينية وبدأت تضع إفطاره على الطاولة.

«لا تزال السيدة ثروب تشعُر بما تقول إنه «رغبة في التقيؤ»؛ لذا ارتأيت أن من الأفضل أن أعدَّ إفطارك بنفسي. كيف تحبُّ تناول البيض؟ أتحبه مقليًّا؟»

«إن كنتِ ترغبين في معرفة ذلك حقًّا، أحبه نصف مطهوٍّ ومُفتَّتًا بشوكة.»

فقالت مارتا مبتهجة: «مخلوط! هذا نوع لم أعهدْه من قبل. أرى أننا نزداد ألفة! على الأرجح أنني المرأة الوحيدة على وجه الأرض التي تعلم أنك تحب البيض على الإفطار مُفتتًا، باستثناء مُدبِّرة منزلك، أليس كذلك؟»

«في واقع الأمر، هناك امرأة في قرية تقع بالقُرب من أمينز كنتُ قد اعترفت لها من قبل بذلك. لكنني أشك أنها ستتذكر.»

«على الأرجح هي الآن تجني ثروة من تلك الفِكرة. ومن المُرجَّح أيضًا أن البيض الإنجليزي يمتلك معنى جديدًا تمامًا الآن في فرنسا. أتُريد خبزًا بنيًّا أم أبيض؟»

«بنيًّا من فضلك. سيتعيَّن عليَّ أن أدين لكِ بمكالمة خارجية أخرى.» ثم رفع جرانت سماعة الهاتف ثانية وطلب الاتصال بمنزل ويليامز في لندن. وبينما كان ينتظر تحويل

المكالمة من لندن اتصل بمنزل تريمنجز وطلب التحدُّث إلى مُديرة المنزل. وحين جاءت السيدة بريت لتلقِّي المكالمة وهي تلهث، سألها عن الشخص المسئول عن تنظيف الأحذية في منزل تريمنجز، فأخبرته أنها بولي، الفتاة التي تعمل في المطبخ.

«هلا عرفتِ من بولي ما إن كان السيد سيرل مُعتادًا على خلع حذائه البني ذي الإبزيم من دون أن يفك إبزيمه، أم إنه كان يفكُّه أولًا قبل أن يخلعه؟»

أخبرته السيدة بريت أنها ستفعل ذلك، وسألته إن كان يرغب في التحدث إلى بولي بنفسه.

«كلا، شكرًا لكِ. سأتثبت ممَّا ستقول، بالطبع فيما بعد. لكنني أظن أن احتمالية شعورها بالاضطراب إذا ما سألتِها أنت سؤالًا عاديًّا ستُصبح أقل مما إذا جاءت إلى الهاتف ليسألها في ذلك رجل غريب. لا أريد منها أن ترتبك عند تفكيرها في الإجابة عن السؤال على الإطلاق. هل كان الحذاء مشبوكًا بالإبزيم أم مفكوكًا حين كانت تنظفه؟»

فهمت السيدة بريت مراده، وطلبت منه الانتظار حتى تسألها.

«كلا. فأنا أنتظِر مُكالَمة مُهمَّة. لكنني سأُعاودُ الاتصال بكِ بعد وقت وجيز.»

جاءت مكالمة لندن على الخط، وتمكَّن جرانت من سماع صوت ويليامز الذي لم يكن مسرورًا كثيرًا وهو يقول لعامل تحويل المكالمات: «لا بأس، أنا مُستعدٌّ لتلقي المكالمة منذ خمس دقائق.»

«أهذا أنت، يا ويليامز؟ هذا أنا جرانت. أنصت إليَّ. كنت سآتي إلى البلدة اليوم لألتقي بابنة عم ليزلي سيرل. أجل، لقد عرفت أين تقطن. اسمها سيرل. آنسة سيرل. وهي تقطُن في منزل رقم ٩ في هولي بيفمينت في هامبستيد. إنه مكان أشبه بمجمع للفنانين. لقد هاتفتها ليلة أمس ورتبت موعدًا للقائها بعد ظهر اليوم عند حوالي الساعة الثالثة. والآن لا يُمكنني الحضور للقائها. لقد اصطاد صبي هنا حذاءً يخص ليزلي سيرل من النهر. أجل، حسنًا، إنه أمر يدعو إلى التباهي! لذا علينا أن نُفتِّش النهر ثانية بدقة، ويتحتَّم عليَّ أن أظل هنا. فهل تستطيع الذهاب للقاء الآنسة سيرل بدلًا مني، أم أطلب شخصًا آخر من إدارة سكوتلانديارد؟»

«كلا، سأذهب، يا سيدي. عم تُريدني أن أسألها؟»

«اعرف منها كل ما تعرفه هي عن ليزلي سيرل. متى رأته آخرَ مرَّة. من هم أصدقاؤه في إنجلترا. كل ما يمكنك الحصول عليه منها بشأنه.»

«جيد جدًّا. متى أُعاود الاتصال بك؟»

«ينبغي أن تكون هناك بحلول الثالثة إلا الربع، وستُغادر بعد ساعة؛ أي ربما بحلول الرابعة.»

«هل أتَّصل بك في قسم شرطة ويكهام؟»

«كلا، قد لا أكون هناك. فنظرًا لبطء عملية التفتيش، ربما من الأفضل لو اتَّصلت بي في منزل ميل هاوس في سالكوت. إن رقمه هو سالكوت ٥.»

ولم يدرك جرانت أنه لم يسأل ويليامز عما آلت إليه مهمَّتُه مع بيني سكول إلا حين وضع السماعة.

دخلت مارتا بإفطاره، وبينما كانت تصبُّ له القهوة هاتف جرانت منزل تريمنجز ثانية.

كانت السيدة بريت قد تحدَّثت إلى بولي، ولم يكن لدى الأخيرة أدنى ريب حيال المسألة. إن رباطَي حذاء السيد سيرل البني دائمًا ما تجدهما مفكوكَين حين يخلعه لتنظيفه. كانت تعرف ذلك لأنها اعتادت أن تُعيد ربطهما بحيث لا يُحدِثان ضجة وهي تنظف الحذاء. فكانت تربط الرباطين لتبقيهما ساكنين، ثم تفكهما حين تنتهي.

هكذا كان الأمر إذن.

بدأ جرانت يتناول إفطاره، وصبَّت مارتا لنفسها كوبًا من القهوة وجلست ترتشف منه. بدت شاحبة باردة، لكنه لم يستطع أن يحجم عن سؤالها:

«هل لاحظتِ شيئًا غريبًا بشأن الحذاء؟»

«أجل. كان الحذاء مفكوكًا.»

يا لها من امرأة مُدهِشة. وفكَّر جرانت في ذهنه أنه لا بد من وجود نقائص تُكافئ كل هذه الميزات الكثيرة لديها، إلا أنه لم يستطع أن يتخيَّل ماذا يمكن أن تكون هذه النقائص.

الفصل الخامس عشر

كان الجو عند النهر في غاية البرودة. كانت أشجار الصفصاف تهتزُّ، وكان لون الماء رماديًّا مائلًا للزُّرقة، وكان سطحه يتناوب ما بين التجعد بفعل الرياح والتنقر بفعل زخات المطر. وبمرور الساعات بطيئة تحوَّل وجه رودجرز القَلِق بطبيعته إلى كآبة مستقرة، أصبح طرف أنفه الذي يطل من ياقة معطفه الواقي من المطر يتَّخذ لونًا زهريًّا داكنًا. وحتى هذه اللحظة لم يأتِ مُتطفِّلُون ليُشاركوا في عملية التفتيش تلك. فقد أقسم كلٌّ من في منزل ميل هاوس أن يُحافظوا على السرية، ولم يجدوا في ذلك أي مشقة؛ إذ انسحبت السيدة ثروب إلى فراشها، وكانت لا تزال «تشعر برغبة في التقيؤ»؛ وكان تومي ضمن فريق التفتيش باعتباره مواليًا للشرطة. كان الامتداد الشاسع للنهر عبر الأراضي الطينية بعيدًا عن أي طريق أو ممرٍّ ويخلُو من المنازل؛ لذا لم يكن هناك مارة ليتوقفوا ويشاهدوا، أو ليتوقفوا هنيهة ثم يكملوا مسيرهم وينشروا الخبر.

كانت مجموعة التفتيش وحدها في عالم منعزل بالأسفل قرب النهر. عالم توقف فيه عامل الزمن، واختفت منه الراحة.

كان جرانت ورودجرز قد استنفدا الإجراءات المهنية لتقييم الموقف منذ وقت طويل، ولم يحرزا أي تقدم. والآن كانا مجرَّد رجلَين بمفردهما في مرج في يوم ربيعي بارد. جلس الرجلان معًا على ما تبقَّى من جذع شجرة صفصاف ساقط، حيث يُراقب جرانت جرافة البحث وهي تُجري عملية التفتيش البطيء، بينما ينظر رودجرز عبر المسطحات الرحيبة لأرضية الوادي.

قال رودجرز: «يفيض ماء النهر على كل هذه الأرض في الشتاء. ويبدو ذلك جميلًا، أيضًا، إن استطعت أن تنسى كل ما تُخلِّفه من دمار.»

قال جرانت: ««مرَّ الجَمال سريعًا فأغرق نجيلًا كادحًا».»

«ماذا قلت؟»

«ما كتبه زميل لي في الجيش عن الفيضان.

«ذات مرة حيثما كان النجيل الرقيق البراق يختلِج ويتحرَّك. مرَّ الجَمال سريعًا فأغرق نجيلًا كادحًا».»

فقال رودجرز: «هذا لطيف.»

رد جرانت: «لكنه عتيق الطراز مع الأسف. قد يبدو «وقعُه» كالشعر. عرفت أن به خلَلًا كارثيًّا.»

«أهو طويل؟»

«شطران فقط والعِبرة منهما.»

«وما العبرة؟»

«أيها الجمال الأخير، الكامن في كثير من الأماكن الغرقى، لن يحملَنا إغراقك لبعض الأشياء الجميلة على كُرهِ وجهك.»

أخذ رودجرز يفكر في ذلك. ثم قال: «هذا حسن، فعلًا. كان زميلك في الجيش يعرف عن ماذا يتحدث. لم أكن يومًا ممَّن يُحبُّون قراءة الشعر في الكتب؛ أقصد الدواوين الشعرية، لكن المجلات في بعض الأحيان تضع شطورًا لتملأ المساحات الفارغة في آخر الصفحات حين ينتهي مقال ولا يصل إلى أسفلها. أتفهمني؟»

«أفهمك.»

«قرأت الكثير من تلك الشطور، وبين الفينة والأخرى تعلق إحداها بذهني وتُذكِّرني بشيء. وأتذكر إحداها حتى يومنا هذا. لم تكن شعرًا على النحو الصحيح، أقصد أنها لم تكن مُقفَّاة، لكنها نقلتْني إلى حيث كنت أعيش. وهي تقول:

«قَدَري أن أعيش بعيدًا عن السواحل، بعيدًا عن أصداء الشطآن وصيحات النوارس، وأنا المجبول على صوت البحر منذ نعومة أظفاري، أتحرَّق لسماع النهر يتدفق عبر الحقول الخضراء وزقزقة العصافير بين الأغصان.»

لقد تربَّيت بالقُرب من البحر، عند ميناء مير، ولم أعتد قطُّ الابتعاد عنه. فحينها تشعر أنك مُقيَّد ومُختنق. لكنني لم أجد الكلمات التي تصف ذلك الشعور قطُّ حتى قرأت تلك الكلمات. أعرف تمام المعرفة كيف كان شعور ذلك الشخص. «زقزقة العصافير!»».

سُر جرانت من نبرة الحنق والازدراء في صوت رودجرز، لكن شيئًا آخر سرَّه أكثر بكثير فراح يضحك.

سأله رودجرز بنبرة دفاعية نوعًا ما: «ما المضحك في ذلك؟»

«كنت أفكر للتوِّ كم ستُصبح صدمة كُتاب الأدب البوليسي الرائع إن شهدوا مفتِّشَي شرطة يجلسان على شجرة صفصاف ويتبادلان القصائد.»

رد رودجرز: «أوه، آه من أولئك!» بالنبرة التي عادة ما يتبعها الأشخاص من المستويات الدنيا ببصاق. ثم سأله: «هل قرأت من قبل أيًّا من تلك الأشياء؟»

«أوه، أجل. بين الحين والآخر.»

«هذه هواية لدى الرقيب الذي يعمل معي. إنه يجمع الأخطاء. وأكبر رقم من الأخطاء سجله حتى الآن في كتاب واحد هو اثنان وتسعون. في كتاب بعنوان «آلهة الإنقاذ» كتبته إحدى المؤلفات.» ثم توقَّف ليشاهد شيئًا، بعدها أضاف: «هناك امرأة قادمة الآن. إنها تدفع دراجة.»

ألقى جرانت نظرة ثم قال: «هذه ليست امرأة. إنها من آلهة الإنقاذ.»

كانت المرأة هي مارتا التي لا تُقهر، ومعها قنينات حافظة للحرارة بها قهوة ساخنة وشطائر للجميع.

قالت في تفسيرها لأمر الدراجة: «كانت الدراجة هي الشيء الوحيد الذي وجدتُه لأجل حمل هذه الأشياء، لكن كان الأمر صعبًا لأن معظم البوابات لا تُفتح.»

«كيف عبرتِ خلالها إذن؟»

«كنت أفرغ حمولة الدراجة وأرفعها فوق البوابة وأحمل الأشياء فيها ثانية عند الجهة الأخرى.»

«تلك هي الروح التي أنشأت الإمبراطورية.»

«قد يكون هذا صحيحًا، لكن لا بدَّ أن يعود تومي برفقتي ويُساعدني.»

فقال تومي وفمه مليئًا بشطيرة: «سأفعل بكل تأكيد يا آنسة هالارد.»

خرج الرجال من النهر وقُدموا إلى مارتا. وسُر جرانت حين لاحظ رُوح الود لدى أولئك الذين كان من الواضح أنهم لم يسمعوا عنها من قبل، ومن حسن الأدب الرائع لدى أولئك الذين يعرفونها.

قالت مارتا: «أعتقد أن الأخبار قد تسرَّبت. لقد اتصل بي توبي وسألني إن كان صحيحًا أن النَّهر يجري تفتيشه ثانية.»

«لم تُخبريه السبب؟»

فأجابت: «كلا. كلا» وقد تحوَّل وجهها وبدا كئيبًا بعض الشيء لدى تذكُّرها الحذاء.

بحلول الثانية من بعد ظهر اليوم كان قد أصبح لديهم مجموعة كبيرة من الحضور. وبحلول الثالثة أصبح المكان أشبه بسوق، وبذلَ الشرطيُّ المحلي جهودًا باسلة ليحفظ شيئًا من اللياقة والنظام.

وعند الثالثة والنصف، كانوا قد فتشوا من النهر امتدادًا إلى سالكوت نفسها ولم يجدوا شيئًا. فعاد جرانت إلى منزل ميل هاوس ووجد والتر ويتمور بانتظاره.

قال والتر: «كان لطفًا منك أيها المفتش أن تبعث لنا برسالة. كان ينبغي عليَّ الحضور إلى النهر، لكنني لم أتمكن من ذلك.»

«لم يكن لنا أدنى حاجة إلى حضورك إلى هناك.»

«قالت مارتا إنك ستعود إلى هنا بحلول وقت تناوُل الشاي؛ لذا انتظرتك هنا. هل من ... نتيجة؟»

«ليس بعد.»

«لماذا أردتَ أن تعرف بأمر الحذاء، هذا الصباح؟»

«لأنه كان مربوطًا حين وُجِد. وأردتُ أن أعرف إن كان سيرل يخلع هذا الحذاء في العادة من دون أن يفكه. من الواضح أنه دائمًا ما كان يفكُّه.»

«إذن لماذا ... كيف يُمكن للحذاء أن يكون مربوطًا الآن؟»

«إما إن التيار قد سحبه من قدمه، أو أنه قد خلعه بنفسِه من قدمه ليسبح بشكلٍ أسهل.»

قال والتر، بنبرة حزينة: «فهمت.»

ورفض أن يتناول الشاي، وانصرف في سبيله وقد بدا مشوشًا أكثر من ذي قبل.

قالت مارتا: «أتمنى لو كنت آسفة عليه كما يجدُر بي أن أكون. أتريد الشاي هنديًّا أم صينيًّا؟»

كان جرانت قد تناول ثلاثة أكواب من الشاي الحارق السخونة («هذا مُضرٌّ كثيرًا بمعدتك» كما قالت مارتا) وقد بدأ يستعيد شعوره بآدميته ثانية، وذلك حين اتصل ويليامز ليبلغه بما توصل إليه.

كان التقرير غير ذي جدوى؛ على الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها ويليامز. لم يكن سيرل يروق ابنة عمه ولم تتردَّد هي في التصريح بذلك. هي، أيضًا، كانت أمريكية، لكنهما قد وُلِدا على جانبين معاكسين في الولايات المتحدة ولم يلتقيا قطُّ حتى صارا بالغَين. ومن الواضح أنهما كانا يتشاجران كلما رأى أحدهما الآخر. وفي بعض الأحيان كان يتَّصل

بها حين يأتي إلى إنجلترا، لكنه لم يُهاتفها هذه المرة. لذا لم تكن تعرف أنه موجود في إنجلترا.

وسألها ويليامز إن كانت تخرج من منزلها كثيرًا، وما إن كانت تظنُّ أن سيرل قد أتى لزيارتها أو هاتفها ولم يجدها. وردَّت هي بأنها كانت في هايلاندز ترسم وأن سيرل ربما جاء لزيارتها مرارًا من دون أن تعرف. فحين تكون في الخارج يُصبح الاستوديو فارغًا ولا يُوجد من يتلقَّى الرسائل الهاتفية.

سأله جرانت: «هل رأيت الرسومات؟ تلك التي رسمتْها لاسكتلندا.»

«أجل. كان المكان يعج بها.»

«وكيف كانت تبدو؟»

«تُشبه اسكتلندا كثيرًا.»

«تقليدية إذن.»

«ما كنتُ لأعرف. كان أغلبها عن غربي سادرلاند وجزيرة سكاي.»

«وماذا عن أصدقائه في هذا البلد؟»

«قالت إنها متفاجئة من سماع أن لديه أصدقاء في أيِّ مكان.»

«ولم تشِر إلى أن سيرل كان مخادعًا عديم الضمير؟»

«كلا يا سيدي. لم تأتِ على ذكر شيء من هذا القبيل.»

«ولم تستطع اقتراح أي سبب قد يفسر اختفاء سيرل المفاجئ، أو إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب؟»

«كلا، لم يكن بإمكانها ذلك. فليس لديه من يذهب إليه، كما أخبرتْني. فوالداه قد ماتا على ما يبدو؛ وكان هو ابنهما الوحيد. لكن بدا إنها لا تعرف شيئًا عن أصدقائه. على أي حال، كان صحيحًا ما قاله عن أن لديه فقط ابنة عم في إنجلترا.»

«حسنًا، شكرًا جزيلًا لك يا ويليامز. لقد نسيت تمامًا أن أسألك هذا الصباح إن كنت قد وجدت بيني؟»

«بيني؟ أوه، أجل. بسهولة كبيرة.»

«وهل أخذ يصيح؟»

هنا سمع جرانت ويليامز يضحك.

«كلا. لقد أتى بخُدعة جديدة هذه المرة. تظاهر بأنه فقد الوعي.»

«وعلامَ تحصَّل من ذلك؟»

«على ثلاثة مشروبات براندي مجانية وتعاطُف الكثيرين. لستُ في حاجة إلى أن أخبرك أننا كنا في حانة. بعد أن تناول مشروب البراندي الثاني بدأ يستعيد وعيه وينوح من طريقة اضطهاده؛ لذا قدموا له شرابًا ثالثًا. حينها لم أكن محبوبًا كثيرًا لدى الحاضرين.»

رأى جرانت أن في هذا مثالًا رائعًا على تهوين الأمر.

قال ويليامز: «من حسن الحظ أن الحانة كانت من حانات منطقة ويست إند.» وترجمة هذا تعني أنه لم يكن هناك تدخُّل فعلي من الحاضرين أثناء أدائه لعمله.

«هل وافق على الذهاب معك من أجل التحقيق معه؟»

«قال إنه سيذهب معي لو سمحت له أن يُجري مُكالَمة هاتفية أولًا. وقد قلت له إنه يعرف تمامًا أن له مطلق الحرية في أن يهاتف أي أحد وفي أيِّ ساعة من النهار أو الليل — إذ كان هذا من تدابير مكتب البريد — لكن لو كانت مكالمته تلك لأغراض بريئة فأعتقد أنه لم يكن ليُمانع أن ألازمه فأقف إلى جوار كشك الهاتف.»

«وهل وافق على ذلك؟»

«لقد أقحمني عمليًّا في كشك الهاتف. في ظنك، بمن اتصل ذلك الوغد الصغير؟»

«عضو البرلمان الذي ينوب عن دائرته.»

«كلا. أظن أن أولئك يخجلون منه بعض الشيء الآن. فقد أثقل عليهم آخر مرة. كلا، لقد اتصل برجل ما يعرف أنه يكتب في جريدة ووتشمان وأخبره بالقصة. قال إنه لم يكد «يخرج» من السجن حتى كان أحد رجال الشرطة في إثره يُريد منه أن يذهب إلى سكوتلانديارد من أجل التحقيق معه، وكيف لرجل أن يسير في الطريق المستقيم إن كان يحظى بجلسة شراب بريئة مع أصدقائه الذين لم يكونوا يعرفون أي شيء عنه، فيأتيه رجل من الواضح أنه من البوليس السري يرتدي ثيابًا مدنية يريد أن يتحدث معه، وراح يكمل القصة. ثم أتى معي وهو مسرور كثيرًا بفعلته.»

«هل أفاد الإدارة بأيِّ معلومات؟»

«كلا، لكن فَتاته كانت مُفيدة للغاية.»

«هل أخذت تثرثر؟»

«كلا، بل كانت ترتدي أقراط بوبي. بوبي بلامتر.»

«حقًّا!»

«لو لم يصادف أننا أخذنا بيني من وسط دائرة أصدقائه لبعض الوقت، فأعتقد أن فتاته كانت ستأخذه منها إلى الأبد. إنها مجنونة للغاية. لم يمضِ على علاقتهما كثير، ويبدو

أنها كانت تُفكِّر في هجره؛ لذا «ابتاع» لها بيني زوج أقراط من الألماس. إن كم الذكاء الذي يتمتع به بيني ما كان ليزعج دعسوقة حتى.»

«هل حصلت على بقية أشياء بوبي؟»

«أجل. فقد اعترف بيني بكل شيء. لم يكن أمامه متَّسع من الوقت ليبيعها.»

«أحسنت صنعًا. ماذا عن الرجل من جريدة ووتشمان؟»

«في الواقع، أردتُ أن أترك ذلك الرجل يعاني مغبة أفعاله. لكن المفوَّض لم يسمح لي بذلك. قال إنه لا فائدة من وجود مشاكل بإمكاننا تجنُّبها حتى ولو كنَّا سنستمتع برؤية جريدة ووتشمان تجعل من نفسها أضحوكة. لذا تحتَّمَ عليَّ أن أتصل به وأُطلعه على ما حدث.»

«لا بدَّ أنكَ تشفَّيتَ بشيء من ذلك على الأقل.»

«أوه، أجل. أجل. لا أنكر أنني استمتعت بذلك بعض الشيء. فقد قلت له: «سيد ريتر، أنا الرقيب المحقِّق ويليامز. كنت حاضرًا حين هاتفك بيني قبل بضع ساعات.» فقال سائلًا: «كنت حاضرًا؟ لكنه كان يشتكيك»!» فأجبتُه: «أوه، أجل. نحن في بلد حرٍّ كما تعلم.» فقال: «لا أظنُّ أن البعض يتمتَّع بمقدار الحرية نفسه. كنت تقتاده كي يُحقَّق معه في دائرة الشرطة الرئيسية.» فقلت له إنني دعوته لرفقتي وإنه لم يكن مُضطرًّا إلى المجيء لو لم يُرِد ذلك.

ثم أخذ يسهب بالحجة القديمة نفسها عن مطاردة المجرمين وتعقُّبهم، وأن بيني سكول قد أدَّى دَينه تجاه المجتمع، وأننا لا نملك أي حق في مُطاردته الآن بعد أن نال حريته ثانية، وما إلى ذلك. وقد قال السيد ريتر: «لقد ألحقت به العار أمام أصدقائه، وزججت به إلى ظلمات اليأس. فكم استفادت سكوتلانديارد من الاستمرار في إزعاج بيني سكول المسكين خلال ظهيرة اليوم؟»

فأجبته: «ما يُساوي ألفَي جنيه».

فقال متعجبًا: «ماذا؟ ما الذي تتحدَّث عنه؟»

تلك هي قيمة المجوهرات التي سرَقَها من شقة بوبي بلامتر مساء يوم الجمعة.

فسألني: «كيف عرفت أن ذلك من فعل بيني؟»

فأجبته أن بيني قد سلم المسروقات بنفسِه، عدا قرطين ماسيَّين فرديين كبيرين كانا يُزيِّنان أذنَي عشيقته الحالية. ثم قلت له: «طاب مساؤك، يا سيدي»، بنبرة عذبة وخافتة، تمامًا كما يفعلون في برنامج «ساعة الأطفال»، ثم أغلقتُ الخط. أعتقد أنه كان قد كتب

ذلك الخطاب بالفعل عن بيني سكول البريء المسكين. لقد كان مبهوتًا. لا بدَّ أن الكتَّاب يشعُرون بالسطحية الشديدة حين يجدون أنهم كتبوا شيئًا ليس فيه نفع لأحد.»

فقال جرانت: «انتظر حتى يتم السطو على شقة السيد ريتر. حينها سيأتينا صارخًا يطلب إهراق دم المجرم.»

«أجل، يا سيدي. إنه لأمر طريف، أليس كذلك؟ دائمًا ما يكون أولئك هم الأسوأ حين يحدث لهم مثل ذلك. هل جاءك أي خبر من سان فرانسيسكو؟»

«ليس بعد، لكن قد يحدث ذلك في أي لحظة. لا يبدو ذلك مهمًّا للدرجة الآن.»

«أجل. حين أفكر في المفكرة التي ملأتها عن آخرها أثناء تحقيقي مع محصِّلي الحافلات في ويكهام! أجد أنها ليست ذات نفع إلا لسلة المهملات.»

«لا تلقِ أبدًا بملاحظاتك في سلَّة المُهمَلات، يا ويليامز.»

«أأحتفظ بها سبع سنوات وأجد لها نفعًا بعدها؟»

«احتفظ بها من أجل سيرتك الذاتية، إذا ما أردتَ، لكن احتفظ بها. كنتُ أود أن تعود إلى هنا، لكن العمل لا يقتضي ذلك في الوقت الراهن. إنما يقتضي العمل الآن الانتظار في الخارج في هذا الطقس البارد.»

«أتمنى أن تتوصَّلُوا إلى شيء قبل غروب الشمس، يا سيدي.»

«آمل هذا. حرفيًّا.»

أغلق جرانت الخط وعاد إلى ضفة النهر. كان حشد الناس قد نقص بعض الشيء إذ بدأوا يعودون إلى منازلهم لتناول وجبة عشاء مبكِّرة كما اعتادوا في أيام الآحاد، لكن المعاندين منهم الذين قد يتضوَّرُون جوعًا في سعادة من أجل أن يشهدوا جثة رجل وهي تُستخرج من النهر كانوا لا يزالون واقفين. نظر جرانت إلى وجوههم المزرقة التي تبدو عليها علامات الحماقة وراح يُفكِّر للمرة الألف منذ أن أصبح رجلَ شرطة في الدافع الأساسي لدى هؤلاء. كان هناك أمر واحد أكيد بشأنهم؛ لو أننا أعدْنا عقوبة الإعدام على الملأ غدًا، فإن «أعداد المتفرِّجين» ستصبح كبيرة وكأنها مباراة كأس حاسمة.

كان رودجرز قد عاد إلى ويكهام، لكن يبدو أن الصحافة قد وصلَت؛ إذ أراد كل من الصحفي المحلي ومراسل جريدة كروم، وهي من الصحف اليومية اللندنية، أن يعرفا السبب وراء إعادة تفتيش النهر. وكان هناك أيضًا «أكبر السكان». وهو رجل اقترب أنفه من ذقنه حتى إن جرانت كان يتساءل في ذهنه كيف يمكن لرجل كهذا أن يحلق لحيته. كان الرجل عجوزًا غير ذي حيثية لكنه يُمثِّل في هذا الجمع شيئًا أقوى بكثير من أيٍّ منهم: إنه ريس ميموري؛ ومن ثمَّ كان يجب أن يحظى بالاحترام.

قال الرجل لجرانت: «لا نفعَ من تفتيشكم للنهر فيما بعد القرية» وكأنه يُعطي لبستانيٍّ بعض التعليمات.

«أحقًّا؟»

«نعم. لا نفع من ذلك. فهي تدفع بكل شيء لأسفل، هناك. في الوحل.»

لا شك أن «هي» كانت تعود على مياه النهر.

«لماذا؟»

«لأنها تسير بطيئة هناك. كما لو كانت منهَكَة. وكأنها تُلقي بكل شيء عنها. ثم حين تصبح على مقربة من منحنى النهر، عند منتصف الطريق نحو ويكهام هناك، تبدأ في السير سريعًا مرة أخرى، خفيفة وسعيدة. آه. هذا هو ما تفعله. تلقي عنها بكل شيء تحمله في الوحل، ثم تسير هادئة لمسافة قصيرة، تنظر حولها وكأنها ترى إن كان الناس يلاحظون ما تفعل، ثم فجأة! تنطلق نحو ويكهام بسرعة كبيرة.» ثم رمق الرجل جرانت بعينين زرقاوين صفاؤهما مذهل. وأردف: «داهية. هذا هو ما تجده منها. الدهاء!»

قال رودجرز حين تحدث معه في البداية إنه ليس من المجدي أن يجرفوا النهر فيما بعد سالكوت سانت ماري، وقد قبِل برأي الرجل المحلي من دون أن يطلب تفسيرًا. والآن ها هو ريس ميموري يقدم له التفسير.

قال ريس ميموري وهو يمسح أنفه بإيماءة تحمل شيئًا من الازدراء الخفي: «ليس في تفتيشكم نفع كبير على أي حال.»

«لماذا؟ ألا تعتقد أن الجثة موجودة هناك؟»

«أوه، آه! بل هي موجودة بالفعل. لكن ذلك الوحل، إنه لا يفرط في شيء إلا في حينه.»

«هل تعرف متى يمكن أن يحدث ذلك، في رأيك؟»

«أوه! في أيِّ وقت بين غد وألف سنة. فهذا الوحل لزج للغاية. كأنه وحل من رمال متحركة. حين كان جدي الأكبر لا يزال طفلًا صغيرًا كانت معه سمكة من نوع بارموندا وقد جرت منه على الضفة حتى الماء. وكان الماء في تلك البقعة ضحلًا إلى حدٍّ بعيد. كان يرى السمكة لكنه كان خائفًا من أن يخوض في الوحل ليأتي بها. لذا هرع عائدًا إلى الكوخ. الذي لا يبعد أكثر من بضع ياردات. وأحضر والده ليجلب له السمكة. لكن الوحل كان قد ابتلعها. الوحل يبتلع الشيء بمجرد أن تدير له ظهرك. ولم يبقَ شيء من السمكة ظاهرًا. ولا حتى حين أحضرا مجرفة وراحا يجرفان بحثًا عنها. لقد ابتلعها الوحل. إنه وحل متوحِّش كما أقول، هذا الوحل مُتوحِّش.»

«لكنك تقول إنه يلفظ ضحاياه في بعض الأحيان.»

«أوه. صحيح. يحدث هذا.»

«متى؟ في الفيضان؟»

«كلا! في الفيضان تجري المياه على مساحة أوسع. وتُصبح حاضنة فتُلقي بالمزيد والمزيد من الوحل. كلا. لكنها في بعض الأحيان تجبر على التراجع. حينها تترك الأشياء على نحو يثير الدهشة.»

«تُجبَر على التراجع؟»

«أجل. تمامًا كما حدث قبل أسبوع. حينما ضربت عاصفة أعالي الريف فوق أوتلي وأمطرت هناك بغزارة، فانهمر الماء على النهر وكأنه رجل يتخلَّص من ماء الاستحمام. فلم يكن أمام مياه النهر حينها وقت لكي تنتشِر بشكلٍ مُلائم. واندفع الماء عبر القناة وكأنه فرشاة تنظيف ترج النهر بعنف. حينها يحرر النهر شيئًا مما في الوحل.»

شعر جرانت أنها وجهة نظر غير صائبة أن ينتظر حتى قدوم العاصفة القادمة ليستخرج جثة سيرل. وقد أحبطه اقتراب الغروب؛ ففي غضون ساعتَين سيتعين عليهم أن يُوقفُوا التفتيش. علاوة على ذلك، فبحلول ذلك الوقت سيكونون قد وصلوا إلى سالكوت وإن لم يجدوا عندها شيئًا، فكم يتبقَّى من أمل؟ لطالما شعر جرانت طوال اليوم بشعور مريع بأنهم لم ينبشُوا إلا سطح ذلك «الوحل السحيق». وإن ثبَت أن عملية التفتيش الثانية هذه غير ذات جدوى، فماذا بعد؟ لن يكون هناك تحقيق. ولا قضية. لن يكون هناك شيء.

وعندما غلف الغروب، الذي تكتنفه سحب ممطرة، المشهد بضوء باهت كانوا على بعد خمسين ياردة من نهاية مسارهم. وفي تلك اللحظة عاود رودجرز الظهور وأخرج من جيب معطفه مظروفًا.

«لقد وصلك هذا حين كنت في قسم الشرطة. إنه التقرير المنتظَر من الولايات المتحدة.»

لم يكن هناك حاجة طارئة إليه الآن، إلا أن جرانت فتحه وقرأ ما فيه.

لم يكن لدى شرطة سان فرانسيسكو أي سجل إجرامي خاص بليزلي سيرل، ولم يعرفوا له سجلًّا. كان سيرل قد اعتاد القدوم إلى الساحل في أشهر الشتاء. أما عن بقية العام فكان يسافر خارج البلاد ليمارس عمله بالتصوير. كانت حياته رغدة لكنها كانت في غاية الهدوء، ولم يكن هناك أي إشارة على وجود حفلات باهظة أو سلوكيات أخرى تنمُّ عن البذخ. لم يكن لديه زوجة ولا تاريخ من ارتباطات عاطفية. ولم يكن لدى شرطة سان فرانسيسكو سجلٌّ يحوي أصوله، لكنهم تقدموا بطلب إلى قسم الدعاية في جراند كونتيننتال

وهو الاستوديو الذي التقطَ فيه سيرل الصور لكل من لوتا مارلو وداني مينسكي، وهما النجمان المهيمنان في تلك الآونة. وطبقًا لما أفاد به جراند كونتيننتال، فقد وُلِد سيرل في جوبلينج بولاية كونتيكت، وهو الابن الوحيد لكلٍّ من دورفي سيرل وكريستينا ماتسون. وقد طُلبت معلومات من الشرطة في ولاية كونتيكت عن عائلة سيرل، فقالوا إنهم غادروا البلدة منذ أكثر من عشرين عامًا وسافروا جنوبًا إلى مكان غير معلوم. أما سيرل فكان كيميائيًّا شغوفًا بالتصوير الفوتوغرافي، لكن كان هذا هو كل ما يتذكَّره الجميع عنه.

في واقع الأمر، كان التقرير روتينيًّا وغير واضح للغاية. مجموعة غير مُلهمة من الحقائق غير المُفيدة. ولم يحتوِ على إشارة إلى الشيء الذي كان جرانت يُريد معرفته بشدة؛ وهم الأشخاص المقربون للغاية من سيرل في الولايات المتحدة. ولم يسلط الضوء على سيرل نفسه. غير أن شيئًا في التقرير دق ناقوسًا في رأسه.

قرأ جرانت التقرير مرة أخرى، منتظرًا تلك النقرة التحذيرية في رأسه أن تنطلِق والتي تبدو كالصوت الذي تُصدره الساعة حين تكون على وشك أن تدق. لكن بعد قراءته هذه المرة لم يكن هناك أيُّ رد فعل.

راح جرانت يقرؤه ثالثًا في بطءٍ وتحيُّر. ما الذي أصدر الصوت التحذيري ذلك في رأسه؟ لم يجد شيئًا. كان لا يزال مُتحيرًا، فطوى الورقة ووضعها في جيبه.

قال رودجرز: «لقد انتهينا، أظن أنك تعرف ذلك؟» وأردف: «لن نجد شيئًا الآن. لم يحدث مطلقًا أن استُعيد شيء من النهر في سالكوت. في هذا الجزء من الريف هناك مثلٌ شعبي. حين يريدون أن يقولوا: تخلَّ عن شيء، أو: أخرجه من رأسك إلى الأبد، يقولون: «ألقِ به من على الجسر في سالكوت».»

فقال جرانت في انفعال شديد: «كان على القوم هنا أن يزيدوا من اتِّساع وعمق القناة بدلًا من أن يدعوا النهر يُغرقهم بالطمي. لو فعلوا ذلك لما فاض النهر على منازلهم في كل شتاء.»

تبدَّل وجه رودجرز الذي كانت تعلوه أمارات الأسى إلى البهجة واللطف. وقال: «لو شممت من قبل دلوًا من وحل راشمير، لكنت فكرت طويلًا قبل أن تتخذ التدابير لرفعه بحمولات عربات ونقله عبر الشوارع. هل أوقفهم عن العمل الآن؟»

رد جرانت في عناد شديد: «كلا. دعهم يُكملوا التفتيش طالَما بقيَ ضوء من النهار. فمَن يدري، قد نصنع التاريخ ونصبح أول من يستعيد من النهر شيئًا في سالكوت. أنا لا أُصدِّق تلك الخرافات الريفية على أي حال.»

واستمروا فعلًا في التفتيش حتى غاب ضوء النهار، لكن النهر لم يلفظ شيئًا.

الفصل السادس عشر

سأل رودجرز جرانت: «هلا قمتُ بتوصيلك إلى ويكهام؟» لكن جرانت أجاب بالرفض، فلديه سيارته الخاصة عند منزل ميل هاوس وسيذهب إلى هناك سيرًا ليحضرها.

وعند وصوله إلى ميل هاوس خرجت مارتا في الشفق العاصف لتلقاه، ثم وضعت ذراعها في ذراعه.

وقالت: «ألم تتوصَّل إلى شيء؟»

«كلا.»

«أدخل لتحصُل على شيء من الدِّفء.»

وسارت إلى جواره في صمتٍ فدخَلا المنزل وصبَّت له كوب ويسكي بحجمٍ كبير. درأت الجدران الغليظة صوت الرياح، فأصبحت الحجرة هادئة دافئة كما كانت ليلةَ أمس. ومن المطبخ أتت رائحة طفيفة لبهارات الكاري من المطبخ.

«أتشمُّ ما أطهو لأجلك؟»

«الكاري. لكن لا يُمكن أن نتوقَّع منكِ أن تُطعمي القسم.»

«الكاري هو ما أنت في حاجة إليه بعد عناء يوم طويل مع تقلُّبات ربيعنا الإنجليزي. بالطبع يمكنك أن تعود إلى فندق وايت هارت وتتناول عشاء الأحد المُعتاد من اللحم البقري المعلب البارد، وشريحتَي الطماطم ومُكعَّبات جذر الشمندر الثلاث، والخس الذابل الأوراق.»

ارتجف جرانت في غير مغالاة. كان مجرَّد التفكير في فندق وايت هارت مساء يوم أحد يمثل له الموت بعينه.

«هذا إلى جانب أنني لن أكون هنا يوم غد لأُقدِّم لك العشاء. سأعود إلى المدينة. لا يمكنني أن أطيق منزل ميل هاوس لأكثر من هذا في الوقت الراهن. وسأَمكُث هناك حتى تبدأ تدريبات الأداء على مسرحية «قلب كليل».»

فقال جرانت: «إن وجودك هنا قد أنقذ حياتي فعلًا.» ثم أخرج التقرير الأمريكي من جيبه وقال: «أرجو أن تقرئي هذا، وأخبريني إن دق ناقوس ما في ذهنك.»

فقالت بعد أن قرأت: «كلا. لم يدقَّ شيء. هل ينبغي أن يفعل؟»

«لا أدري. بدا لي حين قرأتُه للمرة الأولى أنه دق ناقوسًا في ذهني.» ثم أمعن النظر فيه ثانية متحيرًا للحظة ثم أعاده إلى جيبه.

قالت مارتا: «حين نُصبح كلانا في المدينة، أريد أن تقدمني إلى الرقيب ويليامز. ربما يمكنك أن تحضره على العشاء ذات ليلة؟»

قال جرانت مسرورًا مُتهللًا: «بالطبع. لكن لماذا هذا الشغف المفاجئ بويليامز المجهول؟»

«في الواقع، إن لديَّ سببَين مختلفَين. الأول أن أيَّ شخص يتمتَّع بالذكاء الفطري ليرى أن والتر ويتمور شخص «فاقد الجرأة» هو شخص جدير باللقاء. والسبب الثاني أن المرة الوحيدة التي رأيتُك تبدو فيها سعيدًا كانت بعد أن تحدثت إلى الرقيب ويليامز عبر الهاتف.»

فقال جرانت: «أوه، تلك المرة!» ثم أخبرها عن بيني سكول وعن الصحفي بجريدة ووتشمان وعن فضيلة العتاب والتوبيخ التي يتسم بها ويليامز. وهكذا اكتنفتْهما رُوح المرح في نهاية المطاف أثناء تناوُلِهما عشاء الأحد، وكانت مارتا في أثناء ذلك تروي قصصًا تشهيرية عن الناقد المسرحي لجريدة ووتشمان. ولم يكن إلا حين هم جرانت بالرحيل أن سألته مارتا عمَّا سيفعل تاليًا بعد أن أخفق البحث عن سيرل.

رد جرانت: «سأُسوِّي بعض الأمور هنا في سالكوت صباح يوم غد، وبعدها أعود إلى لندن لأُقدِّم تقريري إلى رئيسي.»

«وماذا يحدُث بعدها؟»

«سنعقد اجتماعًا لتحديد الإجراء الذي سيُتخذ إن كان هناك أي إجراءات.»

«فهمت. حسنًا، حين تنتهي من تسوية أمورك اتصل بي وأخبرني فضلًا. وحينها يمكننا ترتيب موعد حين يسمح وقت الرقيب ويليامز.»

فكَّر جرانت في نفسه حين انصرف وركب سيارته، كم هي مدهشة؛ كم هي مُدهِشة حقًّا. لا أسئلة، لا تلميحات، لا تحقيقات أُنثوية تافهة. كانت على نحوٍ استثنائي تتصرف كالرجال في تقبُّلها للمواقف. لربما كان افتقارها إلى التبعية هذا هو ما وجده الرجال مُفزعًا.

عاد جرانت إلى وايت هارت، واتصل بقسم الشرطة ليعرف إن كانت هناك رسائل له، وأخذ قائمة الطعام من خزانة غرفة الطعام ليتحقَّق من تكهنات مارتا حول العشاء (ينبغي أن يُخبرها أنها نسيت أمر الراوند المطهو وحَلوى الكاسترد) وللمرَّة الأخيرة ذهب لينام في الحجرة الصغيرة تحت سقف البناية. لم تكن الآية من الكتاب المقدَّس تُمثِّل تبشيرًا هذه الليلة. «تأتي ساعة هي الآن»، بالفِعل. يا للفراغ الذي كانت تتمتَّع به النساء فيما مضى. أما الآن أصبح كل شيء مُعلَّبًا ولم يعد هناك وقت فراغ على الإطلاق.

لكن لا، لم يكن الأمر على هذا النحو بالطبع. كان الأمر أنَّ النساء لم يعُدْن يقضين وقت فراغهن في صنع آيات من الكتاب المقدس بخيوط صوف مُلوَّن. بل يذهبْنَ ليُشاهدْنَ داني مينسكي ويضحكْنَ حد السأم مقابل مبلغ زهيد، وإن سألته لقال إن تلك كانت طريقة أفضل للتعافي من يوم عمل طويل من صنع أنماط حمقاء بغُرز مُتقاطعة بخيط أرجواني. راح جرانت يُحدِّق في الآية وأمالَ المصباح حتى محى الظل رؤيته لها، وأخذ مُفكِّراته معه إلى الفراش.

في الصباح دفع جرانت الفاتورة، وتظاهَر بأنه لم يرَ أمارات المفاجأة على وجه صاحب المكان. كان الجميع يعلم أن التفتيش في النهر لم يُسفِر عن شيء، وكانوا يعلمون كذلك أن قطعة ملابس استُخرجت من النهر هي ما تسبَّب بهذا التفتيش (وكانت هناك روايات مختلفة عن نوع تلك القطعة بالتحديد)؛ لذا لم يتوقع صاحب المكان أن يُغادِر المفتش في ظل هذه الظروف. إلا إن كان هناك دليل لا أحد يعلمه عنه؟

«هل ستعود، يا سيدي؟»

رد جرانت وهو يقرأ أفكاره ككتاب: «ليس عما قريب»، ولم يرُقه بصورة خاصة وصمة الفشل التي علَقت باسمه حاليًّا.

ثم توجَّه إلى تريمنجز.

حمل جو الصباح اعتذارًا رقيقًا عن جو الأمس. فقد كان صحوًا نديًّا، وقد هدأت الرياح. وتألقت أوراق الأشجار وتوهَّجت الطُّرُقات تحت ضوء الشمس. كان الربيع الإنجليزي وكأنه يقول للبشر المُبتلِّين المُرتجفين الذين وثقوا به: «كنتُ فقط أمزح، يا أعزائي».

وبينما كانت السيارة تُخرخر على المنحدَر، متجهة نحو تريمنجز، نظر جرانت إلى سالكوت سانت ماري في الوادي، وفكَّر كم هو غريب أن هذه القرية قبل ثلاثة أيام كانت مجرَّد اسم تستخدمه مارتا عرضًا في محادثاتها. والآن أصبحت القرية تشغل جزءًا من تفكيره.

وبفضل من الرب لم تكن تلك القرية لتظلَّ عالقة في ذهنه إلى الأبد!

في منزل تريمنجز استقبلته إيديث المهذَّبة، التي انزعجت بالشكل الكافي الذي سمح لها للحظة أن تبدو خائفة خوفًا بشريًّا حين رأته، وطلب منها لقاء والتر. أرشدتْه الفتاة إلى غرفة المكتبة التي لم توقد بها المدفأة؛ والتي أتى والتر وأنقذه منها.

قال والتر: «لنذهب إلى غرفة الاستقبال. نحن نستخدمُها كغرفة معيشة والمدفأة موقدة بها.» ووجد جرانت نفسه يُفكِّر إن كان والتر يضع في اعتباره راحة نفسه أم راحة ضيفِه. فقد انتبه جرانت إلى أن والتر كان يبدو وكأنه يفكر بهذه الطريقة.

قال جرانت: «سأعود إلى البلدة هذا الصباح، وهناك بضعُ نقاط بسيطة أريد أن أستوضحها قبل أن أقدم تقريري إلى رؤسائي.»

فأجاب والتر: «ما هي؟» وكان متوترًا وبدا كأنه لم ينَم.

«حين سألتُك عن رحلتك عبر نهر راشمير، قلت إنك كنت تأخذ رسائل البريد من مكاتب بريدٍ تمَّ الترتيب معها.»

«أجل.»

«لم يكن هناك شيء تأخُذُه من البريد يوم الإثنين، لكن على الأرجح أنك أخذت ما كان موجودًا يومَي الثلاثاء والأربعاء. فهل كانت هناك أي خطابات لسيرل في أي يوم من هذين اليومين، أيمكنك أن تتذكَّر؟»

«لا أجد صعوبة في التذكُّر. لم تُرسَل إلى سيرل «أبدًا» «أيُّ» رسائل بريدية، أيها المفتش.»

«أبدًا؟ أتعني أن سيرل لم تُرسَل له أيُّ رسائل على الإطلاق حين كان في تريمنجز؟»

«على حدِّ عِلمي، لا. لكن يمكن لليز أن تُخبرك. فهي تتولى أمر البريد حين يأتي.»

أخذ يتساءل في ذهنه كيف له أن يُفوِّت تلك المعلومة الصغيرة.

«ولا حتى رسائل موجهة من الفندق الذي يمكث فيه أو المصرف الخاص به؟»

«على حد علمي، لا. ربما كان يدعها تتراكم. هناك بعض الأشخاص لا يُبالون بالرسائل بطبيعتهم.»

كان هذا صحيحًا؛ وترك جرانت الأمر عند هذا الحد.

وقال: «إذن بخصوص المكالَمات اليومية. لقد اتصلتُم بالمنزل من تونستول مساء يوم الأحد، ومن كابل مساء يوم الإثنين، ومن فرايداي ستريت يوم الثلاثاء، فمن أين اتصلتم يوم الأربعاء؟»

«هناك كابينة هاتف عند بيتس هاتش. كنا قد قرَّرنا في واقع الأمر أن نُخيِّم عند بيتس هاتش، لكن الطاحونة المدمَّرة بدت مريعة بشكلٍ ما، ثم تذكرت أنا تلك البقعة المستترة، التي تقع بعد بيتس هاتش حيث ينعطف النهر جنوبًا؛ لذا أكملنا حتى هناك.»

«وهل أخبرت سكان منزل تريمنجز عن هذا المخيَّم المُقترَح.»

«أجل. لقد أخبرتُك بالفعل من قبل أننا فعلنا.»

«أعرف أنكم فعلتم. ولا أقصد بسؤالي هذا مُضايقتك. إنما أريد أن أعرف الآن من تحدَّث إلى من أثناء تلك المكالمة من بيتس هاتش؟»

فكَّر والتر لحظة. ثم قال: «تحدثت إلى الآنسة فيتش أولًا لأنها دائمًا ما تكون في انتظار المكالمة، ثم تحدث إليها سيرل. بعد ذلك أتت الخالة إم — السيدة جاروبي — وتحدثت إلى سيرل قليلًا ثم أنهيت المكالمة بعد أن تحدَّثتُ أنا إليها. ولم تكن ليز قد عادت من مهمة كانت تؤديها في القرية؛ لذا لم يتحدَّث إليها أيٌّ منا يوم الأربعاء.»

فقال جرانت: «حسنًا، شكرًا لك.» ثم انتظر قليلًا وعاود يقول: «أظن أنك لا تشعر بعد بأنك قادر على أن تُخبِرَني بموضوع ... الخلاف الذي دار بينكما يوم الأربعاء؟» وحين تردَّد والتر بعض الشيء أكمل جرانت يقول: «أيعود سبب تردُّدك إلى أنه بخصوص الآنسة جاروبي؟»

فأجاب والتر: «لا أريد لها أن تنجرَّ إلى هذا الأمر» ولم يسع جرانت سوى أن يشعر أن هذه الإجابة النمطية ليست نتيجة لعاطفته تجاهها وإنما مُحصِّلة لقناعة لدى والتر بأن هذه هي الطريقة التي ينبغي أن يتصرَّف بها رجل إنجليزي في مثل هذا الموقف.

«إنما أسألك كما قلت من قبل كوسيلة للحصول على حقائق بشأن ليزلي سيرل أكثر منها وسيلة لأجعلك تقرُّ بأيِّ شيء. بعيدًا عن دخول الآنسة جاروبي إلى هذه المحادثة، هل كان هناك شيء بها تُفضل لو أنني لا أعرفه؟»

«كلا، بالطبع لا. كان الأمر فقط له صلة بليز ... بالآنسة جاروبي. كانت محادثة غاية في السخف.»

ابتسم جرانت بطريقة فجة. وقال: «سيد ويتمور، إن رجل الشرطة يتعرَّض إلى أقصى مراحل السخافة قبل أن يكون قد أنهى سنتَه الثالثة وهو على قوة الشرطة. وإن كنت مترددًا فقط بشأن الحديث عما يحمله هذا الأمر من سخافة فتشجع. سيُمثِّل هذا الأمر لي على الأرجح شيئًا يكاد يقارب الحصافة.»

«لم يكن هناك أي حصافة حيال تلك المحادثة. لقد كان سيرل في حالة مزاجية غاية في الغرابة طوال تلك الأمسية.»

«حالة مزاجية غريبة؟ أكان مُكتئبًا؟» من المؤكد أن جرانت فكر في أننا لن نضطر إلى أخذ مسألة محاولة الانتحار في الاعتبار في مثل هذه المرحلة المتأخِّرة من القضية.

«كلا. بل بدا وكأن حالة غير مُعتادة من الطيش تعتريه. وفي طريق مُغادرتنا من عند النهر بدأ يغيظني ويسخر مني بشأن … بشأن أنني لست مناسبًا بما يكفي بالنسبة إلى ليز. بالنسبة إلى خطيبتي. حاولت أن أصرف المحادثة إلى أمر آخر، لكنه ظلَّ على نهجه. حتى ازداد انزعاجي. فبدأ يعدُّ لي كل الأشياء التي عرفها عنها ولم أكن أعرفها أنا. كان يستعرض شيئًا ويقول: «أراهن أنك لم تكن تعرف هذا عنها».»

«أكانت أشياء لطيفة؟»

رد والتر في الحال: «أوه، أجل. بالطبع. أشياء جذابة. لكن الأمر برمته كان غير ضروريٍّ بالمرة ومُثيرًا جدًّا للاستفزاز.»

«هل أشار إلى أنه كان سيغدُو أكثر امتنانًا لو كان في مكانك؟»

«بل ذهب إلى أبعد من ذلك. لقد قال بكل صراحة أن بإمكانه لو أراد أن يُقصيني. قال إن بإمكانه أن يقصيني عن طريقها في غضون أسبوعين.»

هنا لم يسَع جرانت سوى أن يسأله: «هل اقترح أن تتراهنا على ذلك؟»

فأجاب والتر وقد بدا مُندهِشًا قليلًا: «كلا.»

فكَّر جرانت أن عليه أن يُخبر مارتا يومًا ما أنها أخطأت بشأن هذه التفصيلة.

أكمل والتر: «حين قال ذلك، بشأن إقصائي، شعرت أنني لم أعدْ أُطيقه تلك الليلة. لم تُزعجني الإشارة إلى أنني لستُ ندًّا له، آمُل أن تعيَ هذا، أيها المفتش؛ بل ما أزعجني هو ما يتضمَّنه ذلك من تشويه لسُمعة ليز على نحو غير مباشر. بشأن الآنسة جاروبي. التلميح الخفي إلى أنها سترضخ وتنقاد لأي أحد يغريها بجاذبيته وسحره.»

فقال جرانت بنبرة جادة: «أعي ذلك. شكرًا جزيلًا لك على إخباري بهذا. أتعتقد إذن أن سيرل كان يعمد إلى افتعال شجار؟»

«لم أفكِّر في ذلك. رأيت حينها فقط أنه كان في حالة مزاجية تحث على الاستفزاز. وأنه كان مغرورًا بعض الشيء.»

«أجل. شكرًا لك. هل بإمكاني التحدث إلى الآنسة فيتش لبضع لحظات. لن أعطلها كثيرًا.»

أخذه والتر إلى غرفة الجلوس حيث كانت الآنسة فيتش تطوف جيئة وذهابًا بها وكأنها قطة غاضبة، وكان في شعرها ذي اللون الرملي والمصفَّف على شكل عش الطائر قلم

رصاص باللونين الأصفر والأحمر، وقلم آخر في فمها. وقد بدا عليها الاسترخاء حين رأت جرانت، وبدا عليها الإرهاق والحزن الطفيف.

سألتْه قائلة: «هل أتيت تحمل أنباءً، أيها المفتش؟» وحين تخطاها جرانت بعينه إلى ما خلفها رأى الخوف في عيني ليز.

«كلا. بل أتيت أطرح عليكِ سؤالًا، يا آنسة فيتش، ثم لن أزعجك مرة أخرى. وأعتذر عن إزعاجي لكِ الآن. مساء يوم الأربعاء كنتِ تنتظرين المكالَمة المسائية من ابن شقيقتِك ليقصَّ عليكِ ما يحرزانه من تقدم.»

«أجل.»

«لذا تحدثتِ إليه أولًا. أقصد كنتِ أنتِ أول من تحدث من بين أهل هذا المنزل. فهلا أكملتِ على مسامعي بقية ما حدث؟»

«أتُريد أن أخبرك بما تحدثنا بشأنه؟»

«كلا؛ بل من تحدَّث إلى من.»

«حسنًا، كانا عند بيتس هاتش — أظن أنك تعرف هذا — وتحدَّثت أنا إلى والتر ثم إلى ليزلي. وكانا كلاهما سعيدَين.»

ثم اضطربت نبرتها. وأردفت: «ثم ناديتُ على إيما — أختي — وتحدثت هي إليهما.»

«هل انتظرتِ أثناء حديثها معهما؟»

«كلا، بل صعدت إلى غرفتي لأستمع إلى برنامج سوزي سكلاندرز. إنها تقدم عشر دقائق كل شهر يوم الأربعاء، وهي رائعة، وبالطبع لم أتمكن من الاستماع إليها جيدًا فيما كانت إيما تتحدث.»

«فهمت. والآنسة جاروبي؟»

«عادت ليز من القرية في وقتٍ متأخِّر فلم تتمكَّن من التحدث معهما.»

«أتتذكرين متى كان توقيت ذلك؟»

«لا أتذكر الوقت تحديدًا، لكن لا بدَّ أن ذلك كان قبل تناول العشاء بعشرين دقيقة. فقد تناولنا العشاء باكرًا تلك الليلة لأن أختي كانت ستذهب إلى اجتماع جمعية مناهضي الحروب. إن موعد العشاء في منزل تريمنجز دائمًا ما يقدم أو يؤخر لأنَّ أحدًا إما أنه ذاهب إلى مكان أو في طريق عودته من مكان ما.»

«شكرًا جزيلًا لك، يا آنسة فيتش. والآن آمل لو كان بإمكاني أن أتفقَّد غرفة سيرل مرة أخيرة ولن أزعجكم بعدها ثانية.»

«أجل، بالطبع.»

هنا قالت ليز: «سأصحَب المفتش إلى الطابق العلوي» مُتجاهلة حقيقة أن والتر — الذي لا يزال على مقرُبة — هو من ينبغي أن يرافقه بطبيعة الحال.

ثم نهضت من أمام الآلة الكاتبة قبل أن تتمكَّن الآنسة فيتش من التدخل بأي اقتراح بديل، وتقدمت المفتِّش إلى خارج الغرفة.

قالت ليز وهما يصعدان السلم: «هل ستُغادر لأنك توصَّلت إلى خاتمة لهذه القضية، أيها المفتش، أم لأنك لم تتوصَّل إلى خاتمة؛ أم لا ينبغي أن أسألك عن هذا؟»

«بل سأغادر كأمر روتيني. كي أفعل ما يُتوقَّع من كل موظف أن يفعل؛ أن أُقدِّم تقريرًا لرؤسائي وأتركهم يُقرِّرون ما أوصلت إليه الوقائع.»

«لكنك تُضيف شيئًا أولًا، بالتأكيد.»

فقال جرانت بنبرة ساخرة: «وأقتطع الكثير، أيضًا.»

ولم تغبْ عن ليز تلك السخرية. فقالت مُقرَّة: «ليس هناك أي شيء منطقي في هذه القضية، حسبما أرى. يقول والتر إنه من غير المُمكن أن يكون سيرل قد وقع في النهر بالخطأ. إلا أنه قد وقع بالفعل. بطريقة ما.»

ثم توقفت ليز عند العتبة خارج حجرة البرج. في تلك البقعة كان هناك ضوء مصدره السقف فبدا وجهها واضحًا بكل تفاصيله حين التفتت إلى جرانت وقالت: «إن الشيء الأكيد الوحيد في هذه الفوضى هو أن والتر ليس له أي صلة بوفاة ليزلي. صدِّقني أرجوك، أيها المفتش. أنا لا أدافع عن والتر لأنه والتر ولأنني سأتزوَّج به. إنني أعرفه طوال حياتي وأعرف ما يُمكن له أن يقدِم على فعله وما لا يُمكن له أن يفعله. وليس بإمكانه أن يستخدم العنف الجسدي تجاه أي أحد. من فضلك صدقني. إنه ... إنه لا يملك «الجرأة» وحسب.»

لاحظ جرانت أنه حتى زوجته المستقبلية تعرف أنه فاقد الجرأة.

«ولا يخدعنَّك أمر ذلك القفاز، أيضًا. أيها المفتش. أرجوك أن تصدق أن أكثر التفسيرات ترجيحًا أن ليزلي التقطَه من على الأرض ووضعه في جيبه بُغية أن يعيده إليَّ. لقد بحثت عن الفردة الأخرى من القفاز في جيب باب السيارة ولم أجده؛ لذا فإنَّ أكثر التفسيرات ترجيحًا أنهما سقطا من السيارة، ووجد ليزلي أحدهما فأخذه.»

«لماذا لم يعده إلى جيب باب السيارة؟»

«لا أعرف. لماذا يقوم المرء بأي شيء؟ أن يضع المرء شيئًا في جيبه هو فعل يكاد يكون لا إراديًّا. الفكرة أنه لم يكن ليحتفظ به من أجل الاحتفاظ به. لم يكن شعور ليزلي تجاهي بهذا الشكل على الإطلاق.»

فكَّر جرانت أن الفكرة لم تكن تتمحور حول ما إن كان ليزلي واقعًا في حب ليز، بل ما إن كان والتر يعتقد أن ليز واقعة في حب ليزلي.

كان جرانت يتوق لأن يسأل ليز عمَّا يحدث للفتاة حين تكون مخطوبة إلى شخص فاقد الجرأة ويأتي بعدها منبوذ جنة عدن، هارب من أتلانتيس، شيطان بملابس بشرية. لكن من المؤكد أن طرح هذا السؤال لن يصبح مثمرًا، على الرغم من إنه سديدٌ ووثيق الصلة بالموضوع. وبدلًا من ذلك، سألها جرانت إن كان سيرل قد استقبل أي خطابات أثناء مكوثه في تريمنجز وقالت إنه لم يفعل بقدر ما تناهى إلى علمها. ثم عادت ليز إلى الطابق السفلي، ودلف هو إلى غرفة البرج. تلك الغرفة الضخمة الأنيقة التي ترك فيها سيرل كل شيء عدا شخصيته.

لم يكن جرانت قد رآها في ضوء النهار من قبل، فأمضى بضع لحظات ينظر إلى الحديقة والوادي من النوافذ الثلاث الضخمة. كانت ثمة ميزة واحدة يتحصَّل عليها المرء حين لا يعبأ بما سيبدو عليه منزله حين يجري الانتهاء منه؛ وهي أن يجد النوافذ في المكان الذي يحقق أقصى استفادة منها. وبعد ذلك عاد جرانت مرة أخرى إلى مهمة تفقُّد متعلقات سيرل. فأخذ يتفقَّدُها بتأنٍّ، قطعة بقطعة وشيئًا بشيء، آملًا عبثًا أن يتكشَّف له شيء ما. ثم جلس على كرسي منخفض وعلى الأرض أمامه صندوق التصوير الفوتوغرافي مفتوحًا عند قدميه، وراح يُفكِّر في كل شيء يمكن لمصور فوتوغرافي أن يستخدمه. ولم يهتدِ إلى شيء — سواء أكان مادة كيميائية أو أداة — مفقود من المجموعة التي بالصندوق. ولم يكن الصندوق قد حُرِّك منذ آخر مرة تفقَّدَه، فكانت المساحة الخاوية لا تزال تُبرز محيط ما أخذ من الصندوق.

لم تكن المساحة الخاوية تدع إلى الريبة. فهو أمر معتاد أن تجري إزالة الأشياء من الصناديق المعبأة، وتترك تلك الأشياء محيط وجودها. لم يكن هناك أدنى سبب يدعو إلى افتراض أن الشيء الذي أُخِذ يحمل أي أهمية. لكن لماذا، بحق السماء، لم يستطع أحد أن يقترح ما كان ذلك الشيء؟

مرةً أخرى أخذ جرانت يُحاول وضع الكاميرات الصغيرة في المساحة الخاوية، وهو يعرف تمامًا أنها لن تسعها. حتى إنه ألصق زوجًا من أحذية سيرل معًا وحاول أن يدخلها في تلك المساحة. فكان الحذاء أطول من المساحة بنصف بوصة وبرز النَّعلان فوق المستوى العام فلم يتثبَّت الغطاء فوقهما ولم ينغلق غطاء الصندوق. وعلى أي حال، لماذا قد يحمل المرء الملابس في صندوق تصوير فوتوغرافي في حين أن لديه مساحة كافية في الحقائب

المخصَّصة لذلك؟ إن أيًّا ما كان في تلك المساحة لم يكن قد وُضِع فيها عشوائيًّا أو على عجل. بل كانت طريقة وضعه تنمُّ عن تناسُق وترتيب له هدف ما.

الأمر الذي يُشير إلى أن هذا الشيء قد وُضِع في تلك المساحة لأن سيرل نفسه هو من سيُخرجه منها.

في واقع الأمر، كان جرانت عند هذه المرحلة قد نال كفايته، وهذه عبارة منمَّقة.

أعاد جرانت كل شيء بعناية إلى مكانه كما وجده؛ وألقى نظرةً أخرى على وادي راشمير، وقرَّر أنه قد اكتفى من الأمر برمَّته؛ ثم أغلق الباب على الحجرة التي ترك فيها ليزلي سيرل كل شيء عدا شخصيته.

الفصل السابع عشر

تلبَّدت سماء المدينة بالغيوم، لكنها لم تكن غيومًا تُوحي بهطول أمطار غزيرة مثل تلك التي هطلت على راشمير. وكانت الأشجار اليافعة الخضراء في ويستمنستر زاهية ومُشرِقة كاللهَب في مُقابل الخلفية القاتمة. شيء لطيف أن يكون المرء وسط من يتشابهون معه في الصفات الشخصية؛ أن يصِل إلى حالة التجرُّد الذِّهني التي يستخدمها بين زملائه؛ وأن يتحدَّث بالكلام التلميحي غير المفسر الذي يشكل «أسلوب التعامل» في مقرِّ الإدارة.

لكن لم يكن من المُستحَب كثيرًا له أن يفكر في أمر اللقاء المُقبِل مع برايس. هل سيُصبح اليوم هو أحد أيام برايس الرائعة أم أحد أيامه «السيئة»؟ كانت نسبة هذا إلى ذاك بالنِّسبة إلى مدير الإدارة هو يوم واحد سيئ مُقابل ثلاثة أيام رائعة، وهكذا كانت الاحتمالات في صالحه. على الجانب الآخر، كان الجو رطبًا ودائمًا ما تكون حالة مرض الروماتيزم لدى المدير هي الأسوأ في الأجواء الرطبة.

كان برايس يُدخِّن الغليون. لذا كان اليوم هو أحد الأيام الرائعة. (ففي الأيام السيئة كان يشعل سيجارة ويُطفئها في منفضة السجائر بعد خمس ثوانٍ من إطفائه عود الثقاب.)

فكر جرانت كيف يبدأ حديثه. لم يكن بمَقدورِه بكل بساطةٍ أن يقول: قبل أربعة أيام سلمتني قضية، وإلى الآن لم يحدث أي تقدم لكشف غموضها، بل ظلَّت كما هي كما كانت قبل أربعة أيام، من حيث جميع عناصرها الأساسية وذلك من وجهة نظري. لكن ذلك، رغم أنه أمر صادم، هو حال القضية.

كان برايس هو من وفَّر عليه مشقة ذلك. فقد أخذ يتمحصه بعينيه الصغيرتين الفطنتين، ثم قال: «إذا ما رأيتُ من قبل عبارة «أرجوك، يا سيدي، لم يكن الخطأ خطئي» مكتوبة على جبين أحدهم، فهي مكتوبة على جبينك الآن.» فضحك جرانت.

«أجل، يا سيدي. إن الأمر فوضويٌّ.» ثم وضع جرانت دفاتر ملاحظاته على المكتب وجلس على الكرسي عند الجهة الأخرى منه والذي كان معروفًا في الإدارة بأنه كرسي المشتبه بهم.

«إذن في رأيك، لم يكن ذلك المغفَّل المدعو والتر هو من فعلها، أليس كذلك؟»

«كلا، يا سيدي. أظنُّ أن ذلك غير مرجَّح إلى حدٍّ أنه من العبث التفكير فيه.»

«هل كان الأمر مجرد حادث عارض؟»

فقال جرانت مبتسمًا: «لا يظنُّ المغفل ذلك.»

«لا يظن ذلك، حقًّا. ألا يتمتَّع بما يكفي من العقل حتى لكي يبتعد عن الشبهات؟»

«إنه مخلوق بسيط، من وجهة نظري. لا يصدق وحسب أن الأمر وقع كحادث، ويصرح بذلك. وحقيقة أن إثبات وقوع الأمر كحادث هو شيء يصبُّ في مصلحته هي حقيقة غير ذات صلة من وجهة نظره، على ما يبدو. إنه مُتحيِّر ومُضطرِب كثيرًا بشأن اختفاء سيرل. وأنا واثق تمامًا من أنه ليس له بالأمر صلة.»

«هل من اقتراح بديل؟»

«في الواقع، هناك شخص سنحت له الفرصة، ولديه الدافع والوسيلة.»

فقال برايس، بغلظة: «ماذا ننتظر إذن؟»

«العنصر الرابع مفقود مع الأسف.»

«ليس هناك دليل.»

«ولا قرينة بسيطة حتى.»

«من هو ذاك الشخص؟»

«أم خطيبة والتر ويتمور. أو زوجة أبيها في الواقع. لقد تولت تربية ليز جاروبي منذ طفولتها وتأخذها عاطفة الأمومة تجاهها أخذًا شديدًا. لا أقصد بذلك أنها مُتملِّكة، لكن ...»

«ترغَب بالأفضل في كل شيء لليز.»

«أجل. كانت في غاية السرور حيال زواج ابنة زوجها من ابن اختها، والاحتفاظ بالثروة في نطاق الأسرة، وأعتقد أن سيرل بدا وكأنه يُفسد الترتيبات. هذا دافع مُحتمَل. وليس لديها حُجَّة غياب أثناء الليلة المعنية، وكان بإمكانها الوصول إلى المكان الذي يُخيِّمان فيه بسهولة. فقد كانت تعرف موقعه لأن الرجلين كانا يتَّصلان بمنزل تريمنجز — وهو المكان الذي يقطنه آل فيتش — كل مساء ليسردا ما أحرزاه من تقدم، ومساء الأربعاء وصفا المكان الذي سينصِبان فيه مخيمهما.»

«لكن لم يكن بمقدورها أن تعلم بحدوث خلاف بين الرجلين وأنهما سيعودان إلى النهر منفصلين. كيف كانت سترتب الأمر؟»

«في واقع الأمر، ثمة شيء غريب بشأن ذلك الخلاف. بحسب كل أقوال الشهود كان سيرل شخصًا سويًّا رصينًا، لكن كان هو من افتعل ذلك الخلاف. أو على الأقل هذا ما يقوله ويتمور، وليس لديَّ أسباب تدفعني إلى التشكيك به. لقد ضايق ويتمور وأزعجه بشأن أنه ليس أهلًا بما يكفي لليز جاروبي وتباهى بأن بمقدوره أن يسلبها منه في غضون أسبوع. وقد كان سيرل واعيًا وليس تحت تأثير الشراب؛ لذا فإن أيَّ تصرف مغاير لشخصيته لا بدَّ أنه كان بفعل دافع خفي.»

«أتظنُّ أنه اصطنع فُرقة بينه وبين سيرل ذلك المساء؟ لكن لماذا؟»

«ربما لأنه كان يأمُل أن يلتقيَ بليز جاروبي في مكان ما. فلم تكن الآنسة جاروبي في المنزل في ذلك المساء حين اتصل الرجلان بالمنزل؛ ومن ثمَّ يُمكن للسيدة جاروبي أن تدَّعي بأن ليز وكَّلتها لإبلاغ سيرل بأنها ستُقابله هذه الليلة. وأقترح أيضًا أنها ربما تمادت في الوكالة بطريقة أكثر خطورة.»

««ستلتقيك ليز عند شجرة البلوط الثالثة بعد الطاحونة القديمة».»

«شيء من هذا القبيل.»

«ثم تنتظره الأم الغاضبة بأداة حادَّة وبعدها تُلقي بالجثة في النهر. لكَم أتمنى لو أنك قد استطعت أن تستخرج تلك الجثة.»

«لكم تمنَّيت هذا أكثر، يا سيدي. فمن دون الجثة، إلام سنتوصل؟»

«ليس لدينا قضية حتى في وجود الجثة.»

«أجل. لكن معرفة حالة الجمجمة سيُصبح أمرًا باعثًا على الطمأنينة، فضلًا عن أنه سيكشف النقاب عن العديد من الأمور.»

«هل من دليل على أن سيرل كان يُبدي اهتمامًا بالفتاة؟»

«كان لديه فردة أحد قفازاتها في درج قمصانه.»

أطلق برايس صوتًا من أنفه. ثم قال: «كنتُ أظنُّ أن هذه التصرفات لم تعدْ تحدُث بين المحبين» معيدًا صياغة ما قاله الرقيب ويليامز من دون أن يدري.

«لقد أريتها القفاز وتقبَّلت الأمر بشكل حسن. قالت إنه التقطَه من على الأرض على الأرجح وكان ينوي أن يُعيده إليها.»

قال رئيس الشرطة: «مثلما يحدث في الأفلام.»

فقال جرانت في دماثة: «إنها فتاة لطيفة.»

«وكذلك كانت مادلين سميث. هل هناك آخرون في قائمة المشتبه بهم؟»

«كلا. فقط من كان لهم به احتكاكٌ مباشر. من لم يكن لديهم سبب يدفعهم للإعجاب بسيرل، وقد سنحت لهم الفرصة ولم يكن لديهم حُجَج غياب مقنعة.»

فتساءل برايس مُندهِشًا من صيغة الجمع: «هل هم كثر؟»

«هناك توبي توليس، الذي لا يزال منزعجًا من ازدراء سيرل له. يعيش توليس على ضفة النهر ويملك قاربًا. وتعتمد حجة غيابه على كلمة تابع مخبول له. وهناك سيرج راتوف الراقص، الذي كان يبغض سيرل بسبب ما أولاه توبي له من اهتمام. وطبقًا لما قال سيرج، فإنه كان يرقُص على العشب بالقرب من حافة النهر مساء يوم الأربعاء. وهناك سيلاس ويكلي، الروائي الإنجليزي البارز، والذي يعيش في الزقاق الذي شاهد بعض الناس سيرل يسلكُه في مساء الأربعاء قبل أن يختفي. سيلاس يكنُّ نوعًا من الكراهية تجاه الجمال؛ دائمًا ما تكون لديه رغبة دءوبة في تدميره. كان سيلاس يعمل في كشك يقع عند طرف حديقة منزله في تلك الليلة، أو هكذا يقول.»

«أكنت ستُراهن على أحدٍ من أولئك؟»

«كلا. لا أظن ذلك. إلا عن ويكلي ربما. فهو من النوع الذي قد يتجاوز الحدود في يوم ما، ثم يمضي بقية حياته سعيدًا يكتب على الآلة الكاتبة في برودمور. ما كان تُوليس ليخاطر بكل ما أحرز وحقق بجريمة عبثية كهذه. إنه أكثر فطنة من ذلك بكثير. أما عن راتوف، فأتخيَّله مُنطلقًا لارتكاب جريمة ثم تُواتيه فكرة أفضل قبل أن يقطع نصف الطريق حتى فينسى ما انطلق في الأساس ليقوم به.»

«هل كلُّ قاطني تلك القرية من غريبي الأطوار؟»

«هذا ما «وجدت» مع الأسف. لكن السكان الأصليِّين للقرية عُقَلاء بما يكفي.»

«حسنًا، أعتقد أننا لن نستطيع فعل شيء حتى تظهر الجثة.»

«هذا «إن» ظهرت.»

«عادة ما تظهر الجثث، بعد مرور بعض الوقت.»

«طبقًا لما ذكرت الشرطة المحلية، غرق خمسة أشخاص في نهر راشمير في غضون الأعوام الأربعين المنصرمة. هذا باستبعاد ميناء مير والجزء الخاص بالشحن البحري من المنطقة. غرق اثنان من الخمسة في مناطق من النهر أعلى من سالكوت والثلاثة الآخرون في مناطق أدنى منها. ظهرت جُثَث هؤلاء الثلاثة جميعهم في غضون يوم أو اثنين من غرقهم. أما الاثنان اللذان غرقا في مناطق أعلى من القرية فلم تظهر جثثهم أبدًا.»

علَّق برايس قائلًا: «يا لها من إشارة تنبيه رائعة لوالتر.»

فقال جرانت بعد أن فكر: «أجل. فلم يكُونوا شفوقِين عليه كثيرًا هذا الصباح.»

«الصحف؟ كلا. لقد كانوا مُهذَّبين ومُتحفِّظين لكن ما كتبوه ما كان ليمثل متعة لذلك المغفل. يا له من موضع سيئ يمكن لامرئ أن يصبح فيه. ليس هناك اتهام؛ لذا لن يُصبح هناك دفاع مُحتمَل.» ثم أضاف: «لا أعني أنه لا يملك أي دفاع مطلقًا.»

ثم صمت برايس برهة، وكان في أثناء ذلك يطرق بغليونه على أسنانه كعادته حين يُمعن التفكير.

«أظن أننا ليس في مقدورنا أن نفعل شيئًا في الوقت الراهن. فلتعدَّ تقريرًا مُنظَّمًا ومتقنًا وسنرى ما سيوجه به المفوض. لكنني لا أرى أن باستطاعتنا فعل المزيد. الموت غرقًا، وليس هناك أي أدلة حتى الآن تشير إلى ما إن كان ذلك حادثًا أم غير ذلك. هذا هو استنتاجك، أليس كذلك؟»

ولما لم يُجب جرانت من فوره، رفع عينه وقال بنَبرة حادة: «أليس كذلك؟»

الآن ترى الشيء، وفي اللحظة نفسها يختفي.

هناك شيء خاطئ في صياغة القضية.

لا تكُن مطيَّة موهبتِكَ، يا جرانت.

ثمة شيء زائف في زاوية ما من زوايا هذا الأمر.

الآن ترى الشيء، وفي اللحظة نفسها يختفي.

حيلة ساحر.

حيلة تشتيت الانتباه.

يُمكِن للمرء أن يُفلتَ بأي شيء إذا ما شتت انتباه الآخرين.

هناك شيء زائف في زاوية ما …

«جرانت!»

أفاق جرانت على دهشة رئيسه. ماذا سيقول؟ أيُذعِن وينسى الأمر؟ أيلتزم بالوقائع والأدلة، ويلزم الجانب الآمن؟

سمع جرانت نفسه يقول في شعور مُنفصِل بالندم: «سيدي، أرأيت من قبل امرأة تُشق إلى نصفين؟»

فقال برايس ناظرًا إليه نظرةَ استهجان متحفظة: «أجل.»

قال جرانت: «يبدو لي أن هناك رائحة قوية لخدعة امرأة تُشق إلى نصفَين في هذه القضية.» ثم تذكر أن تلك هي الاستعارة التي استخدمها في حديثه مع الرقيب ويليامز.

لكن رد فعل برايس كان مختلفًا تمامًا عن ردِّ فعل الرقيب.

همهم برايس قائلًا: «يا إلهي! لن تُعيد كرة لامونت علينا مرةً أخرى، أليس كذلك، يا جرانت؟»

قبل سنوات طويلة كان جرانت قد ذهب إلى أقاصي هايلاند في إثر رجل وعاد به؛ عاد به بعد أن أُلقيَ القبض عليه في قضية ليس بها أي خطأ أو خلل لا ينقصها سوى العرض على القاضي لينطق بالحكم؛ وقد سلم جرانت الرجل وأبدى رأيًا بأنهم في مجمل الأمر قد ألقوا القبض على رجل بريء. (وكان ذلك صحيحًا.) لم تنسَ إدارة سكوتلانديارد تلك القضية أبدًا، فكان يُشار إلى أي رأي جامح يخالف الأدلة بجملة «إعادة كرة لامونت».

اشتد عزم جرانت لدى الإتيان المفاجئ على ذكر قضية جيري لامونت. فقد كان الشعور ببراءة جيري لامونت في قضية مُكتمِلة الأركان أكثر عبثية من الشعور بوجود خدعة في قضية بسيطة كتعرض أحدهم للغرق.

«جرانت!»

قال جرانت في عناد: «ثمة أمر غريب للغاية في صياغة هذه القضية.»

«ما الغريب؟»

«لو كنت أعرفه لتضمَّنه تقريري. إنه ليس بشيء واحد. إنما هي: الصياغة برمتها. الجو العام. الرائحة التي تفوح من المسألة. لا تفوح منها رائحة صائبة.»

«ألا يمكنك أن تشرح لضابط شرطة عادي مُجتهِد ما الرائحة المشبوهة في هذه القضية؟»

تجاهل جرانت قسوة رئيس الشرطة. وقال:

«ألا ترى، إن الأمر برمته من البداية به خطأ. مجيء سيرل من العدم، إلى الحفل. أجل، أعرف أننا نعرف هويته. وأنه من يقول إنه هو، وما إلى ذلك. بل إننا نعرف حتى إنه أتى إلى إنجلترا تمامًا مثلما يقول إنه أتى. عبر باريس. وحجز مقعده عن طريق مكتب أميريكان إكسبريس في مادلين. لكن هذا لا يُغير من حقيقة أن الحدث برمَّته ينمُّ عن شيء غير مألوف. أكان من المرجَّح إلى هذا الحد أن يكون سيرل حريصًا على لقاء والتر فقط لأنهما صديقان مُشتركان لكوني ويجن؟»

«لا تسلني! أصحيح ذلك؟»

«لمَ تلك الحاجة إلى لقاء والتر؟»

«لربما رآه يقدم برنامجه ولم يستطع الانتظار وحسب.»

«ولم يكن يتلقَّى أي رسائل بريدية.»

«من ذاك؟»

«سيرل. لم يتلقَّ أي رسائل طوال الوقت الذي قضاه في سالكوت.»

«ربما كان يُعاني من حساسية تجاه الصمغ على المظاريف. أو، سمعت أن الناس يتركُون خطاباتهم تتكدَّس في البنوك حتى يتم استدعاؤهم.»

«هذا أمر آخر. لا يُوجد من البنوك أو الوكالات الأمريكية المعتادة والمألوفة من سمع به. وهناك شيء آخر بالغ الدقة يبدو لي غريبًا بصرف النظر عن القيمة الفِعلية له. أقصد القيمة الفعلية له في هذه القضية. كان لديه صندوق صفيحي، يبدو أشبه بعلبة ألوان كبيرة، كان يستخدمه في الاحتفاظ بكل أدواته الخاصة بالتصوير. ومن ذلك الصندوق اختفى شيء. أبعاده تقريبًا تسع بوصات في ثلاث بوصات ونصف في أربعة، وكان ذلك الشيء موضوعًا في الصندوق في الجزء السفلي منه (إذ كان للصندوق صينية تبدو كغطاء علبة الألوان تحتها مساحة عميقة). ولا شيء من بين مُتعلِّقاته الآن يتناسب مع تلك المساحة الخاوية، ولم يتمكَّن أحد من اقتراح ما قد يكونه ذلك الشيء.»

«وما الغريب بهذا الأمر؟ لا بدَّ أن هناك مائة شيء وشيء يُمكن أن تسعه تلك المساحة.»

«مثل ماذا، على سبيل المثال، يا سيدي؟»

بعد تفكير قال برايس: «في الواقع، لا يُمكن أن أرتجل شيئًا الآن، لكن لا بدَّ أن هناك عشرات الأشياء.»

«هناك مساحة وافرة في حقائبه الأخرى لأي شيء يُريد أن يضعه ضمن أمتعته. لذا لن يكون هذا الشيء من الملابس، أو المُقتنيات العادية. وأيًّا ما كان في الصندوق، فقد كان شيئًا يحتفظ به بحيث يكون هو وحده من يتعامل معه.»

هنا ازداد انتباه برايس.

«والآن هذا الشيء مفقود. وهو غير ذي أهمية واضحة لهذه القضية. ربما كان غير ذي أهمية على الإطلاق. إنه فقط أمر غريب وملازم لتفكيري.»

فسأله برايس بشيء من الاهتمام أخيرًا: «في رأيك لماذا أتى إلى تريمنجز؟ بدافع الابتزاز؟»

«لا أدري. لم أُفكِّر في دافع الابتزاز.»

«ما الشيء الذي كان في الصندوق وكان بإمكان سيرل أن يُحوِّله إلى أموال؟ لم تكن رسائل بريدية، فهي لا تتَّخذ هذا الشكل. ربما تكون وثائق؟ لفافة من وثائق؟»

«لا أدري. أجل. ربما. الفِكرة التي تناقض دافع الابتزاز أنه بدا وكأنه يتمتَّع بوافر من المال.»

«عادة ما يكون المبتزِّون على هذا النحو.»

«أجل. لكن لدى سيرل مِهنة تدر عليه مالًا وفيرًا. الطماعون فقط هم من قد يرغبون بالمزيد. وبطريقة ما لم يبدُ لي سيرل طماعًا.»

«توقَّف عن التصرُّف كالأطفال يا جرانت. اجلس هادئًا لبرهة وفكِّر في المُبتزِّين الذين عرفتهم من قبل.» ثم جلَس برايس يرقُبُه بينما تستقر هذه الجملة في ذهنه، وبعدها قال بنبرة ساخرة: «بالضبط!». ثم أردف: «في رأيك من كان الشخص المقصود بالابتزاز في منزل تريمنجز؟ أتظنُّ أن السيدة جاروبي لديها ماضٍ؟»

فأجاب جرانت وهو يُفكِّر في إيما جاروبي من منظور جديد: «مُحتمَل. أجل، أظنُّ أن هذا مُمكن إلى حد بعيد.»

«نطاق الاختيار هنا ليس بواسع. فلا أعتقد أن لافينيا فيتش كانت سيئة السلوك يومًا ما، أليس كذلك؟»

فكَّر جرانت في الآنسة لافينيا فيتش العطوفة القلوقة بأقلامها الرصاص وهي مُنتصبة في شعرها الذي يشبه عش الطائر، ثم ابتسم.

«نطاق الاختيار ليس كبيرًا كما ترى. أعتقد أن الأمر لو كان ابتزازًا في الأساس فلا بدَّ أن المقصود به هي السيدة جاروبي. لذا فإنَّ نظريتك تقول إن سيرل قُتِل لسبب لا يمتُّ لليز جاروبي بصلة.» ولما لم يُجب جرانت من فوره على ذلك، قال برايس: «أنت تعتقد أنها جريمة قتل، أليس كذلك.»

«كلا.»

«كلا!»

«لا أعتقد أنه قد مات.»

ساد الصمت لحظة. ثم مال برايس إلى الأمام على الطاولة وقال في شيء هائل من ضبطٍ النفس: «اسمع يا جرانت. الموهبة هي الموهبة. ولك الحق فيما تتمتَّع به منها. لكن حين تستخدمها بغير حساب ينقلب الأمر إلى ضده. تحلَّ بشيء من الاعتدال بحق السماء. طيلة يوم أمسِ كنت تُفتِّش نهرًا في محاولة لإيجاد جثَّة رجل غارق، والآن أجدك تتحلَّى بالجرأة لتجلس هنا وتُخبرني أنك لا تظنُّ أنه غرق من الأساس. ماذا تظنُّ أنه فعل؟ سار مُبتعدًا حافي القدمين؟ أم أخذ يعرُج مُتنكِّرًا في شكل رجل ذي قدم واحدة يسير بمُساعدة

عكازين صنعهما في لحظة تفرُّغ من غصنَي شجرة بلوط؟ إلى أين ذهب في رأيك؟ وكيف سيقتات من الآن فصاعدًا؟ صدقًا، يا جرانت، أعتقد أنك في حاجة إلى إجازة. فقط أخبرني ما الذي أدخل تلك الفِكرة إلى رأسك؟ كيف لعقلية بوليسية مُتمرِّسة أن تنحرف فجأة من قضية بسيطة وواضحة عن «مفقود يُعتقَد أنه غرق» إلى وهمٍ خيالي جامح لا يمتُّ بأي صلة إلى أي شيء في القضية؟»

كان جرانت يلوذ بالصمت.

«فضلًا، يا جرانت. أنا لا أهزأ بك. إنما أُريد أن أعرف حقًّا. كيف لك أن تصل إلى استنتاج مفاده أن رجلًا لم يغرق بعد أن وجدت حذاءه في النهر؟ كيف وصل الحذاء إلى النهر؟»

«لو كنت أعرف، يا سيدي، لانحلَّت مُعضلة هذه القضية.»

«هل كان بحوزة سيرل حذاء إضافي؟»

«كلا. الحذاء الذي كان يرتديه فقط.»

«الذي وُجِد في النهر؟»

«أجل، يا سيدي.»

«وما زلت تظن أنه لم يغرق، أليس كذلك؟»

«أجل.»

هنا ساد الصمت بينهما.

«لا أعرف بأيهما أبدي إعجابي أكثر، يا جرانت: جرأتك أم مخيلتك.»

لم ينبِس جرانت ببنت شفة. لم يبدُ له أن هناك شيئًا ليقوله. كان يعي بمرارة أنه قال بالفعل أكثر مما ينبغي.

«أيُمكنك افتراض نظرية — مهما كانت جامحة — يُمكن أن تناسب فكرتك عن كونه لا يزال على قيد الحياة؟»

«يمكنني افتراض واحدة. ربما تعرض للاختطاف، وأُلقي الحذاء في النهر كدليل على غرقه.»

فنظر إليه برايس نظرةَ احترام دراماتيكية. وقال: «أنت لم تختر المِهنة التي تناسب موهبتك، يا جرانت. أنت محقِّق جيد بحق، لكنك قد تجني ثروة من كتابة الأدب البوليسي.»

فقال جرانت في تهذيب: «إنما كنتُ أجيبك فقط على التحدي الذي وضعته أمامي وأذكر نظرية تتناسب والوقائع، يا سيدي. لم أقلْ إنني متأكِّد من صحَّتها.»

لطفت هذه الجملة من حدة برايس تجاهه بعض الشيء. فقال: «أراك أنت تخرج تلك النظريات من القبعة كالأرانب مثلما يفعل الحواة. نظريات بكافة الأشكال بما يتلاءم مع أيِّ قضية! لكن لا إكراه على تصديقها! اقترب وشاهد! اقترب وشاهد!» ثم توقَّف ونظر مطوَّلًا إلى وجه جرانت رابط الجأش، وأرجع ظهره ببطءٍ إلى ظهر كرسيه، مُسترخيًا، ثم ابتسم. وقال بنبرة ودودة: «يا لوجهِكَ الذي يخلو من أي تعبيرات مثل لاعب بوكر!» ثم أخذ يبحث في جيبه عن الثقاب. «أتعرف ما أحسدك عليه، يا جرانت؟ قدرتك على التحكُّم في نفسك. دائمًا ما أفقد صوابي بشأن هذا أو ذاك؛ وهذا لا يُجديني ولا يجدي أحدًا نفعًا. تقول زوجتي إن هذا بسبب أنني لستُ واثقًا بنفسي وأنني أخشى أني لن أحصل على ما أريد. لقد حضرت حلقة دراسية في علم النفس من ست محاضرات في كلية مورلي، ولا يُوجد شيء لا تَعرفه هي عن العقل البشَري. لا يسعُني سوى أن أخلُص إلى أنك شديد الثقة بنفسِك خلف هدوء أعصابك اللطيف هذا.»

فقال جرانت باسمًا: «لا أدري، يا سيدي. كنتُ بعيدًا تمامًا عن هدوء الأعصاب حين أتيت إليك لأقدم تقريري، ولم يكن لديَّ ما أطلعك عليه سوى قضية ظلَّت على ما كانت عليه تمامًا حين سلمتني إياها قبل أربعة أيام مضت.»

«إذن قلت في نفسك: «كيف حال ذلك العجوز مع الروماتيزم اليوم؟ هل سيسهل التحدُّث معه أم أن عليَّ طرح الأمر بحذر؟»» ثم تلألأت للحظة عيناه الصغيرتان اللتان تُشبهان عينَي الفيل. وأردف: «أرى أن نقدم للمفوض تقريرك المُتقَن عن الوقائع كما هي عليه، وألا نُطلعه على خيالاتك البديعة تلك.»

«كما ترى، يا سيدي. فلن يُمكنني أن أفسر للمفوض أن لديَّ تصوُّرًا مُختلِفًا نابعًا من إحساس داخلي.»

«أجل. وإن أردتَ نصيحتي، توقَّف عن الانتباه كثيرًا إلى إحساسك الداخلي، والتزم بما يقتنع به ذهنك. هناك عبارة بسيطة شائعة في تحقيقات الشرطة تقول: «بمُقتضى الأدلة». قلها ستَّ مرات في اليوم وكأنها صلاة المائدة قبل وبعد الوجبات، لربما ساعدتك على الحفاظ على واقعيتك ومنعتك من رؤية نفسك ألمعيًّا كفريدريك الكبير أو اعتبار نفسك قنفذًا أو شيئًا من هذا القبيل.»

الفصل الثامن عشر

تعلَّمَ جرانت حين كان لا يزال تلميذًا أنه إن واجه مُشكلة ما فإنَّ من المُجدي أن يتوقَّف عن التفكير فيها لبعض الوقت. فالمسألة التي كانت تبدو في غاية التعقيد ليلة أمس تُصبح بسيطة لدرجة أنها تكون بديهية بمَجيء الصباح. كان هذا درسًا قد تعلَّمه بنفسِه؛ ومن ثمَّ لم ينسَهُ أبدًا، وأضحى يُطبقه في حياته الشخصية والعملية. فمتى وصل جرانت إلى طريق مسدود كان يصرف انتباهه عنه. والآن، وعلى الرغم من أنه لم يتبع نصيحة برايس عن الطقس اليومي الذي حدَّثه عنه، فقد أبدى اهتمامًا لكلماته عن تجاهل «إحساسه الدخلي». وقد وصل جرانت إلى طريق مسدود في قضية سيرل؛ لذا صرف انتباهه عنه وفكَّر في توم ثامب. كانت قضية توم ثامب الحالية هي قضية عاهل «عربي» نزل في أحد فنادق شارع ستراند مدَّة أسبوعين واختفى دون أن يتبع الإجراءات الرسمية التي تتمثَّل في دفع فاتورته.

وقد ابتلع الروتين اليومي جرانت مرةً أخرى في دوامته، ذلك الروتين حيث تجد أن العمل الموجود دائمًا أكثر من الرجال الذين يُؤدُّونه، فاختفَت سالكوت سانت ماري من صدارة تفكيره.

ومن ثم، وذات صباح بعد مرور ستة أيام، قذفها ذهنه إليه ثانية.

كان جرانت يسير عبر الرصيف الجنوبي لشارع ستراند في طريقه لتناول غدائه في مايدن لين، وهو راضٍ عن التقرير الذي سيُقدِّمه لبرايس حين يعود إلى الإدارة، كما كان يفكر سدًى في المعروضات الكثيرة من أحذية النساء في شارع لا يجد شعبية كثيرة بين النساء كهذا الشارع. ذكَّرته فكرة أحذية النساء بدورا سيجنز والحذاء الذي اشترته من أجل الحفل الراقص، فابتسم ابتسامة خفيفة بينما بدأ في عبور الشارع، متذكرًا أثناء ذلك حيويتها وثرثرتها وحدَّتها الودودة. كما تذكر أنها كادت تنسى الحذاء في نهاية المطاف؛ حتى بعد أن تأخَّرت عن موعد الحافلة التي ستعيدها إلى المنزل من أجل أن تشتريه. كانت

تضعه على كرسي السيارة لأن حقيبة التسوق لم تسعه، فتحتم عليه أن يذكرها به. وقد كان ملفوفًا في لفافة من ورق بُني رخيص، وكان الكعب …

ثم توقَّف في مكانه تمامًا.

هتف سائق سيارة أجرة تجهَّم وجهه بفعل الغضب والفزع بعبارة ساخطة وجهها إليه. وجاء صوت فرامل سيارة تصرخ حيث توقفت سيارة نقل عند كوعه تمامًا. توجَّه نحوه رجل شرطة حين سمع صريخ الفرامل والهتاف بحركات بطيئة لكن عازمة. لكن جرانت لم ينتظر. فألقى بنفسه أمام سيارة الأجرة التالية التي اقتربت منه، وفتح الباب على نحو عنيف وقال للسائق: «إلى إدارة سكوتلانديارد وبسرعة».

قال السائق: «يا لك من استعراضي!» ثم تقدم بخطى منتظمة صوب الجسر.

لكن جرانت لم يسمع السائق. كان ذهنه مشغولًا بالمشكلة القديمة التي بحثت باستفاضة والتي بدت فجأةً حديثة ومُثيرة، الآن وقد أعاد فتحها من جديد. وفي الإدارة بحث جرانت عن ويليامز وحين وجده قال: «ويليامز، أتذكَّر حين قلت عبر الهاتف إن كل ملحوظاتك عن ويكهام غير مُفيدة ويجب التخلُّص منها في سلة القمامة؟ وقلت لك حينها ألا تتخلَّص من ملحوظاتك أبدًا».

رد ويليامز: «أذكر ذلك. حين كنت في المدينة للقبض على بيني سكول وكنت أنتَ في سالكوت تفتش النهر.»

«لم يحدث أنك اتبعت نصيحتي، أليس كذلك؟»

«بل اتبعتها بالطبع يا سيدي. لطالما أتبع نصائحك.»

«أتلك الملحوظات معك في مكان ما؟»

«هي هنا في مكتبي.»

«هل لي أن أراها؟»

«بكل تأكيد، يا سيدي. رغم إنني لستُ واثقًا إن كنت ستستطيع قراءتها.»

بالطبع لم تكن قراءتها سهلة. فحين كان ويليامز يكتب تقريرًا، كان يكتبه بخط تلميذ نجيب، لكنه حين يدون الملحوظات لنفسِه كان يدونها بكتابة هيروغليفية مختصرة هو وحده من يستطيع تفسيرها.

أخذ جرانت يُقلِّب الصفحات باحثًا عما يبتغيه.

وغمغم يقول: ««حافلة التاسعة والنصف من ويكهام إلى كروم. والعاشرة وخمس دقائق من كروم إلى ويكهام. والعاشرة والربع من ويكهام إلى كروم.» إم. إم. «زقاق فارم: عجوز» … ماذا قبل عجوز وطفل؟»

«عامل عجوز وطفل. لم أَذكُر تفصيلًا من كان في الحافلات من بداية الرحلة. بل من أقلُّوهم من على الطريق وحسب.»

«أجل، أجل؛ أعرف؛ فهمت. «مفترق طرق لونج ليت». أين ذلك؟»

«إنه مكان «بدائي»، شعبي بشكلٍ ما، في ضواحي ويكهام، حيث تجد به مجموعة من أنشطة المهرجانات. أرجوحات وما إلى ذلك.»

«تذكرت. «اثنان من عمال تشغيل الأرجوحات، معروفان». أهذه الكلمة «معروفان»؟»

«أجل؛ معروفان لدى المحصل شخصيًّا من رحلات أخرى.»

««امرأة تذهب إلى مزرعة وارن، معروفة». ماذا بعد هذه الجملة، يا ويليامز؟»

ترجم له ويليامز ما جاء بعدها.

وتساءل جرانت عما قد يعتقده ويليامز إذا ما لف ذراعيه حوله واحتضنه، تمامًا على طريقة لاعبي كرة القدم المحترفين تجاه من يحرزون الأهداف.

ثم سأله: «هل لي أن أحتفظ بها للوقت الراهن؟»

قال ويليامز إن بإمكانه أن يحتفظ بها إلى الأبد. فلم يكن من المرجح أن تكون ذات نفع كبير الآن. إلا إذا ... إلا إذا بالطبع ...

رأى جرانت على وجه ويليام بزوغ إدراك أن هذا الاهتمام المُفاجئ بملحوظاته لا بدَّ أنه نتيجة أكثر من مجرد فضول نظري من جانب جرانت؛ لكن جرانت لم ينتظر حتى يجيبه على السؤال القادم. فقد ذهب ليلتقيَ ببرايس.

قال برايس وهو يحدق به: «أعتقد أن الضباط ذوي الرتب الأدنى يُطيلون العمل على قضايا الفنادق من أجل أن يتسنَّى لهم الجلوس في الغرف الخلفية مع المُديرين ويحصلون على مشروبات مجانية.»

تجاهل جرانت مداعبته التشهيرية تلك.

«هل هذا تقرير روتيني قبل أن تذهب لتناول غداء لطيف على مهل، أم أن لديك شيئًا تُخبرني به؟»

«أظن أن لديَّ شيئًا سيسرُّك، يا سيدي.»

«سيكون لزامًا أن يكون هذا الشيء جيدًا للغاية من أجل أن يسرني، ربما كما لاحظت أنت.»

«لقد اكتشفت أنه شغوف بمشروب براندي الكرز.»

«يجب أن أقرَّ بأن هذا مثير للغاية. مثير بشكل «مبهر»! وفي ظنك ما نفع ...» لمعت عينه الصغيرة القاتمة فجأةً بفعل فكرة مذهلة. فنظر إلى جرانت كما ينظر الزميل إلى زميله. وقال: «كلا! ليست كقضية هامبورج ويلي!»

«يبدو الأمر كذلك، يا سيدي. فبها كل العلامات المميزة؛ كما إنه سيبدُو تمامًا كرجل عربي بفعل ملامحه اليهودية تلك.»

«هامبورج! حسنًا، حسنًا! علام حصل من ذلك ويستحق هذه المجازفة؟»

«عيشة رغدة مدة أسبوعين، وشيء من المرح.»

«سيكون مرحًا مُكلفًا. أعتقد أنك لا تملك أدنى فكرة إلى أين يمكن أن يكون قد هرب؟»

«في الواقع، تذكرت أنه كان يعيش مع مابس هانكي، ومابس كان يعمل عملًا جيدًا في أكاسياس في نيس هذا الربيع؛ لذا أمضيت معظم صباح اليوم على الهاتف ووجدت أن ويلي الذي نبحَثُ عنه، أو ما أظن أنه هو، يمكث هناك باسم السيد جوجون. وما أتيت أطلبه منك، يا سيدي هو ما إن كان باستطاعتي الآن — وقد أصبح الأمر روتينيًّا — أن يتولى شخص آخر عملية استرداد المجرم وما إلى ذلك وتتركني متفرغًا ليوم أو اثنين لأفعل شيئًا آخر.»

«ماذا تريد أن تفعل؟»

«واتَتْني فكرة جديدة عن قضية سيرل.»

فقال برايس محذرًا: «الآن، يا جرانت!»

«إنها فكرة جديدة للغاية» — ثم أضاف في ذهنه: «وسخيفة للغاية أيضًا» — «حتى إنني لا يُمكنني أن أتحدث عنها، لكنني أرغب كثيرًا في قضاء بعض الوقت في العمل عليها وأرى إن كانت ستُثمر شيئًا، يا سيدي.»

«حسنًا، أظن أنني لا أستطع أن أرفض لك ذلك بعد أمر شراب براندي الكرز.»

«شكرًا لك، يا سيدي.»

«لكن آمل أن تصرفها عنك إن لم يبدُ أنها ستثمر شيئًا. فهناك الكثير من العمل هنا بالفعل قبل أن تذهب لتطارد الأحلام البعيدة المنال.»

وهكذا خرج جرانت من حجرة المدير سعيًا وراء حلم بعيد المنال، وكان أول ما فعل هو أن ذهب إلى غرفته وأخرج التقرير الذي كانت شرطة سان فرانسيسكو قد أرسلته عن سيرل. وأخذ يتدارسه طويلًا ثم بعث بطلب مهذب إلى شرطة جوبلينج بكونتيكت.

ثم تذكر أنه لم يتناول غداءه بعدُ. وقد أراد مكانًا هادئًا يتمكن فيه من التفكير؛ لذا وضع الورقة الثمينة في محفظته وخرج إلى حانته المفضَّلة، حيث ستكون ساعة الذروة قد

انتهت وسيتمكن العاملون فيها من تحضير شيء ليتناوله. كان جرانت ما زال لا يعرف ما الشيء الذي ورد في التقرير عن حياة سيرل في أمريكا والذي دقَّ جرسًا ما في ذهنه حين قرأه للمرة الأولى. لكنه بدأ يُكوِّن فكرة عن «نوعية» ذلك الشيء الذي دق الجرس.

وبينما كان يخرج من الحانة بعد الغداء عرف ما يُمكن أن يكون ذلك الشيء.

فعاد إلى الإدارة واطلع على سجلٍّ مرجعي.

أجل، كان هذا هو الشيء.

ثم أخرج تقرير شرطة سان فرانسيسكو وقارنه بالمعلومة المسجلة في السجل المرجعي.

كان جرانت مغتبطًا.

لقد حصل على الشيء المُهم. الشيء الذي كان في حاجة إلى أن يرتكز عليه. لقد حصل على الرابط بين سيرل ووالتر ويتمور.

فاتصل بمارتا هالارد، وقيل له إنها تُجري تجارب الأداء على مسرحية «قلب كليل». وأنها ستكون في فندق كرايتريون بعد ظهر اليوم.

ولشعوره السخيف بأنه كالفقاعة — أقسم أنه من المُمكن أن يتقاذفني أحد كالكرة، هكذا قال في ذهنه — انطلق جرانت كأنه ينزلق عبر سطح الأرض حتى وصل إلى سيرك بيكاديللي. أشعر تمامًا كما شعر تومي ثروب صباح يوم الأحد الماضي، هكذا قال جرانت في نفسه. أكبر من الحياة بضعفَين، والبرق ينبثق من رأسي وكأنني شوكة تحميص.

لكن فندق كرايتريون أثناء حالة الاضطراب في فترة ما بعد الظُّهر التي تجري فيها تجارب الأداء سرعان ما اختزله حتى عاد إلى الحجم الطبيعي وأعاده إلى أرض الواقع.

سار جرانت عبر البهو، وخطا فوق حبلٍ ملفوف يُمثِّل عائقًا رمزيًّا، ونزَل السلم إلى الطابق الأرضي من دون أن يعترضه أحد. ربما يظنُّون أنني أبدو ككاتب، هكذا قال في نفسه، وتساءل من كتب مسرحية «قلب كليل». لم يعرف أحد من قبل من كتب أي مسرحية. لا بدَّ أنَّ كتاب المسرحيات يعيشون حياة شقية منكوبة. طبقًا لحسابات أحد المحللين، فإن نسبة عدم استمرار عرض مسرحياتهم لأكثر من ثلاثة أسابيع هي خمسون إلى واحد؛ وحينها لا يلاحظ أحد حتى اسمهم على العرض.

وربما تكون احتمالات وصول المسرحية إلى مرحلة تجارب الأداء حتى إلى ألف إلى واحد. وتساءل جرانت في ذهنه إن كان كاتب مسرحية «قلب كليل» يعرف أنه واحد من بين ألف، أم أنه كان مُتأكدًا من الأمر وحسب.

وفي مكانٍ ما في دهاليز الطابق الأرضي وصل جرانت إلى الحجرة الصغيرة الأنيقة التي تشبه الصندوق والتي كانت هي صالة العرض الخاصة بفندق كرايتريون؛ كانت

الحجرة شبحية بعض الشيء في ظل الإضاءة الباردة للمصابيح الكهربائية غير المغطَّاة، لكن سادها الصمت والتهذيب. وقد جلس العديد من الأشخاص غير واضحي المعالم على الكراسي الأمامية، ولم يتحرك أحد ليسأله عما يفعله في المكان.

كانت مارتا وحدها على المسرح وبجوارها أريكة مصنوعة من شَعر الحصان وشابٌّ يبدو عليه الخوف، وكانت تقول: «لكن لا بدَّ أن أستلقيَ على الأريكة، يا عزيزي بوبي. ستكون خسارة لساقي لو جلست عليها وحسب. فالجميع يبدُون متشابهين بداية من ركبتَيهم وللأسفل.»

فقال بوبي، وهو الرجل ذو المظهر المعتم غير واضح المعالم الذي يطوف يمنة ويسرة أمام مكان جلوس الأوركسترا أسفل خشبة المسرح: «أجل، يا مارتا، أنتِ محقة بالطبع.»

«لا أريد أن أغيِّر في تصوُّرك بأي شكل، يا بوبي. لكنني أظن ...»

«أجل، يا عزيزتي مارتا، أنتِ محقة بالطبع، محقة للغاية. كلا، بالطبع لن يُحدِث هذا فارقًا. كلا، أؤكد لكِ. لا بأس حقًّا. سيبدو ذلك رائعًا.»

«بالطبع قد يكون من الصعب على نايجل أن ...»

«كلا، يُمكن لنايجل أن يلتفَّ من خلفكِ قبل أن يقول جملته. فلتجرب ذلك، يا نايجل.»

ألقت مارتا بنفسها على الأريكة وانصرف الشاب الذي يبدو عليه الخوف إلى الكالوس ثم عاود الدخول إلى خشبة المسرح. وقد فعل ذلك تسع مرات. قال بوبي: «حسنًا، هذه هي»، وقد تقبَّل أداءه في المرة التاسعة.

خرج شخص ما من الجالسين على الكراسي الأمامية ثم عاد بأكواب من الشاي.

قال نايجل جملته فوق الأريكة، وعن يمينها، وعن يسارها، ومن موضع بعيدٍ عنها.

ثم أتى شخص إلى الكراسي وأخذ الأكواب الفارغة.

وتحرك جرانت تجاه أحد الجالسين بمفرده في استرخاء وسأله: «في ظنِّك متى يمكنني أن أتحدث إلى الآنسة هالارد؟»

«لن يتمكَّن أحد من الحديث إليها إن طال عملها مع نايجل هذا اليوم.»

«لي شأن في غاية الأهمية معها.»

«أأنت مسئول الملابس؟»

قال جرانت إنه صديق شخصي للآنسة هالارد وينبغي أن يتحدَّث إليها للحظات قليلة. وأنه لن يعطلها أكثر من ذلك.

سار الشخص ذو المظهر المُعتم ببطء وتشاور مع شخص آخر. وكان تشاورهما خافتًا.

فصل ذلك الأخير نفسه عن المجموعة غير واضحة المعالم التي كان يقف معها وأتى نحو جرانت. قدم الشخص نفسه على أنه مُدير المسرح، وسأله عما كان يُريده جرانت بالتحديد. طلب جرانت أن يخبر أحدهم الآنسة هالارد في أول فرصة تسنَح لذلك أن آلان جرانت موجود هنا، وأنه يُريد التحدث إليها قليلًا.

وقد أجدى هذا نفعًا؛ ففي أثناء التوقُّف التالي، تسلل مدير المسرح إلى الخشبة وانحنى مُعتذرًا أمام مارتا وتمتم إليها بشيء بنَبرة خفيضة.

نهضت مارتا من على الأريكة وجاءت إلى حافة المسرح، مغطية عينيها في محاولة للنظر خلف الأضواء نحو صالة العرض المُعتمة.

ثم قالت: «هل أنت هناك، يا آلان؟ هلا أتيت عبر باب المرور؟ ليُرِه أحدُهم الباب.»

وأتت تلقاه عند الباب وكان من الواضح أنها مسرورة لرؤيته. «تعالَ وتناول كوب شاي معي في جناح المسرح بينما ينتهي العاشقان اليافعان من دورهما. كم أنا مُمتنة أنني لن أضطرَّ أبدًا لأن أُؤدِّي دور عاشقة صغيرة! إنها أكثر تقاليد المسرح إثارة للملل. أنت لم تحضر من قبل تجارب الأداء، يا آلان! فما الذي حملك على هذا؟»

«أرغب أن أقول إنَّ السبب هو فضول ثقافي، لكن أخشى أن السبب هو العمل وحسب. أعتقد أن بإمكانك مساعدتي.»

لقد ساعدته مارتا كثيرًا؛ ولم تسأله قطُّ ما يُمكن أن تعنيه تلك الأسئلة.

قالت مارتا وهي تنصرف لتجعل العاشقَين اليافعَين يبدُوان كالهواة وتتمنَّى لو نزلا عن المسرح: «نحن لم نتناول ذلك العشاء بعدُ مع الرقيب ويليامز.»

«لو انتظرتِ أسبوعًا أو نحو ذلك، فقد يُصبح لدينا أنا والرقيب ويليامز قصة لنقصها عليكِ.»

«رائع. أشعر أنني استحققت ذلك. فقد كنتُ صالحة ومُتكتِّمة للغاية.»

قال جرانت: «كنتِ في غاية الروعة» وانصرف من المخرج الخلفي إلى الزقاق في شيء طفيف من الابتهاج الذي جرفه على السلم لدى دخوله.

ذهب جرانت إلى كادوجان جاردنز مُتسلِّحًا بالمعلومات التي أمدته بها مارتا، وأجرى لقاءً مع مديرة منزل بعض الشقق المفروشة.

قالت المديرة: «أوه، أجل، أتذكَّر. كانا يقومان بالكثير من الأنشطة معًا. لا، لم تكن تُقيم هنا. فهذه شقق للعزاب، وهي مُخصَّصة لفرد واحد. لكنها كانت كثيرًا ما تكون في الأرجاء.»

بحلول ذلك الوقت كانت لندن تغلق متاجرها لتلك الليلة ولم يكن هناك ما يُمكنه فعله حتى تمده شرطة جوبلينج بولاية كونتيكت بالمعلومات التي طلبها. وهكذا عاد جرانت إلى منزله مُبكِّرًا هذه المرة، وتناول عشاءً خفيفًا، وأخلد إلى الفراش. وقد رقد في فراشه طويلًا يستقصي الأمر في ذهنه. يُفكِّر في التفاصيل. ويتناول الأسباب.

كان توبي توليس يُريد معرفة ما يثير اهتمام وحماس ليزلي سيرل؛ وكان جرانت أيضًا وهو راقد في سريره وعيناه مُثبَّتتان على السقف بلا حراك طيلة ساعة قبل أن يتحرك، كان جرانت أيضًا يبحث عن المحرك الرئيسي لعقل ليزلي سيرل.

الفصل التاسع عشر

مرَّت ثمان وأربعون ساعة قبل أن يأتيَ خبر من جوبلينج، وطوال تلك المدة ولمرات كثيرة كان جرانت على وشك أن يذهب إلى تلك المرأة في هامبستيد وينتزع منها الحقيقة انتزاعًا بالقوة. إلا أنه كبح جماح نفسِه. سيتعامل معها عما قريب. سيُنمِّق أكاذيبها ويُقدمها لها في طبق، وسيقدمه لها حين يحين وقت ذلك.

سينتظر التقرير.

وحين أتى التقرير ثبَت أنه كان يستحق الانتظار.

قرأه جرانت بلمحة سريعة من عينه، ثم أسند ظهره للخلف وأخذ يضحك.

وقال للرقيب ويليامز: «إن أرادني أحد خلال ما تبقى من اليوم سيجدني في منزل سومرست هاوس.»

رد ويليامز متجهمًا: «حسنًا، يا سيدي.»

رمق جرانت ملامح الهدوء غير المعهود على مُحيا ويليامز — إذ كان ويليامز حزينًا بعض الشيء أن جرانت كان يتناول هذا الأمر بمفرده — فتذكر شيئًا.

«بالمناسبة، يا ويليامز، تتُوق الآنسة هالارد للقائك. لقد طلبت مني أن أحضرك إلى العشاء ذات ليلة.»

فسأله ويليامز وقد تحوَّل لونُ وجهه إلى الأحمر: «أنا؟» وأردف: «لماذا بحقِّ السماء؟»

«لقد وقعت ضحية جاذبيتك التي سمعت عنها. فطلبَت مني أن أُرتِّب لليلة تكون مُتفرغًا فيها. وأشعر في أعماقي هذا الصباح أنني وأنت بحلول يوم السبت سنُصبح في حالة تسمح بالاحتفال؛ وسيكون من الملائم في رأيي أن نحتفل مع مارتا. هل يوم السبت مناسب لك؟»

«في الواقع، عادة ما نذهب أنا ونورا إلى السينما يوم السبت، لكن حين أكون في العمل تذهب برفقة جين. تلك هي أختها. لذا لا أرى مانعًا أن تذهب مع جين هذا الأسبوع.»

«حين تعرف أنك ذاهب للعشاء مع مارتا هالارد فإنها على الأرجح ستبدأ في إجراءات الطلاق.»

قال ويليامز المُتزوِّج حديثًا بعد عزوف طويل عن الزواج: «ليست نورا من يفعل ذلك. ستنتظر حتى يتسنى لها أن تسألني عما كانت ترتديه مارتا هالارد.»

اتصل جرانت بمارتا ليسألها إن كان بإمكانه أن يحضر السيرجنت ويليامز ليلتقي بها مساء السبت، ثم غادر ودفن نفسه في منزل سومرست هاوس.

في تلك الليلة لم يرقد مستيقظًا. بل كان كطفل يذهب للنوم لأن الغد سيحل سريعًا بتلك الطريقة. غدًا، ستُوضَع آخر قطع الأحجية في مكانها وتكتمل الصورة.

وإن صادف أن لم تكن تلك القِطعة الصغيرة الأخيرة مُلائمة، فإن الصورة بأكملها كانت خاطئة بالطبع. لكنه كان واثقًا كثيرًا من أنها ستلائم مكانها.

وفي المدة القصيرة ما بين إطفائه المصباح واستغراقه في النوم، أخذ يجوب بعقله في ثنايا تبعات ما سيحدث. حين توضع تلك القطعة الصغيرة في مكانها غدًا، ستصبح الحياة أكثر سعادة لكثير من الناس. لوالتر طبعًا؛ حيث ستُرفع ظلال الشك عنه. ولإيما جاروبي، إذ ستُصبح ليز في أمان. أما لليز، فسيصبح ارتياحًا لا تصفه الكلمات بالنِّسبة إليها. وارتياحًا للآنسة فيتش، التي قد تحزن بعض الشيء أيضًا في ظنه. لكن بإمكانها دائمًا أن تخط ذلك في كتاب. الأمر برمته ينتمي إلى عالم الكتب.

ورأى جرانت أن توبي سيُصبح لديه أسباب خاصة إلى حد بعيد ليهنئ نفسه؛ وأضحكه ذلك. وسيشعر سيرج راتوف بالارتياح.

وما كان سيلاس ويكلي ليعبأ بالأمر على الإطلاق.

تذكَّر أن مارتا كانت قد علَّقت على كم كان كلٌّ من ليزلي وليز «لطيفَين» معًا. (قالت إنهما يُشكلان «ثنائيًّا طبيعيًّا» لكن لم يكن بإمكانها أن تُخمن «كم» هما طبيعيان!) هل من الممكن أن تشعر ليز بالحزن والألم حين توضع تلك القطعة الصغيرة في مكانها غدًا؟ كان يأمل ألا يحدث ذلك. فليز جاروبي تروقه. ويتمنى لو أن سيرل لم يكن يُمثِّل لها شيئًا. وألا تجد شيئًا سوى السعادة والارتياح في تبرئة والتر.

ما الذي قالته مارتا؟ «لا أظن أن والتر يعرف أي شيء عن ليز، وأظن أن ليزلي سيرل عرف عنها الكثير». (من المدهش أن مارتا رأت ذلك من دون أي دليل على مصدر

معرفة سيرل.) لكن في رأي جرانت، ليس من المهم أن والتر لم يكن يعلم الكثير عن ليز. فقد كان واثقًا أن ليز تعرف كل ما يُمكن معرفته عن والتر؛ وهذا يمثل أساسًا قويًّا لحياة زوجية سعيدة.

خلَد جرانت إلى النوم وهو يُفكِّر فيما إن كان الزواج من امرأة لطيفة وذكية ومحبوبة مثل ليز جاروبي يُمكن أن يعوض الرجل عن خسارته حريته.

وتلاشى في الأفق موكب عواطفه — معظمها دعوات رومانسية بالتوفيق — فيما أخذ ضباب غياب الوعي يلفُّ عقله.

لكنه في الصباح لم يكن يفكر إلا في امرأة واحدة. تلك المرأة في هامبستيد.

لم يحدث له من قبل قطُّ — حتى في أقل أوقات خبرته — أن ذهب للقاء امرأة بشغف كبير كشغفه الذي كان يسوقه إلى هولي بيفمينت هذا الصباح. وكان مُتفاجئًا قليلًا حين نزل من الحافلة وسار تجاه منعطف هولي بيفمينت ووجد أن قلبه كان يخفق بشدة. لقد مر زمن طويل منذ أن خفق قلب جرانت لأي سبب آخر سوى الأسباب الجسدية.

وقال في ذهنه، اللعنة على تلك المرأة، تبًّا لها.

كان هولي بيفمينت عبارة عن موضع راكد من النهر يملؤه ضوء الشمس؛ مكان في غاية الهدوء حتى إن تبختر الحمائم بدا وكأنه ضجيج. وكان المنزل رقم تسعة عبارة عن مبنًى من طابقَين، ومن الواضح أن الطابق الأعلى منه قد تم تحويله إلى استوديو. وعلى لوحة الجرس كان هناك زرَّان بجانبهما علامتان خشبيتان مُنمقتان. على الأعلى منهما مكتوب «الآنسة لي سيرل» وعلى الأدنى منهما مكتوب: «نات جانسيج للأكسسوارات».

ضغط جرانت على الزر الأعلى منهما وهو يتساءل في ذهنه ماذا تكون تلك «الأكسسوارات»، وسرعان ما سمعها تنزل على السُّلم الخشبي نحو الباب. فُتِح الباب وظهرت هي واقفة خلفه.

سمع جرانت نفسه يقول: «الآنسة سيرل؟»

فأجابت وهي تنتظر تحت ضوء الشمس: «أجل»، ولم تكن مُرتبكة لكنها مُتحيِّرة.

«أنا المفتش المحقق جرانت من قسم التحقيقات الجنائية.» لاحظ جرانت أن حيرتها زادت لدى سماعها لذلك. وتابع: «أتى زميل لي، وهو الرقيب ويليامز، لزيارتك بدلًا مني قبل أسبوع لأنني كنت مشغولًا بأمور أُخرى. وأرغب كثيرًا في التحدُّث إليكِ بنفسي، إن كان هذا ملائمًا.»

ومن الأفضل أن يكون ذلك ملائمًا، عليكِ اللعنة، هكذا قال جرانت في ذهنه؛ وكان غاضبًا من دقات قلبه المتسارعة.

فقالت في اتزان وهدوء: «أجل، بالطبع. فلتتفضَّل بالدخول. أنا أقطن الطابق العلوي.»

أغلقت الآنسة سيرل الباب خلفه ثم تقدمته على السُّلم الخشبي إلى الاستوديو الخاص بها. كانت رائحة قهوة قوية — قهوة جيدة — تعمُّ المكان، وفيما أرشدته إلى الداخل قالت: «كنتُ أتناول إفطاري للتو. لقد عقدت صفقة مع فتى الصحف أن يترك لي رغيفًا صغيرًا من الخبز في كل صباح مع الصحف، وهذا هو إفطاري. لكن هناك الكثير من القهوة. هل أُعِدُّ لك بعضها، أيها المفتِّش؟»

يقولون عن جرانت في الإدارة إن لدَيه نقطتَي ضعف: القهوة والقهوة. وكانت رائحة هذه القهوة رائعة. إلا أنه لم يكن ليشرب أي شيء مع لي سيرل.

«شكرًا لكِ، لكنني انتهَيت من قهوتي للتو.»

فصبَّت لنفسها فنجانًا آخر، ولاحظ جرانت أن يدَيها كانتا ثابتتَين. يا لكِ من امرأة، لقد بدأ جرانت يشعر نحوها بإعجاب. كانت ستصبح رائعة لو كانت زميلة له.

كانت المرأة طويلة ونحيفة؛ وتبدو في غاية الجمال بفعل مظهرها النحيل ولا تزال في عنفوان الشباب. وقد صنعت من شَعرها ضفيرة سميكة؛ على شكلِ إكليل. أما المعطف المنزلي الطويل الذي كانت ترتديه فكان مصنوعًا من قماش أخضر باهت، يُشبه كثيرًا أحد معاطف مارتا؛ وكان لهذه المرأة ساقان طويلتان كساقَي مارتا اللتين أضفتا عليها أناقتها.

قال جرانت: «قُرب الشبه بينك وبين ليزلي سيرل استثنائي للغاية.»

فقالت في اقتضاب: «هكذا كان يُقال لنا.»

تحرَّك جرانت في أرجاء الغرفة ينظر إلى الرسومات الاسكتلندية التي تستنِد إلى مسند العرض. كانت الصور تمثل انطباعات تقليدية عن مناظر تقليدية، إلا أنها مرسومة بثقة بربرية عنيفة، وبغضب، بحيث كانت تصرخ من اللوحة في وجه الناظر إليها. لم تكن تلك الصور تقدم نفسها للناظر، بل كانت تهاجمه. «انظر، أنا سوليفان!» هكذا صاح سوليفان، بحيث بدا أكثر غرابة وتفردًا مما بدا عليه ذلك الجبل يومًا. وكذلك كولينج — ذلك الحصن بلون العنب الأزرق أمام سماء صباح باهتة — كان يمثل حاجزًا كاملًا من العجرفة والغرور. حتى مياه كيشورن الهادئة الرائقة كانت ماجنة عاتية.

سألها جرانت: «هل ظلَّ مُمتعًا لك؟» ثم شعر أن قوله هذا يفتقد إلى قواعد اللياقة فأضاف: «إن غرب اسكتلندا رطب للغاية.»

«ليس في هذا الوقت من العام. هذا هو أفضل وقت هناك.»

«هل وجدتِ الفنادق مُريحة؟ سمعت أنها تميل لأن تكون بدائية.»

«لم أزعج نفسي بالفنادق. فقد خيَّمت في العراء في سيارتي.»

فكَّر جرانت في ذهنه أن هذا كان تصرفًا محكمًا للغاية.

«ما الذي أردت أن تتحدَّث إليَّ عنه؟»

لكن جرانت لم يكن في عجلة من أمره. لقد سببت تلك المرأة له الكثير من المتاعب. سيتأنى وسيستغرق وقته.

ثم انتقل جرانت من الرسومات إلى صفوف الكتب على الأرفف، وأخذ يُفكِّر في العناوين.

«أرى أنكِ تُفضِّلين الغرائب.»

«الغرائب؟»

«الأرواح الشريرة. زخَّات الأسماك. ندبات المصلوبين. تلك النوعية من الأشياء.»

«أعتقد أن كل الفنَّانين ينجذبُون إلى غرائب الأشياء، بصرف النظر عن الوسط الخاص بها، ألا تعتقد ذلك؟»

«لكن لا يبدُو أن لديكِ شيئًا عن التشبُّه بالجنس الآخر.»

«ما الذي جعلك تظن هذا؟»

«إذن أنتِ تعرفين المُصطلَح؟»

«بالطبع أعرفه.»

«أهو أمر لا يُثير اهتمامك؟»

«ما كُتِب عن هذا الموضوع غير مريح للغاية، حسبما فهمت. لا شيء بدءًا من الكُتيِّبات العلمية وحتى صحيفة نيوز أوف ذا وورلد.»

«ينبغي عليكِ أن تكتُبي بحثًا عن هذا الموضوع.»

«أنا؟»

فقال جرانت في سلاسة: «أنتِ تحبِّين الغرائب.»

«أنا رسامة، أيها المُفتِّش، ولست بكاتبة. أضف إلى ذلك أن لا أحد يهتمُّ في هذه الآونة بالقراصنة الإناث.»

«القراصنة؟»

«كانوا جميعًا قراصنة أو جنودًا أو بحَّارة، أليس كذلك؟»

«أتظنِّين أن موضة ذلك خبت مع فيبي هيسيل؟ أوه، على الإطلاق. هذا الموضوع يظهر باستمرار. قبل عدة أيام فقط ماتت امرأة في جلوسيسترشاير وكانت تعمل لأكثر من عشرين عامًا في نقل الأخشاب والفحم، وحتى الطبيب الذي عالجها في آخر مرض لها لم يكن لديه أدنى فكرة أنها لم تكن رجلًا. وفي ذلك عرفت حالة شخصية منذ وقت ليس

بطويل. إذ اتُّهم شابٌّ في ضواحي لندن بالسرقة. وكان شابًّا طبيعيًّا محبوبًا. يجيد لعب البلياردو، وينتمي إلى أحد نوادي الرجال، ويُواعد إحدى الفتيات الجميلات في الضاحية. لكن حين تمَّ الكشف عليه طبيًّا اتضح أنه امرأة شابة طبيعية. يحدث هذا الأمر هنا وهناك أو بين الحين والآخر. في جلاسجو. وشيكاغو. ودندي. في دندي شاركت فتاة شابة جناحًا في فندق مع عشرة من الرجال ولم يشكَّ أحدٌ بأمرها أبدًا. هل يصيبك حديثي بالملل؟»

«على الإطلاق. كنت أتساءل وحسب إن كنت تعتبر هذه الأحداث غريبة بنفس المعنى الذي تنظر به إلى الأرواح الشريرة وندوب المصلوبين.»

«كلا؛ أوه، كلا. إنَّ بعض الإناث بالطبع يُصبحن أكثر سعادة بالفعل عند التشبُّه بالرجال؛ لكن الكثير منهن يفعلن ذلك بدافع حب المغامرة، وقلَّة منهنَّ لضرورات اقتصادية. والبعض يفعلنها لأنها الطريقة الوحيدة التي يُمكنهنَّ من خلالها تنفيذ مخططاتهن.»

أخذت هي رشفة من قهوتها في اهتمام مُهذَّب، كما يفعل المرء وهو يمهل ضيفًا ثقيلًا حتى يصل إلى المرحلة التي يُعبِّر فيها عما أتى له.

فكَّر جرانت أن تلك المرأة ستُصبح حليفًا رائعًا في العمل.

تباطأت نبضات قلبه إلى المعدَّل الطبيعي. كانت تلك حركات في لعبة مارسها منذ وقت طويل؛ لعبة عقل ضد آخر. والآن كان جرانت يتطلَّع إلى ردِّ فعلها على حركاته. لقد صمدت أمام مناوشاته لها. فكيف ستُواجه هجومًا مباشرًا؟

أتى جرانت من عند أرفف الكتب وقال: «لقد كنتِ في غاية الإخلاص لأقاربك، يا آنسة سيرل.»

«ليزلي؟ لكنني بالفعل ...»

«كلا. بل مارجريت ميريام.»

«مار ... لا أعرف ما الذي تتحدث عنه.»

كان هذا خطأً من جانبها. لو توقفت لتفكر للحظة، لأدركت أنه لم يكن هناك سبب على الإطلاق لإنكار صلتها بمارجريت. لكن عدم توقُّع ذكر هذا الاسم على شفتَيه أذهلَها، فاندفعت وتهورت.

«مخلصة للغاية حتى إنكِ لم يكن بمَقدُورِكِ أن تُفكِّري فيها على نحو مُستقيم.»

«أقول لك ...»

«كلا، لا تقولي أي شيء. سأُخبرك أنا بشيء. شيء ينبغي أن يُقوِّي أواصر الثقة بيننا بسهولة كبيرة، يا آنسة سيرل. لقد قابلت ليزلي سيرل في حفل في بلومزبيري. إنه واحد من

تلك التجمُّعات الأدبية. وأراد أن يقدم إلى لافينيا فيتش ووافقت أنا على تقديمه. وبينما كنا نكافح في التقدم عبر الحشد دفع بعضنا نحو بعضٍ فاقترب بعضنا من بعضٍ كثيرًا؛ في الواقع كانت المسافة بيننا تكاد تكون كافية للتنفُّس وحسب. ورجل الشرطة يتدرب على الملاحظة الدقيقة، لكني وحتى من دون هذا التدريب أظنُّ أنني كنت سألاحظ أي اختلاف في التفاصيل التي بدتْ لي من تلك المسافة. كان ليزلي سيرل يتمتَّع بعينَين رماديتَين جميلتَين للغاية، وكان هناك بُقعة صغيرة بُنِّية في قزحية العين اليُسرى. وقد أمضيت مُؤخرًا وقتًا طويلًا بذلت فيه من الجهد والتفكير الكثير، محاولًا تفسير اختفاء ليزلي سيرل، وبفِطنة فِطرية وقدرٍ كبيرٍ من الحظ وصلت إلى المرحلة التي كنت فيها بحاجة إلى شيء صغير فقط لكي تكتمل قضيتي. بقعة بُنية صغيرة. وقد وجدتها على عتبة الباب بالأسفل.»

ساد صمت تام. كانت تجلس وكوب قهوتها موضوع على حجرها، بينما تنظر إليه. وقد بدا صوت طقطقة ساعة الحائط البطيء صاخبًا وثقيلًا وسط هذا الهدوء.

قال جرانت: «إنه لشيء غريب، الجنس. حين ضحكتِ معي — عندما تقاربنا في الزحام ذلك اليوم — أدركتني لحظة شعرت فيها فجأة بالخجل. كنت مرتبكًا. مثل الكلب أحيانًا حين يرى أن هناك من يضحك عليه. كنتُ أعرف أن الأمر ليس له أي صلة بضحككِ، ولم أستطع أن أُفكِّر في سبب آخر لشعوري بالارتباك. عند الساعة الواحدة إلا الربع تقريبًا يوم الإثنين الماضي بدأت عملية إدراك ذلك السبب؛ وكدت أُدهَس تحت سيارة أجرة نتيجة لذلك.»

رفعت نظرها عند سماعها ذلك؛ ثم قالت في اهتمامٍ ضعيف بشكلٍ ما: «هل أنت النجم البارع في إدارة سكوتلانديارد؟»

فأكَّد لها جرانت: «أوه، كلا. بل هناك الكثيرون مثلي.»

«طريقة حديثك لا تدلُّ على أن هناك كثيرين مثلك. ليس ممَّن عرفتهم. وليس بإمكان أحد يشبه الكثيرين أن يعرف ما حدث ... ما حدث لليزلي سيرل.»

«لست أنا المسئول عن التوصُّل إلى ذلك.»

«ليس أنت؟ من المسئول إذن؟»

«دورا سيجنز.»

«دورا ...؟ من هي دورا؟»

«دورا هي فتاة تركت حذاءها على مقعد سيارتي. حذاء في لفافة منمَّقة. في ذلك الوقت كان مجرَّد حذاء في لفافة. لكن يوم الإثنين الماضي في الواحدة إلا الربع، تمامًا أمام سيارة أجرة، أصبحت اللفافة مشابهة لشيء آخر كنت أبحث عن أبعاده.»

«أي أبعاد تلك؟»

«أبعاد تلك المساحة الخاوية في صندوق التصوير الفوتوغرافي الخاص بكِ. حاولت أن أضع حذاء سيرل في تلك المساحة — اصفحي لي عن إقدامي على ذلك — لكنكِ ستتقبلين أن مُفتشًا عاديًّا يكد في عمله يوجد مثله الكثيرون ما كان له أن يُفكِّر في شيء غريب كلفافة تحتوي على حذاء نسائي ومنديل رأس حريري ملوَّن. بالمُناسبة، الوصف الذي دونه زميلي الرقيب للمرأة التي استقلَّت الحافلة عند تقاطع الطرق حيث كان المهرجان، يقول: معطف مطر فضفاض.»

«أجل. معطفي الواقي من المطر ذو وجهين.»

«أكان هذا جزءًا من تحضيراتك للخطة أيضًا؟»

«كلا؛ بل حصلت عليه قبل سنوات، حتى أتمكَّن من السفر في خفة. فبإمكاني التخييم في العراء وأنا أرتديه، وأن أذهب لتناول شاي الظهيرة حين أُدير وجهه.»

«من المثير للحنق قليلًا أن أدرك أنني كنت من مهَّد الطريق لتلك المزحة المزعجة التي فعلتِها بسبب تلهُّفي أن أكون عونًا للغريب الواقف على الباب. بعد هذه المرة سأدع الغرباء يقفون ولن أبالي.»

قالت في بطء: «أهكذا يبدُو الأمر لك؟ مزحة مزعجة؟»

«دعينا لا نتجادل بشأن المصطلحات. لا أدري ماذا تُطلقين عليها بينَكِ وبين نفسِك. في واقع الأمر، تلك مُزحة مُزعِجة تتَّسم بالقسوة إلى حدٍّ ما. أظنُّ أن خطتك كانت إما أن تجعلي من والتر ويتمور أحمقَ أو أن تتركيه في مأزق.»

فقالت ببساطة: «كلا، كنتُ سأقتله.»

كان صدقها جليًّا حتى إن جرانت هبَّ واقفًا.

وقال في اهتمام بالغ وقد زالت عنه الرغبة في التهكُّم: «تقتلينه؟»

قالت: «بدا لي أنه لا ينبغي أن يسمح له بالحياة.» ورفعت كوب قهوتها من على حجرها لتضعه على الطاولة، لكن يداها كانتا ترتعشان كثيرًا حتى إنها لم تتمكَّن من رفعه.

تحرك نحوها جرانت وأخذ الكوب منها بلطف ووضعه نيابة عنها.

وقال: «كرهتِه بسبب ما تخيَّلتِ أنه قد فعله بمارجريت ميريام» فأومأت إيجابًا. كانت يداها تتعانقان في حجرها في محاولة عابثة لكي تُبقيهما ثابتتين.

صمت جرانت للحظات، في محاولة لأن يعتاد فكرة أن براعتَها التي ظنَّ أنها مخرج حذق لها من تنكُّرها كانت في واقع الأمر مخرجًا مُخطَّطًا له للإفلات بجريمة قتل.

«وما الذي حملكِ على تغيير رأيكِ؟»

«رغم غرابة الأمر، فإن أول شيء بسيط كان عبارة قالها والتر. كان ذلك ذات مساء بعد أن افتعل سيرج راتوف مشكلة في الحانة.»

«وبعد؟»

«قال والتر إن المرء حين يكون مخلصًا لأحدهم كما هو حال سيرج فإنه يتوقَّف عن التفكير بعقلانية في الأمر. جعلني هذا أفكر قليلًا.» توقفت عن الحديث. ثم استطردت: «بعد ذلك، أعجبت بشخصية ليز. لم تكن على الإطلاق كما تخيَّلتها. فقد تخيَّلتُ أنها الفتاة التي سرقت والتر من مارجريت. وشخصية ليز الحقيقية لم تكن على ذلك النحو أبدًا. حيَّرني هذا الأمر قليلًا. لكن السبب الحقيقي الذي أوقفني كان … كان أن … أن …»

فقال جرانت بنبرة هادئة: «أنكِ اكتشفتِ أن الإنسانة التي تُحبِّينها وأردت الانتقام من أجلها لم تكن شخصيتها مثلما تظنِّين.»

أخذت نفسًا عميقًا وقالت: «لا أعرف كيف يُمكن لك تخمين ذلك.»

«لكن هذا هو ما حدث، أليس كذلك؟»

«بلى. بلى، فقد اكتشفت … لم يكن الناس يعرفون أن لي صلة بها، فكانوا يتحدَّثون بلا حذر. بالأخص مارتا. مارتا هالارد. عدتُ برفقتها ذات ليلة بعد العشاء. فأخبرتْني بأشياء … أذهلتني وصدمتني. لطالما عرفت أنها كانت جامِحة وعنيدة — أقصد مارجريت — لكن المرء يتوقَّع هذا من العباقرة، وقد كانت تبدو حساسة … حسَّاسة للغاية حتى إن المرء قد يغفر لها …»

«أجل، أفهم ذلك.»

«لكن مارجريت التي تعرفها مارتا وأولئك الناس كانت شخصًا لم أكن أعرفه على الإطلاق. شخصًا ما كان سيروقني حتى لو … أذكر أن مارتا قالت حين قلت لها إنها «عاشت» على الأقل: «تكمن المشكلة في أنها لم تسمح لأحد أن يعيش. كان التأثير الذي أحدثته كبيرًا حتى إن رفاقها قد تُركوا في عزلة تامة. فهم إما ماتوا كمدًا أو دُفعوا إلى الموت تحت عجلات أقرب عربة ضخمة.» وهكذا، لم أعدْ أشعر برغبة في قتل والتر. لكنني كنت ما زلت أكرهه لأنه هجرها. لم أستطع نسيان ذلك. أنه هجرها وأنها قتلت نفسها جرَّاء ذلك.» ثم أضافت حين رأت جرانت على وشك أن يقاطعها: «أوه، أعرف، أعرف! لم يكن الأمر أنها أحبَّته لهذه الدرجة. أعرف هذا الآن. لكن لو كان ظلَّ معها لظلت هي على قيد الحياة حتى يومنا هذا. على قيد الحياة بعبقريتِها وجمالها وجاذبيتها المُبهجة. كان بإمكانه الانتظار …»

فأكمل جرانت متسائلًا بنَبرة أجف مما كان ينوي: «حتى تسأم هي؟» فأجفلت.

وقالت في صراحة حزينة: «لم يكن هذا ليستغرق وقتًا طويلًا.»

فقال جرانت: «هل لي أن أغير رأيي وأحظى ببعض القهوة في نهاية الأمر؟»

نظرت إلى يدِها التي لا تستطيع السيطرة عليها وقالت: «هلا صببتَ بعضها لنفسك؟»

وراحت ترقبه وهو يصبُّ القهوة، ثم قالت: «أنت رجل شرطة في غاية الغرابة.»

«كما قلت لليز جاروبي حين أبدت الملحوظة نفسها: ربما كانت فكرتك عن رجال الشرطة هي الغريبة.»

«لو كان لي أخت مثل ليز، لصارت حياتي مختلفة. لم يكن لي أحد سوى مارجريت. وحين سمعت أنها قتلت نفسها، أَعتقد أنَّني قد جُننتُ قليلًا. كيف اكتشفت العلاقة بيني وبين مارجريت؟»

«لقد أرسلت الشرطة في سان فرانسيسكو تقريرًا عنكِ، وكان فيه اسمُ والدتكِ ماتسون. وبعد ذلك بوقت طويل تذكَّرت أنني قد قرأت في مرجع «أعلام المسرح» — والذي كنت أستخدمه ذات ليلة كوسيلة لتمضية الوقت بينما أنتظر مكالمة هاتفية — أن اسم والدة مارجريت ميريام كان ماتسون أيضًا. وحيث كنتُ أبحث عن علاقة بينكِ وبين والتر، بدا لي أنني قد أكون وجدتها إن كنتِ أنتِ ومارجريت ابنتَي خالة.»

«أجل. كنَّا أكثر من ذلك. كنا حينها أطفالًا فقط. كانت والدتانا نرويجيتَين، لكن إحداهما مُتزوِّجة في بريطانيا والأخرى في أمريكا. بعد ذلك وحين بلغت الخامسة عشرة، أخذتْني أمي إلى إنجلترا، والتقيت مارجريت للمرة الأولى. كانت تكبرني بعام تقريبًا، لكنها بدت أصغر سنًّا. وحتى في تلك السن كانت مارجريت في غاية الروعة. كان كل ما تقوم به يتصف بـ ... بشيء من «التألق». كنا نُراسل بعضنا بعضًا كل أسبوع منذ ذلك الحين، وكل عام كنت أراها عندما نأتي إلى إنجلترا في الصيف، إلى أن تُوفِّيَ والدي.»

«كم كان عمركِ حين مات والداكِ؟»

«ماتا في وباء الإنفلونزا حين كنت في السابعة عشرة. وقد بعت الصيدلية لكنني أبقيت على معدات التصوير الفوتوغرافي؛ لأنني أحببتُه وكنت ماهرة فيه. لكنني كنت أريد السفر. أن أصور العالم وكل شيء جميل به. لذا أخذت السيارة واتجهت غربًا. كنت أرتدي البناطيل في تلك الأيام فقط لأنها كانت رخيصة ومريحة، وحين يكون طولك خمس أقدام وعشر بوصات فإنك لا تبدو بأفضل أحوالك في ملابس الفتيات. لم أفكِّر قطُّ في استخدام الملابس كـ ... كتمويه حتى جاء يوم كنت منحنية على محرك السيارة فتوقف

رجل وقال: «أمعك ثقاب، يا صديقي؟» فأعطيته ثقابًا؛ ونظر إليَّ وأومأ برأسه وقال: «شكرًا، يا صديقي» وذهب إلى حال سبيله من دون أن يُعيد النظر. جعلني هذا أفكر. حين تكون الفتاة وحدها فإنها دائمًا ما تُواجه المتاعب — أو على الأقل هكذا هو الحال في الولايات المتحدة — حتى ولو كانت فتاة طولها خمس أقدام وعشر بوصات. كما تُواجِه الفتيات صعوبة أكبر في «الحصول» على مهنة مُربحة. لذا جربت الأمر بعض الوقت. وقد أجدى نفعًا. كما لو كان الأمر حلمًا. بدأت أجمع الأموال على الساحل. في البداية كنتُ أُصوِّر الأشخاص الذين يرغبون في العمل بالتمثيل، ثم بدأت أصور الممثلين أنفسهم. لكنني كل عام كنت آتي إلى إنجلترا لبعض الوقت. بصفتي الحقيقية. فاسمي الحقيقي هو ليزلي، لكن الناس ينادونني في الغالب باسم لي. لطالما كانت تُناديني هي باسم لي.»

«إذن جواز سفرك هو جواز سفر امرأة.»

«أجل. إنما أمثل شخصية ليزلي سيرل في الولايات المتحدة وحسب. ولا يحدُث ذلك معظم الوقت هناك.»

«وكان كل ما فعلتِه قبل الذهاب إلى ويستمورلاند هو الذهاب إلى باريس، وترك آثار ليزلي سيرل في حال ثبَت أن أحدهم كان مُتشكِّكًا.»

«أجل. كنت في إنجلترا منذ مدة. لكنني لم أظنَّ في واقع الأمر أنني سأحتاج إلى تلك الآثار. فقد كنت أنوي التخلُّص من شخصية ليزلي سيرل أيضًا. أن أجد نهاية مشتركة له ولوالتر. وهذا حتى لا يبدو الأمر كأنه جريمة قتل.»

«سواءٌ كان الأمر جريمة قتل أو — كما تبيَّن — وضع ويتمور في مأزق، كان في ذلك لهوٌ باهظ الثمن عليكِ، أليس كذلك؟»

«باهظ الثمن؟»

«عمل مُصوِّر فوتوغرافي يُدرُّ ربحًا كثيرًا، وزيٌّ كامل لشاب نبيل من أقمشة باهظة الثمن، وأمتعة متنوعة من أفضل الصانعين. الأمر الذي يُذكرني بأن أسألك، أنتِ لم تسرقي فردة قفاز من ليز جاروبي، أليس كذلك؟»

«كلا، لقد سرقتُ زوجًا. من درج السيارة. لم أكن أُفكِّر في القفازات، لكنني اكتشفت فجأة كم تكون قفازات المرأة مُقنعة. أقصد إن كان هناك شك فيما يتعلق بجنسك. إن القفازات شبه مقنعة كأحمر الشفاه. لقد نسيت أحمر الشفاه الخاص بي بالمناسبة؛ في اللفافة الصغيرة. لذا أخذتُ زوج قفازات ليز. لم يكن ذلك الزوج ليلائم يديَّ بالطبع، لكنني أردت أن أحمله معي. وقد أخذتُه على عجلٍ من درج الياقات لأن والتر كان قادمًا في

المر يُنادي ليرى ما إن كنت مستعدًّا، واكتشفت لاحقًا أنني لم آخذ سوى فردة واحدة. هل كانت الأخرى لا تزال موجودة في الدرج؟»

«أجل. وقد أدَّت بي إلى أبعد النتائج تضليلًا.»

فقالت لي، «أوه!» وبدت مستمتعة وقد تخلت عن جمود مشاعرها للمرة الأولى. أخذت تفكر قليلًا، ثم قالت: «لن يعتبر والتر ثانية أن زواجه من ليز هو أمر مسلَّم به. هذا شيء وحيد جيد تسببت أنا في حدوثه. من العدالة الشاعرية أن تكون امرأة هي من فعلت ذلك. وذكاء منك أن تُخمِّن أنني كنت امرأة فقط من الهيكل الخارجي للفافة صغيرة.»

«أنتِ تنسبين لي شرفًا أكثر من اللازم. لم يخطر ببالي قطُّ أنكِ قد تكونين امرأة. إنما فكرت وحسب في أن ليزلي سيرل قد رحَل مُتنكِّرًا في زي امرأة. ظننتُ أن الزي ربما يخصك أنت، وأنه رحل إليكِ. لكن التخلي عن حياة سيرل كلها ومُتعلِّقاته قد حيرني. ما كان لسيرل أن يفعل ذلك إلا إن كانت هناك شخصية أخرى سيتقمَّصها. حينها فقط بدأت أتساءل إن كان سيرل مُتنكرًا وليس رجلًا من الأساس. ولم تبدُ تلك الفكرة جامحة كما كانت ستبدو من قبل، لأنني رأيت مؤخَّرًا قضية سرقة تبيَّن لاحقًا أنها مختلفة على نحو يثير الدهشة كثيرًا. ورأيت كيف من السهل القيام بذلك. ثم بعد ذلك وجدتكِ أنتِ، في مواجهتي مباشرة، إن جاز التعبير. شخصية جاهزة تمامًا لكي يذُوب سيرل فيها. شخصية كانت ترسم في اسكتلندا بكل ارتياح فيما كان سيرل يُخادع المثقَّفين في أورفوردشير.» ثم انتقلت عين جرانت إلى معرض الرسوم. «هل استأجرتِ هذه اللوحات، أم رسمتِها بنفسكِ؟»

«بل رسمتها بنفسي. فأنا أقضي الصيف في ممارسة الرسم في أوروبا.»

«هل ذهبتِ من قبل إلى اسكتلندا؟»

«كلا.»

«يجب أن تذهَبي وتُشاهديها في وقتٍ ما. كيف عرفتِ أن جبل سوليفان يتمتَّع بتلك النظرة التي وكأنها تقول: «انظر إليَّ»؟»

«هكذا بدا على البطاقة البريدية. أأنت اسكتلندي؟ جرانت اسم اسكتلندي، أليس كذلك؟»

«اسكتلندي مارق. كان جدي ينتمي إلى منطقة ستراثسبي.» ثم نظر جرانت إلى الترتيب التسلسلي على قماش الرسم وابتسم. «حجة غياب رائعة وشاملة ومقنعة كأكثر ما رأيت يومًا.»

فقالت في ارتياب وهي تنظر إليها: «لا أعرف. أعتقد أنها بالنسبة إلى رسام آخر ستُصبح أقرب كثيرًا إلى كونها اعترافًا. إنها هدامة بشكل مُتعجرف كثيرًا. وتوحي بالغضب.

أظنها كذلك. كنت سأرسمها اليوم بطريقة مختلفة كثيرًا، بعد أن عرفت ليز وبعد أن صرت ... ناضجة، وقد ماتت مارجريت في قلبي كما ماتت في الواقع. من النضج كثيرًا أن تكتشف أن شخصًا عرفته طوال حياتك لم يكن موجودًا من الأساس. هل أنت متزوج، أيها المفتش؟»

«كلا. لماذا؟»

فقالت على نحو مبهم: «لا أعرف. كنت أتساءل كيف فهمت بسرعة ما حدث لي بسبب مارجريت. أعتقد أن المرء يتوقَّع من الأشخاص المتزوجين أن يكونوا أكثر تعاطفًا تجاه التقلبات العاطفية. الأمر الذي يعدُّ سخيفًا إلى حدٍّ كبير؛ لأنهم يكونون مُشوَّشِين كثيرًا بمشاكلهم العاطفية الخاصة مما يعوق وجود فائض من التعاطف لديهم. إنما الشخص المستقل أو الأعزب هو من ... من يساعد في هذا الصدد. ألن تحصل على مزيد من القهوة؟»

«أنتِ تصنَعين القهوة أفضل حتى مما ترسُمين.»

«أنت لم تأتِ لتُلقيَ القبض عليَّ، وإلا لما شربت من قهوتي.»

«أنتِ محقَّة إلى حدٍّ بعيد. ما كنت لأفعل. ما كنت حتى لأشرب قهوة شخص يحب الدعابات المزعجة.»

«لكنك لا تمانع أن تشرب القهوة مع امرأة كانت تخطط طويلًا وباستفاضة لقتلِ شخصٍ ما؟»

«وقد غيرت تلك المرأة رأيها. هناك قلة فقط من الناس ممن كنت سأرغب في قتلهم في سابق أيامي. وأظن أنني، مثل جيلبرت، كنت سأصنع من هؤلاء قائمة قصيرة بعد أن أصبح السجن مؤسسة عقابية لا تربو عن كونها مدرسة عامة غير جيدة، وبعد أن أصبحت عقوبة الإعدام على وشك أن تُلغى. ثم سأقوم بمسحٍ ساحق حين أكبر في السن قليلًا — سأتخلَّص من عشرة بسعر التخلُّص من واحد فقط — وأتقاعد هانئًا لأتلقَّى الرعاية المناسبة لما تبقَّى من حياتي.»

قالت على نحو غير ذي صِلة: «أنت عطوف للغاية.» ثم قالت بعد ذلك: «أنا لم أرتكب أيَّ جريمة في واقع الأمر. لذا لا يُمكنهم أن يُلاحقوني قضائيًّا بسبب أيِّ شيء، أليس كذلك؟»

«عزيزتي الآنسة سيرل، لقد ارتكبت كل جريمة معروفة في العالم. وأسوءُها وأبعدها عن الغفران هي تضييع وقت قوات شرطة هذا البلد المُثقَلة بالأعمال.»

«لكن تلك ليست بجريمة، أليس كذلك؟ هذا هو سبب وجود الشرطة. لا أقصد: أن يضيع وقتهم، بل أقصد أنهم يحرصون على عدم وجود شيء مريب حيال حادثٍ ما. ومن المؤكَّد أنه لا يوجد قانون يعاقب المرء على ما أطلقت أنت عليه مزحة مزعجة، أليس كذلك؟»

«دائمًا ما يكون هناك مبدأ «الإخلال بالسِّلم». ومن المدهش كم الأشياء المتنوعة التي يمكن استحداثها لتندرج تحت مظلة عنوان الإخلال بالسلم.»

«وماذا يحدث حين يخل المرء بالسلم؟»

«يُمنَح نصيحة أخلاقية وتُطبَّق عليه غرامة مالية.»

«غرامة مالية!»

«مبلغ بسيط للغاية، وهذا في معظم الأحيان.»

«لن أُرسَل إلى السجن إذن؟»

«إلا إن كنتِ قد فعلتِ شيئًا لا أعلم به بعد. وما كنتُ لأستبعدَ ذلك عنك، كما يقولون في ستراتشبي.»

فقالت: «أوه، كلا. كلا. أنت تعرف بالفعل كل شيء عني. ولا أعرف كيف تعرف كل هذا، إذا كان هذا ضروريًّا.»

«إن رجال شرطتنا بارعون. ألم تسمَعي بذلك؟»

«لا بدَّ أنك كنت واثقًا تمامًا من أنك عرفت عني كل شيء قبل أن تأتي باحثًا عن تلك البقعة البُنية في قزحية عيني.»

«أجل. ورجال شرطتكم بارعون كذلك. لقد بحثوا في المواليد في جوبلينج في كونتيكت، من أجلي. والطفل الرضيع الذي أخذه السيد والسيدة دورفي سيرل معهما حين غادرا جوبلينج، كان أنثى، كما أبلغوني. بعد هذا كنت سأندهش للغاية لو لم يكن هناك بقعة بُنية في قزحيتك.»

«إذن فقد اتفقتُم عليَّ.» كانت يداها قد توقَّفَتا عن الارتعاش كما لاحظ جرانت. وكان مسرورًا أنها وصلت إلى مرحلة التهكُّم. «هل ستصحبُني معك الآن؟»

«بل على العكس. هذا فراقُ بيني وبينكِ.»

«فراقٌ؟ لا يُمكنك أن تفارق شخصًا لا تعرفه.»

«بالنِّسبة إلى الصلة بيننا من حيث التعارف المتبادل، فإنني أحظى بأفضلية عليكِ كما يقولون. قد تكون معرفتي جديدة عليك إلى حدٍّ ما — أو هي فعليًّا جديدة — لكنكِ لم تُفارقي ذهني طوال الأسبوعين الماضيين، وسأُسرُّ كثيرًا لأخرجك من تفكيري.»

«لن تأخذني إذن إلى قسم الشرطة أو أي شيء من هذا القبيل؟»

«كلا. إلا إذا بدرتْ منك علامات على مُغادرة البلاد بسرعة. في تلك الحالة ومن دون شك سيظهر شرطي إلى جانبك وسيقدم لكِ دعوة ملحَّة لكي تظلي.»

«أوه، لن أهرب. أنا آسفة حقًّا لما بدر مني. أقصد لما سببت من متاعب وما سببت من ... معاناة حسبما أظن.»

«أجل. أشعر أن المعاناة هي الكلمة المناسبة.»

«وآسفة خصوصًا على ما لا شكَّ أن ليز قد عانت منه.»

«كان شرًّا غير مبررٍ منكِ أن تفتعلي ذلك الخلاف في حانة سوان، أليس كذلك؟»

«بلى، بلى. كان هذا شيئًا لا يُغتفَر. لكنه أصابني بالجنون إلى هذه الدرجة. كان مُتعجرفًا للغاية. مُتعجرِفًا بغير وعي منه. لطالما كان كل شيء سهلًا بالنسبة إليه.» هنا رأت رغبته في التعليق ظاهرة على وجهه، فاحتجَّت تقول: «أجل. حتى عن وفاة مارجريت! فقد ذهب بعدها مباشرة إلى ذراعي ليز. لم يعرف والتر قطُّ معنى الأسى. أو الخوف. أو اليأس. أو أي شيء من الأشياء البليغة «الطاحنة» في الحياة. كان مُقتنعًا إلى حدٍّ كبير أن لا شيء يتعذَّر إصلاحُه قد يقع له. فلو ماتت «مارجريت» دائمًا هناك «ليز». «أردته» أن يُعاني. أن يقع في شيء لا يمكن له أن يُخلِّص نفسه منه. أن يلقى المتاعب ويظلَّ يُعاني فيها ولو لمرة واحدة. ولا يُمكنك أن تقول إنني لم أكن محقَّة! لن يصبح والتر متعجرفًا ثانية. أليس كذلك؟ بعد ما حدث!»

«بلى، أظن أنه لن يُصبح كذلك. في الواقع، أنا واثق من ذلك.»

«أنا آسفة للألم الذي اضطرت ليز إلى تكبده. كنت سأذهب إلى السجن إن كان في ذلك تعويض لها. لكنني أعطيتها والتر بشخصية أفضل كثيرًا من الذي كانت ستتزوَّج به. إنها واقعة حقًّا في حب ذلك المخلوق البائس الأناني المسكين. والآن، لقد عدلت من شخصيته لأجلها. وسأَندهِش كثيرًا لو لم يُصبح منذ الآن رجلًا جديدًا.»

«إن لم أذهب، فستُثبتي لي أنكِ فاعلة خير بدلًا من كونك مُذنِبة بتهمة الإخلال بالسلم.»

«ماذا سيحدث لي الآن؟ هل أجلس فقط وأنتظر؟»

«لا شك أن شرطيًّا سيُقدِّم لكِ استدعاءً رسميًّا بالحضور أمام المحكمة. بالمناسبة، هل لديكِ محامٍ؟»

«أجل، لديَّ رجل عجوز له مكتب صغير غريب، وهو يحتفظ برسائلي البريدية حتى أطلبَها منه. يُدعى بينج، باري، باري وبينج، لكنني لا أظنُّ أن اسمه أيٌّ من ذلك في الواقع.»

«إذن من الأفضل لكِ أن تذهبي وتخبريه بما فعلتِ.»

«هل أخبرُه بكل شيء؟»

«الأجزاء المهمَّة ذات الصلة. ربما يمكنكِ عدم ذكر الخلاف في حانة سوان، وأي شيء آخر تعتقدين أنكِ تشعرين بالخجل منه.» لاحظ جرانت أنها تفاعلت مع ذلك. فأكمل: «لكن لا تُسقطي الكثير. فالمحامون يحبُّون أن يعرفوا؛ ولا يمكن أن يصدموا كرجال الشرطة.»

«هل صدمتك، أيها المفتش؟»

«ليس على نحوٍ ملحوظ. فأنتِ تُمثِّلين تحوُّلًا مُرضيًا من السرقات المسلَّحة والابتزاز وخدع الاحتيال.»

«هل سأراك حين أُحاكَم؟»

«كلا. بل أتوقَّع وجود رقيب صغير ليقدم الأدلة.»

أخذ جرانت قبعته واستعد للرحيل، وهو ينظر مرةً أخيرة إلى معرض امرأة واحدة للوحات منطقة ويست هايلاندز.

ثم قال: «ينبغي لي حقًّا أن آخُذ معي لوحةً كتذكار.»

«يمكنك أخذ أي لوحة تختارها. سيتم محوها على أي حال. أيها يروقك؟» كان من الواضح أنها لم تعرف ما إن كان جرانت جادًّا في حديثه أم لا.

«لا أعرف. تروقني كيشورن، لكنني لا أتذكر أن كيشورن كانت عدائية إلى هذا الحد، ولو أخذت لوحة كولينج فلن يكون هناك مساحة لي بالغُرفة معها.»

كانت قد بدأت تقول: «لكن أبعادها تبلغ فقط ثلاثين بوصةً في ...» ثم فهمت مقصده. «أوه. فهمت. أجل، إنها اقتحامية ومُتطفِّلة.»

«لا أظنُّ أن أمامي وقتًا لأنتظر وأنتقي منها. أخشى أن عليَّ أن أتركها. لكن شكرًا لكِ على هذا العرض.»

فقالت: «عد في أي يوم حين يكون أمامك متسع من الوقت واختر من بينها على راحتك.»

«شكرًا لكِ. قد أفعل ذلك.»

قالت وهما ينزلان على السلم: «حين تُبرئ المحكمة ساحتي، ستجد هذا الأمر محبطًا بعض الشيء، أليس كذلك؟ أن أنطلق بنيَّة قتل شخص ما وينتهي بي المآل إلى الإخلال بالسلم.»

أَسَرَت نبرة الانفصال في حديثها هذا انتباهه، فوقف طويلًا ينظر إليها. وبعد برهة قال كما لو كان يُصدر حكمًا: «لقد شُفيتِ.»

فقالت بنبرة حزينة: «أجل، لقد شُفيت. لن أصبح ساذجة بعد الآن. كان الأمر جميلًا أثناء فترة استمراره.»

قال جرانت مُطمئِنًا ومشجعًا إياها: «من الجميل أن ينضج المرء أيضًا» وغادر نازلًا السلم. وحين فتح الباب نظر خلفه فوجدها لا تزال واقفة ترقبه. فقال: «بالمناسَبة، ما هي الأكسسوارات؟»

«ماذا؟ أوه!» ثم ضحكت قليلًا. «أحزمة ومآزر وعقد أنشوطية وباقات أزهار صغيرة هشة لتزين بها النساء شعورهن.»

قال جرانت: «وداعًا.»

«وداعًا، أيها المفتش المحقِّق جرانت. أنا ممتنَّة لك.»

انطلق جرانت في ضوء الشمس، متصالحًا مع العالم.

وبينما يسير إلى محطة الحافلة واتته فكرة جميلة ومجنونة. سيتَّصل بمارتا ويسألها إن كانت تريد استضافة امرأة أخرى في ليلة السبت، وستقول هي أجل، أحضر من تريد، وسيحضر لهم لي سيرل.

لكنه بالطبع لا يستطيع فعل ذلك. فسيُصبح هذا تصرفًا غير لائق من ضابط في قسم التحقيقات الجنائية؛ إذ سيشير هذا إلى طيش عقله ورعونة من جانبه لا يمكن وصفها إلا بكونها باعثة على الأسى في ظل هذه الظروف. قد يُصبح مقبولًا ممن هم مثل لي سيرل في هذا العالم؛ الأشخاص الذين لم ينضجوا بعد، أن ينساقُوا وراء أفكارهم، أما بالنسبة إلى البالغين، الذين يتسمون بالوقار على وجه الخصوص، فهم يلتزمون بقواعد اللياقة.

وبالطبع كانت هناك تعويضات مقابل ذلك. فالحياة مبنية بالكامل على التعويضات.

إن الوهم والخيال للمراهقين؛ أما البالغون فلهم البهجة الناضجة.

ولم تستطع بهجة من سنوات «شبابه» أن تملأ صدره بترقُّب مثير أكثر من البهجة النابعة من تصوره لوجه مديره برايس حين يقدم له تقريره هذا الصباح.

كان ذلك مشهدًا مرتقبًا مهيبًا ومُرضيًا بحق.

بالكاد كان بمقدوره الانتظار.


هنداوي